

شرح نُونية القطاني

شرح فضيلة الشيخ: صالح السُّحيمي - حفظه الله-

الأشرطة العشر الأولى



الشريط الأول

إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: 102].

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء: 1].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب: 70-71].
أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.
أَمَّا بَعْدُ:

أيُّها الأخوة: لقد منَّ الله علينا - سبحانه وتعالى - وفرغنا من شرح بعض كتب السلف وأخرها الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام بن تيمية - رحمه الله تعالى - الذي تمَّ بفضل الله - عزَّ وجلَّ - الانتهاء منه ليلة الأوَّل من هذا الشهر المبارك شهر رمضان المبارك،

ونزولاً عند رغبة بعض الإخوة رأيت أن نبدأ بشرح القصيدة النونية للشيخ محمد بن عبد الله القحطاني - رحمه الله تعالى -؛ ولما كان بعض الأخوة لم يبلغ بعد إذ تحديد الوقت كان متأخراً في هذا اليوم؛ فإننا سنؤجل الشروع في النصّ إلى الغد إن شاء الله تعالى منبّهين في هذا اليوم على أهميّة دراسة كتب السلف والاشتغال بها؛ لأن فيها الخير كل الخير، فلاهتمام بكتب السلف التي فيها عقيدة وسنة وفقه وعلم وأدب وعليها طابع الإخلاص والتقى والورع والإتقان لا تكاد تمر جملة إلاّ وتجد فيها إشارة إلى آية أو حديث أو أثر عن السلف الصالح؛ بل ربما كان بعض الكلمات أو الجمل هي نصوص بعينها تضمن في ذلك الكتاب أو ذاك؛ لذلك هذه الكتب عليها نور وفيها بركة وفيها نفع كبير لطلاب العلم؛ فعليهم أن يشتغلوا بها بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّها بمثابة الشروح لهذين الوحيين؛ أعني: الكتاب والسنة؛ فإذا اهتمّ بها المؤمن عامّة وطالب العلم خاصّة فإنّه سيجد عنده حصيلة علميّة وافرة نافعة بإذن الله - سبحانه وتعالى -؛ لأنّها كتب تنطق بهدي الكتاب والسنة إما لفظاً وإما معنى، ولذلك تبرز أهميتها وتكمن فائدتها لأنّها إما شرحاً لآية أو لحديث أو تقريراً لحكم دلت عليه الآية أو الحديث أو بياناً لمداول تلك الآية أو ذلك الحديث.

لذلك تجد هذه الكتب عندما تقرؤها تجد لها لذة خاصّة تدرك من خلال ذلك أنّ أهلها قد خالط هدي الكتاب والسنة دماءهم وعروقهم وجرى في دماءهم وأُشربت به قلوبهم، خلافاً لأهل الأهواء والبدع الذين ليس لأحدهم إلاّ ما أُشرب من هواه تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، أما علماء أهل السنة فإنّ كتبهم تنطق بالحق؛ لأنّ أساسها ومبناها ومستندها ومنتهاها وقطب رحاها هو ذلكم الأساس المتين والحرز العظيم والركن الركين وهو كتاب الله سبحانه الذي: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، فلاهتمام بذلك يا عبد الله يثري عقلك وقلبك ودماغك ولغتك ولسانك وجوارحك بالتقى والإيمان والعلم والفقه في الدين، هذا هو شأن كتب السلف التي كتبت أو تكتب بأحرف من ذهب أو ما فوق الذهب؛ لأنّها كما قلت ترجمة صادقة وصورة ناصعة وبيان واضح لما كان عليه القوم من تمسك بكتاب

الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك قلَّ عندهم الخطأ وإن كنَّا نحن لا نعتقد العصمة إلاَّ للرسول عليهم الصلَّاة والسلام؛ لكن أقول قلَّ عندهم الخطأ إذا قورنوا بمن جاء بعدهم وكيف لا يقلَّ عندهم الخطأ ومنهلهم ومشرَّبهم وأساس دعوتهم ومنهج عقيدتهم وأساس وحدتهم هو كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: 109]

لذلك إخواني فإننا عندما نقرأ هذه الكتب ونتمعن فيها وكلَّما تقرأ تلمس الخير وصدق الكلمة وصدق اللهجة وقوَّة الإيمان؛ لأنَّهم يهدفون إلى أن يفهم النَّاسُ الدِّينَ الصَّحِيحَ الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، الدِّينَ الصَّحِيحَ الذي لا غلوَّ فيه ولا تقصير، الدِّينَ الصَّحِيحَ الذي لا (...) ولا شطط الدِّينَ الوسط الذي اختاره الله -عزَّ وجلَّ- لهذه الأُمَّة يبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: 164]

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله الذي هدانا للإيمان، والحمد لله الذي هدانا لأن نكون من أهل السنَّة و الجماعة أصحاب الطريق الوسط فإنَّ أهل السنة وسط بين الفرق كما أنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وسط بين الأمم؛ ولذلك يقول الله -سبحانه وتعالى-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143]

قال المفسِّرون: أي عدلاً خیاراً، عدول خيار بين الأمم السَّابِقة، فعلينا أن نفهم ذلك و إذا تمعنا في كتب السَّلف التي أُلِّفت في العقيدة نجدُها على هذا المنوال، ولو استعرضتها من تاريخ أول مؤلف في التوحيد إلى ما أُلِّفه و سطره مشايخنا وعلمائنا في هذا الزمان؛ لوجدتها تنطق بأسلوب واحد و بمنهج واحد وتدعوا إلى هدف واحد؛ وهو تحقيق التوحيد وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي والسير على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله -سبحانه وتعالى- أن نسير عليه بقوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 6, 7]

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153]

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24]

وقوله -سبحانه-: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21]

فكتب السلف كلها حول هذه الأهداف لا تخرج عنها يمنة أو يسرة؛ بل كلها تدعو إلى هذا الأمر الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فينبغي لنا أن نسير على منهجهم وأن نحذو حذوهم وأن نسلك الطريق المستقيم الذي من حاد عنه يميناً أو يساراً؛ شذَّ وضاع وضلَّ وأضلَّ وبُعد عن منهج الله المستقيم هذا هو الطريق هو طريق النجاة وطريق السلامة وطريق رضوان الله -سبحانه وتعالى-، وأي منحى يأخذ بصاحبه عن هذا الطريق؛ فإنه سيورده [حياد] الردى ويبعده عن طريق النجاة والهدى، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله، ومن طلب الهدى من سواه أبعد الله؛ فهو صراط الله المستقيم ونوره المبين وهديه القويم وطريق السالكين إلى مرضاة رب العالمين، وهو الذي عناه ابن القيم -رحمه الله- بعنوان كتابه: "مدارج السالكين شرح منازل السائرين للهروي -رحمهما الله- بين إياك نعبد وإياك نستعين". هذا هو الطريق الذي يجب أن نسير عليه وهو الذي يعنيه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يَسِرُ وَلَنْ يَشَادَ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ))، وهو المعنى بقول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عندما قال: "سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَلَاةَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ سَنًّا؛ الْأَخْذَ بِهَا قُوَّةً عَلَى دِينِ اللَّهِ وَاسْتِكْمَالَ لَطَاعَةِ اللَّهِ وَتَصَدِيقَ بَكْتَابِ اللَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا وَلَا النَّظَرَ فِي شَيْءٍ خَالَفَهَا، مَنْ اسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ مَنْصُورٌ، وَمَنْ اهْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ، وَمَنْ خَالَفَهَا وَبَدَّلَهَا وَغَيَّرَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَلَاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا".

فعلينا يا عبد الله أن نسلك هذا السبيل وأن نجتهد فيما يقربنا إلى مرضاة ربنا بفهم كتابه -جلَّ وعلا- وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم وفق فهم سلف الأمة الذين بهم

قام القرآن وبه قاموا وبهم نطق القرآن وبه نطقوا؛ أولئك الغر الميامين والسادة المتقين والعدول المقربين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين مدحهم الله في كتابه وأثنى عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقال -تبارك وتعالى-: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [التوبة: 100]

وقوله -تبارك وتعالى-: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 8, 9, 10]

وقوله -جلّ وعلا-: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}

[الفتح: 18]

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)) فعلينا أخوة الإيمان أن نعرف لهم حقهم وأن نسير على هديهم ومنوالهم وأن نجتهد في أن نكون على ما تركهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين هم أماناؤه على تبليغ ما أوحى إليه به ربّه؛ فالصّحابة هم الأمانة على الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيُّ خدش فيهم أو نيل منهم هو نيل من الدين كله.

فعلينا أن نفهم هذا أيّها الأخوة وأن نجتهد في أن نسير على منهجهم ووفق خطاهم وعلى الطّريق الذي سلكوه وهو هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك.

فيا أخوة الإسلام نعود إلى أهمية قراءة ودراسة كتب السلف ومتون السلف التي سطرّوها بأحرف من نور وفق هدي الكتاب وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فينبغي أن نحذو حذوهم وأن نسير على منوالهم وأن نمتدي بهداهم وأن نتبع خطاهم وأن

نسأل الله أن يحشرنا في زمرة هم: {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69]؛ جعلني الله وإياكم منهم، وقبل أن أختتم كلمتي هذه مقدّمة لشرح القصيدة النونية أحب أن أنبه طلاب العلم إلى أمر مهم؛ وهو الاشتغال بالعلم والتعلم والتفقه في دين الله - سبحانه وتعالى - وخير ما يتفقه فيه كتاب الله - عزّ وجلّ - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكتب السلف التي تشرح هذين الأصلين العظيمين؛ فاشتغلوا بذلك ولا تشتغلوا بكثرة القيل والقال، ولا بكثرة طرح الشبه، ولا بكثرة التعلّق بالأشخاص أو طرح الأسئلة عن الأشخاص التي سببت فتناً بين طلاب العلم، وتترك معالجة هذه الأمور للعلماء الذين هم أكبر منّا وأفقه منّا وأعلم منّا، وأدرى بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم منّا، وأدرى بمراعاة المصالح والمفاسد، وأدرى بمراعاة درء الفتن الذي لا بدّ منه قبل أن يتكلم المسلم والدّاعي خاصّة بأية كلمة يجب أن يزنها بميزان الشرع وأن يعرضها على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فربّما تطلّب الأمر "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا" دون التصريح، وربّما تطلّب الأمر مجرد التلميح والتلويح، وربّما تطلّب الأمر بيان الحق بدليله دون الخوض في ما يخالفه، وربما تطلّب المقام الرد بطريقة علمية جيدة يراعى فيها مقتضيات الأحوال، وربما تطلّب الأمر "بئس خطيب القوم أنت"؛ فيجب على المسلم أن يراعى مقتضيات الأحوال، وأن ينظر إلى ما ينبغي أن يقول قبل أن ينطق به، أن يزن كلمته.

أكرّر وأقول تترك معالجة الأمور الكبار التي هي محل نظر عند أهل العلم من معالجة بعض القضايا الكبيرة التي يختلف فيها ذوو الرأي من أهل العلم أو لهم فيها وجهات نظر وبخاصّة فيما يتعلّق على إصدار الأحكام على الناس فإنّ هذا لله ولرسوله ولما يدل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فينبغي للمسلمين وطلاب العلم خاصّة أن يجتهدوا في طلب العلم الشرعي وأن لا يشتغلوا بما لا ينفع.

أحياناً تجد البعض يدور في حلقة مفرغة! يختلفون من أجل خلاف شخص ما فينقسمون إلى قسمين ثم ينشطر الآخرون إلى أقسام ثم ينشطرون إلى أقسام -والعياذ بالله- وهكذا شأن أهل البدع والأهواء هم الذين دائماً ينشطرون وينشغرون ويتوزعون؛ {إنّ

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ { [الأنعام: 159]

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: 103]

فتنبهوا يا عباد الله تنبهوا إخواني المسلمين عامة وطلاب العلم خاصة، وزنوا
كلماتكم، ولا تبحثوا أموراً قد توجد الحن والغل والحقد بينكم، وأنتم لا تحسنون التعامل
معها ربما يكون بعضها حقاً لكن لست أنت ولا أنا ربما نقدر على معالجته لكنه يترك لمن؟
لعلماء الأمة الذين ينفون عن كتاب الله -عز وجل- تحريف الغالين وانتحال المبطلين
وتأويل الجاهلين.

ولا تلتفت يا عبد الله إلى أولئك الرعاع والشُّذَّاذ؛ شُذَّاذ الآفاق وشر الطوائف الذين
يهوّنون من شأن علماء الأمة، إذا رأيت الناس يتكلمون في العلماء والولادة؛ فاعلم أنهم
أصحاب بدعة وضلالة هذا من علامات أصحاب البدع؛ الخوض في أمر علماء الأمة
وولادة أمورها، إذا رأيت من يغتابهم ويتكلم فيهم أو من يغمزهم؛ فاعلم أن هؤلاء
أصحاب بدعة ومفتتحوا باب ضلالة؛ فابتعدوا عنهم وانأوا بأنفسكم عنهم؛ لأنهم
يُجْرِبُونَ، ومن خالط الجرباء جَرِبَ -ياذن الله سبحانه وتعالى- و "المرء على دين خليله"
و"المرء مع من أحب"؛ فابتعد عن هذا الصنف من الناس ابتعد عنهم، إذا رأيتهم يغمزون
علماء الأمة أو يتكلمون فيهم أو في ولادة المسلمين أو يتكلمون في من يدعو إلى السنة ومن
يدعو إلى التمسك بالسنة؛ فاعلم أنه صاحب بدعة فابتعد عنه واهجره وابتعد عنهم
بالكلية، ودعوا الأمور الشائكة التي تتطلب علاجاً جذرياً يترك هذا كما قلت للعلماء
الكبار للعلماء الربانيين، ولا نخوض في كل ما قد يعرض ونحن لا نحسنه "رحم الله امرئ
عرف قدر نفسه" أؤكد على هذه المسألة يا إخواني ولنشتغل بطلب العلم وبخاصة إذا
كانت هناك دراسة في كتب العلم، كتب العقيدة، كتب الفقه؛ فليكن التركيز على ذلك
الكتاب الذي يُدرّس وما يتعلّق به ولا نخرج عنه؛ إلا فيما دعت الحاجة إليه من الأسئلة
الضرورية التي قد يحتاجها إخواننا العمار والحجاج والزوار ويجاب بقدر المعرفة، وفيما
صعب يُحال إلى علمائنا الكبار -وفقههم الله تعالى-، أؤكد على هذه المسألة {وَلَا تَقْفُ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا { [الإسراء: 36]

علينا أن نعي هذا الأمر وأن نفقه هذه الحقيقة حتى نسلم من الإفراط والتفريط ومن كثرة القيل والقال وأنبه أئمة الأخوة أيضاً إلى المهارات التي الآن استخدمت عبر جهاز الإنترنت والكثير منها (...) وسيء الكثير منها، نعم هو أعلم صالح للخير والشر، ولكن أكثر ما ينشر فيه الآن غثاء، أكثر الذي يُقال فيه حالياً غثاء كغثاء السيل، لا الغثاء تستفيد منه الزروع، وبعض الكلام الذي ينشر فيها لا يستفاد منه؛ بل يضر ولا ينفع وبخاصة تجدون فيه تشويه لأهل السنة، تشويه لدعاة السنة، تشويه لعلماء الأمة وولاتها، المسلم ليس غرّاً "لست بالخب ولا الخب يخدعني"؛ كما يقول عمر -رضي الله عنه-، المسلم كيس فطن، المسلم قوي بإيمانه لا تأخذه العاطفة إذا وجد خيراً صدّقه يجري خلف كلّ ناعق؛ فمتى وجد إشاعة صدّقها وردّها وأخذ يذيعها، لا ينبغي أن تشيع هذه الإذاعات؛ تثبت، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: 6].

عندها تندم ساعة لا ينفع الندم من قال (...) فلان فلان فلان، وقد تكتشف أنت يا من نشرت الخبر؛ فتنال أموراً لا تحمد عقباها وتحمل وزر ذلك كله؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من دعا إلى هدى فله مثل أجر من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة فعليه وزرها أو مثل وزر من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً)) ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)).

الآن بعض الشباب يجلس على هذا الإنترنت ويجد التشويه والأخبار المُلَفَّقة والأكاذيب وبخاصة عن هذه البلاد وولاتها وعلماءها وتطبيق الشرع فيها، نحن ما ندعي الكمال القصور موجود لكن يعني التشويه الذي تترجمه بعض الفئات، يتزعمه الغربيون والكفرة، ويتزعمه الخوارج والغلاة كلاب أهل النار؛ فنحن بين فكّي كمّاشة بين فكّي رحي؛ فك الغرب والكفرة والملاحدة وفك الذين يتشدّقون بالدين وهم كلاب أهل النار من الخوارج ومن سار على منوالهم، فكونك تأتي إلى تلك القنوات أو إلى ذلك الجهاز وتأخذ كل ما فيه مُسلّم وتحيي به المجالس وتتندر به، والله القناة الفلانية نشرت اليوم كذا

وكذا وأجرت مقابلة مع فلان وقال كيت وكيت وأجرت مقابلة مع فلان، وقناة الختيرة! وما أدراك ما الختيرة! هذه القناة اليهودية التي تدس السم في الدسم، ويخيل لبعض الجهلة أنها دقيقة بما تنشره من أخبار، وهي دائماً ضد أهل السنة في كل حلقاتها وفي كل ما تدعو إليه ومع جميع ضيوفها هذا هو دأبها؛ لأنها لا شك أنها مؤسسة صهيونية ماسونية يهودية تلعب بعقول السذج من شبابنا، وأمثالها كثير من القنوات المشبوهة؛ فانتبهوا يا أخواني أعود فأقول علينا أن نشتغل بالعلم والتعلم والتفقه في الدين وتلاوة القرآن وفهم السنة والدراسة على المشايخ وعلى طلاب العلم، وفي الجامعات الشرعية، والبعد عن هذه المهاترات وعن إضاعة الأوقات فيها، والله أنت مسئول عن وقتك الذي تضعه بالجلوس على تلك القنوات المشبوهة، أو على تلك الأجهزة المشبوهة؛ فتنبه يا عبد الله.

أمّا الصُّور التي تراها فلا تخيلك لا تغرنك فهل يستطيعون أن يظهرونا أنت في صورة وأنت متلبس بجرمة أليس كذلك؟ الآن عندهم القدرة بوسائلهم الخبيثة أن يلبسوك جريمة وربما أجبروا من أجبر بقوة السلاح أن يعترف بها وأظهروه مقترناً ومتلبساً بتلك الصورة هذا ليس دليلاً على الدقة.

قبل عشر سنوات أظهر المشبوهون أن بعض الكفار في داخل الحرم هذا دجل وأظهروه في صور متلفزة، الذين لا يخافون الله -عز وجل- وكله دجل وكذب وسفه لا يقول به إلا سيء الخلق وضعيف الإيمان ومن لا فقه عنده ومن ضعف جذوة الإيمان في قلبه السلامة من هذا هي بالاشتغال بالعلم والتعلم؛ كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم)).

فاجتهدوا في ذلك إخواني وإياكم والانخداع بالإشاعات المغرضة ولو رأيتم من يرددها أحياناً يرددها أناس يعني تحسبهم عقلاء؛ لكن عندهم سداجة سمعوا هذا الخبر فنقلوه بدون تثبت، بدون روية؛ ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع))؛ فتنبه يا عبد الله واشتغل بالعلم والتعلم الذي جئت من أجله، وبخاصة طلاب العلم بهذه البلاد والأخوة الذين قدموا من بلاد أخرى لطلب العلم عليهم أن يتفرغوا للأمر الذي جاءوا من أجله، وأن يبتعدوا عن بنيات الطريق واحد يترك الاختلاف على الأشخاص الذي ربّما يفتن الناس، نعم قد يكون بعض أشخاص مشبوه ولم يتضح أمره لبعض الناس فيبدأ

الخلاف عليه ويمتحن بعضهم بعضاً به، ما يجوز يا أخي أترك زيد أو عمر، أترك قضيتهم للعلماء الربانيين الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

** ** *

الشريط الثاني

إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

قبل أن نشرع في درسنا أنبه على مسألتين:

المسألة الأولى:

نسمع بعض الأخوة و الزَّائرين يقعون في كلمات شركية وربما أنهم لا يدركون معناها وحقيقتها فنسمع بعض الإخوان -هداه الله وبصرنا الله وإياه في ديننا وألهمنا الرشد والصواب- نسمعه يقول: -كثيراً ما نسمع البعض يقول:- "مدد يا رسول الله" هذا سمعناه البارحة! وقبل البارحة في أيام كثيرة، والبارحة طُرِحَ سؤال حول هذا لكن ما تمكنا من الإجابة عليه؛ من الذي يملك المدد يا عبد الله؟ نعم

الله وحده، ورسوله صلى الله عليه وسلم له منزلته؛ فهو سيدنا وإمامنا وقودتنا وقائدنا وسيدنا وسيد الأولين والآخرين؛ لكن مع هذا كله لا يجوز أن ندعوه من دون الله -عز وجل-، فإذا أردت يا عبد الله أن تطلب المدد؛ فاطلب المدد من الله -سبحانه وتعالى-، والرسول والملائكة والرسول عليهم الصلاة والسلام كلهم يرجون الله، يخافونه ويرجوناه فلنقتدي بهم؛ أمّا أن نقول: مدد يا رسول الله؛ فوالله إن هذا هو الشرك بعينه الذي من أجله أرسل الرسل وأنزل الكتب، لا يجوز أن تطلب المدد من غير الله ولا يجوز أن تطلب الشفاعة من غير الله، وسمعت الآن دعاء فضيلة الشيخ -وفقه الله- حيث قال:

"اللَّهُمَّ ارزقنا شفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم، هذا التوحيد بينما لو جاء وقف الآن واحد أمام القبر وقال الشفاعة يا رسول الله هذا شرك، وفرق بين التوحيد والشرك ها أنت تقول: اللَّهُمَّ ارزقنا شفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم، اللَّهُمَّ لا تحرمنا من شفاعة نبيك، اللَّهُمَّ وفقنا لشفاعة نبيك، اللَّهُمَّ اشمنا بشفاعة نبيك؛ لكن ما تأتي عند القبر أو أمامه أو أي مكان وتقول الشفاعة يا رسول الله، هذه الشفاعة الشركية المحرمة المنكرة التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فلا تطلب المدد يا أخي من القبر ولا من صاحب القبر ولا من أي مخلوق كان حتى ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا.

تنبه يا عبد الله -وفقي الله وإياك للخير- وتجرد للحق وطهر قلبك من التعصب، أحد الأخوة البارحة نبه الذي كان يدعو بهذا الدعاء يقول: "مدد يا رسول الله"؛ فما كان من هذا الشخص المسكين الذي نبه إلا أن هرب وأدبر! ولم يسمع للذي نصحه لوجه الله -عز وجل-، هو ماذا يريد منك عندما يقول لك لا تقل هذه الكلمة الشركية؟ هو والله يريد لك الخير يا عبد الله، والله والله ما نريد لك إلا الخير، فتقبل هذا الخير يا عبد الله والله إنني أحب لك ما أحب لنفسي؛ فتقبل هذا الخير يا أخي ولا تتعصب لما وجدت عليه الآباء والأجداد، لا تقل: "مدد يا رسول الله" وإنما اطلب المدد من الله؛ فإنه لا الرسول ولا الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً ولا الملائكة يملكون المدد من دون الله -عز وجل-؛ يقول الله -عز وجل- مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} [الجن: 21]

{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}؛ أي: بالدعاء {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: 188].

الأنبياء منهم من قتل، قتل زكريا ويحيى -عليهما السلام-، زكريا ويحيى قتلهم اليهود -عليهم لعائن الله-؛ يعني ما تطلب المدد من مخلوق بشر، نعم ميزه الله على الناس وأفضل الخلق عليه الصلاة والسلام هو سيد الأولين والآخرين هو أول شافع وأول مُشفّع، أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يفتح باب الجنة، فضله الله على سائر البشر لكن هذا لا يجوز لنا أن ندعوه من دون الله -سبحانه وتعالى-، لما سمع النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يقول: "ما شاء الله وشئت" كلمة يسيرة تجري على ألسنتنا فقط يعني جعله شرك

بالواو مع أن الواو تحتل التشريك وعدمه ليست قاطعة بالتشريك، ومع هذا غضب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: ((أجعلني لله ندا))؛ -لأنه قال ما شاء الله وشئت- ((أجعلني لله ندا بل ما شاء الله وحده)).

تنبّهت يا أخي؟ فلا تقل مدد يا رسول الله وإثما قل: "مدد يا الله"، لا تستشفع بمخلوق على الله وإثما توسل بإتباع النبي صلى الله عليه وسلم وبمحبتته وبالسير على منهجه، لا بدعائه ولا طلب المدد منه ولا الغوث ولا الشفاعة منه، فإن الذي يملك الغوث والشفاعة والمدد هو الله -سبحانه وتعالى- فمن طلبها من أحد من المخلوقين ولو كان نبياً أو ملكاً؛ فهو مشرك هذه مسألة.

المسألة الثانية:

يا عبد الله، لعلكم أحياناً تسمعون في الصباح عندما يفتح الباب للنساء لزيارة المقابر تسمعون الصرخ والزغردة وكأتهن داخلات إلى مرقص من المراقص! ما أدري تتصور أنّها في مسرح من المسارح! عندما تمد حنجورها بهذا الشكل وتزغرد بصوت منكر!! { إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [لقمان: 19].

الإمام مالك -رحمه الله- لما سمع من يرفع صوته بالسلام عند الرسول صلى الله عليه وسلم نهاه واستشهد بالآية: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } [الحجرات: 2].

فهؤلاء المسكينات اللاتي يأتين وبمجرد ما يدخلن مع باب المسجد يزغردن بأعلى أصواتهن المنكرة؛ هل هذه عبادة؟! هه، لماذا يا أمة الله؟ هل هذا مرقص؟! هل هو مسرح؟! هل هو مكان تمثيلات؟! ولا مكان خشوع وخضوع وهدوء وخفض صوت؟ لا يا أمة الله { إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [لقمان: 19].

نعم والله صوت الحمير أقل من كده أقل من هذا الصوت، واحد لما أنكرت هذا الأمر؛ قال: يا شيخ حرام عليك ما تخلّيها تعمل زغردة للنبي، مسكين أنت وهي، والله مسكين جاهل، اتقي الله يا عبد الله إيش زغردة من أجل النبي؟! زغروطة! ليه هي داخلة فين؟ دخلة السينما؟! لا يا عبد الله اتق الله، اتق الله يا أمة الله،

أولاً: تعلمون أن مسألة زيارة النساء القبور محل خلاف، والصحيح والله عدم الجواز هذا الذي ندين الله به؛ لأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لعن زوَّارات القبور من النساء؛ فالأولى أن لا تجعل امرأتك تأتي للقبر، اجعلها تصلي في المسجد فقط ولا تتركها تذهب إلى القبر، هذا أمر.

الأمر الثاني: على فرض أننا قلنا بالجواز كما يقوله بعض أهل العلم؛ فإنَّ الجواز يقتضي الأدب، أمَّا إذا وصل الأمر إلى هذه الدرجة؛ فيجب المنع ولو كانت الزيارة جائزة حتَّى لو كانت جائزة وجب ماذا؟ المنع لأنَّهن يفعلن المنكر صراخ، صياح، شرك، استغاثة بغير الله، دعاء لغير الله، طلب من غير الله، تعلق بغير الله، رمي الرِّسائل على الحجرة النبويَّة، بدعوى يا شيخ والله الحاجة فلانة أرسلت معي (..) يا رسول الله فلانة أرسلت رسالة إليك، لا يا أمة الله الرِّسالة لا تصل، والله ولا قيمة لهذا الإرسال، ولا يجوز أن تبُلِّغي السلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نيابة عن الغير؛ لأنَّ الرسول عليه الصَّلَاة والسلام هو يقول لنا: ((وصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبُلِّغني حيث كنتم))، ويقول: ((ما من عبد يسلم عليَّ إلَّا ردَّ الله عليَّ رُوحِي فأردُّ السَّلام)) ويقول عليه الصَّلَاة والسلام: ((إنَّ لله ملائكة سياحين يبلِّغونني عن أمَّتِي السَّلام))؛ فلماذا تأتي يا عبد الله ويا أمة الله وتقول يا رسول الله فلان وفلانة أرسلت معي السلام إليك؟! هذه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، سلِّم عليه ولو كنت في أقصى الصين، في أقصى الشرق أو الغرب والسلام يبلغ له -بإذن الله- بنصِّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فتنبَّهوا لهاتين المسألتين يا عباد الله ويا إماء الله حتَّى تكون العبادة صحيحة؛ لأنَّ العبادة لا تكون صحيحة إلَّا إذا كانت خالصة لوجه الله خالية من أي شرك أو نفاق أو رياء وأن تكون مطابقة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، تنبَّهوا لهذا إخواني - نسأل الله أن يبصِّرنا وإياكم في ديننا- والله نقول هذا الكلام محبَّة للخير لكم لأنَّنا والله نحب لكم ما نحب لأنفسنا؛ فعلينا أن نتبصَّر في ديننا وأن نرجع إلى المشايخ وإلى العلماء نسألهم ما تأخذنا العزة بالإثم، يقولك أخوك: يا أخي لا تقول مدد يا رسول الله، قل: مدد يا الله؛ تأخذك العزَّة بالإثم ويستولي عليك إبليس وتُهرَّب من النصيحة؟! ماذا قال لك حتى تُهرَّب يا مسكين؟ هو يريد لك الخير يريد الأجر لنفسه ولك؛ فاتقي الله يا عبد الله

واقبل الحق، وإياك والتعصّب فإنّ بعض التعصّب قد يوقع الإنسان في الشّرك الأكبر وهو لا يدري.

بعد هاتين المسألتين نعود إلى درسنا وهو أن نشرع إن شاء الله في شرح القصيدة النونية للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله بن محمد القحطاني على خلاف في اسمه وقيل محمد بن صالح القحطاني، والمؤكد أنّ لقبه القحطاني؛ لأنّ ذلك قد نصّ عليه في قصيدته ولأنّ بعض المتأخّرين مثل ابن القيم -رحمه الله تعالى- أشار إلى هذه النونية، ولكن مع هذا فإنّنا لم نقف بل وقد سألنا جمعاً من مشايخنا -حفظهم الله- وحتى بعض مشايخنا الذين انتقلوا إلى ربهم -نسأل الله أن يتغمّدهم برحمته- أمثال شيخنا الشيخ حمّاد -رحمه الله-، الشيخ بن باز، الشيخ الألباني، الشيخ العثيمين، سألناهم ولم يوقف حتى الآن على ترجمة لهذا الرجل مؤكدة، ومع ذلك فالقصيدة رائعة وفيها عقيدة وفقه وذبحٌ عن السنّة وردّ على المخالفين وقوّة في الحقّ وتضمين لبعض الآيات واقتباس هي تنطق بمدلول الكتاب والسنّة، هذه القصيدة تنطق بالتوحيد من أولّها إلى آخرها وما من بيت إلّا ويشير إلى آية أو حديث أو فهم من آية أو من حديث.

هذه الستمائة وبضع وستين بيتاً كلها في خدمة السنّة وفي خدمة عقيدة التوحيد والذّب عنها والرد على المبتدعة والمنحرفين والمخالفين، وأمّا ما يذكره بعض الذين نسخوا هذه النونية لا أقول حققوا؛ لأنّها لم تحقق بعد؛ أقول: الذين نسخوها من أنّه محمّد بن صالح الذي ترجم له صاحب أرباح البضاعة، هذا محل نظر؛ لأنّ محمّد بن صالح القحطاني المتوفى سنة ثلاث مئة وسبع وثمانين يبدو أنّه متقدّم على انتشار المذهب الأشعري في الأندلس، والشيخ القحطاني صاحب النونية ردّ على الأشاعرة ولم ينتشر المذهب الأشعري إلّا في القرن الخامس وبخاصّة في الأندلس والغرب وبلاد المغرب، فهذا ممّا يؤكّد أنّه ليس هو محمد بن صالح القحطاني المترجم له في أرباح البضاعة وغيرها، والذي يبدو أنّه متأخّر عن ذلك وإنّه -والله أعلم- تقريباً في القرن الخامس الهجري وعلى أيّة حال لم يُعثر له على ترجمة وافية حتى يومنا هذا، ولعلّ الله يوفّق لترجمة له، والمهم أنّ هذه القصيدة حق وكلّ ما فيها ماذا؟ حق وكل ما نعرف أنّه القحطاني، أنّ المؤلّف لقبه القحطاني -فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله خير الجزاء على هذا المتن النفيس-، ولعلّنا نشرع بعد حمد الله

-تبارك وتعالى- والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وأتباعه بإحسان نشرع في البيت الأول أو في الأبيات الأولى من هذه النونية، تفضلّ اقرأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
قال الإمام الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد القحطاني -رحمه الله تعالى:-

[المتن]

«يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ ** بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»

[الشيخ]

نعم بدأ الشيخ -رحمه الله- هذه القصيدة بالدعاء يدعو الله -سبحانه وتعالى-
بقوله:

«يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ ** بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»

وهذا البيت تحته معانٍ عظيمة لو تأملناها فإنه أوّل ما بدأ توسل إلى الله -عزّ وجلّ-
بأسمائه وصفاته؛ لأنّ منزل التوراة والإنجيل والفرقان هو الله -عزّ وجلّ- فهو بدأ بقوله يا
منزل التوراة والفرقان نعم؟ البيت؟ «يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»

الآيات تشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية؛ فتشمل الآيات التي جعلها الله
دلائل على قدرته -سبحانه وتعالى- وتشمل آيات الكتاب آيات القرآن الذي أنزله الله -
سبحانه وتعالى-؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قد يُنزّل آيات كونية؛ كما نزّل للحواريين عندما
طلبوا من عيسى -عليه السلام- أن يدعو الله أن يتزل عليهم مائدة من السماء هذا بالنسبة
للآيات الكونية، وكذلك هو منزل الآيات القرآنية ولذلك عبّر بالفرقان، والفرقان اسم
من أسماء القرآن، وكونه منزل القرآن يشمل أنّ القرآن من كلام الله -عزّ وجلّ- وهو
صفة من صفاته -سبحانه وتعالى-؛ فهو أنزله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
بواسطة جبريل -عليه السلام-؛ حيث تكلم به سبحانه وسمعه منه جبريل عليه السلام بعد
أن تكلم به بحرف وصوت مسموع، ثمّ نزل به وبلغه بكلّ صدق وأمانة إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم، ثم الرسول صلى الله عليه وسلم بلغه للأمة إذا هذا من التوسل بصفات الله -جلّ وعلا-

والتوسل المشروع له ثلاثة أقسام:

- التوسل بأسماء الله وصفاته؛ كما في هذا البيت، وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث))

- والتوسل بالأعمال الصالحة، وقد جاء هذا في الشطر الثاني من البيت كما سنبينه، والمهم أن نفهم أن قول الشيخ -رحمه الله-: «يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»: توسل إلى الله -عزّ وجلّ-؛ بصفته لأن من صفاته الكلام، والقرآن كلام من؟ كلام الله -عزّ وجلّ- فهو مُتَرَّلُ القرآن، وهذا يتطلب أن نؤمن بأن القرآن كلام الله؛ نؤمن به على النحو الآتي:

أولاً: نؤمن بأن القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله الذي تكلم به حقيقة، وليس عبارة عن كلام الله؛ بل هو كلامه الذي تكلم به حقيقة؛ لأن الله يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء.

ثانياً: أن الله تكلم به بحرف وصوت مسموعين ولذلك لما نازع بعض المتكلمين في الحرف والصوت ردّ عليهم السجري -رحمه الله- بكتاب سمّاها رسالة في الحرف والصوت، حرف وصوت يليقان بجلاله وعظمته لا نشبه ولا نمثل كما سيأتي بيانه.

ثالثاً: أن جبريل سمعه من الله -تبارك وتعالى- وليس المقصود أن يقال أن جبريل سمعه من الهواء أو أن الله خلقه في الهواء كما تقول بعض المعطلة، بل إن جبريل سمعه من الله مباشرة.

رابعاً: أنه كلام الله المتّـل غير المخلوق، أنه كلام الله المتّـل من عنده غير مخلوق.

خامساً: أن القرآن المحفوظ في الصدور هو كلام الله، أن القرآن المحفوظ في الصدور هو ماذا؟ هو كلام الله.

سادساً: أن القرآن المتلّو بالألسن هو كلام الله.

سابعاً: أن الكلام المكتوب في المصحف يعني أن القرآن المسطر في المصحف هو كلام الله - سبحانه وتعالى -، أما المداد والحبر والأوراق فهذه مخلوقات؛ لماذا فصل السلف هذا التفصيل؟

أولاً: أنه كلام الله على الحقيقة، **ثانياً:** أن الله تكلم به بحرف وصوت، **ثالثاً:** أن جبريل سمعه من الله - عز وجل -، وبلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ **رابعاً:** ماذا؟ أنه كلام الله غير مخلوق، **خامساً:** أن القرآن المحفوظ في الصدور كلام الله، بعد أن القرآن المتلو باللسن هو كلام الله، **السابع:** أن القرآن المكتوب في المصحف هو كلام الله لماذا فصل السلف هذا التفصيل؟ لماذا يا إخوان؟ كان الصحابة يكتبون بأنه كلام الله وكفى لماذا اضطر السلف إلى هذا التفصيل؟ لأن كل فقرة من هذه الفقرات قال بمخالفتها فرقة من المتكلمين، كل فقرة مما تقدم خالف فيها فرقة من المتكلمين، ولا نريد هنا أن نفصل ما عند كل فرقة؛ لأن ذلك سيأتي بعضه مفصلاً في ثانيا هذه القصيدة المباركة.

هذا المقصود بقوله: **«يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»** مع أن مُنْزِلَ الْآيَاتِ يشمل إنزاله للآيات الكونية والآيات القرآنية، وأما الفرقان الذي هو القرآن فهو منزل من عند الله ويجب أن نؤمن به وفق الخطوات التي بينتها كما نص على ذلك السلف، وأما ما خرج عن ذلك على الورق والحبر؛ كما قال بن القيم - رحمه الله -: "و مداده و الرق مخلوقان"؛ يعني الحبر والورق، وأما ما خرج عن ذلك فهو كلام الله - عز وجل -؛ لأنك أنت عندما - والله المثل الأعلى، أضرب مثل يقرب هذه الأمور التي ذكرتها - عندما تأتيك رسالة من زيد وأنت تقرأ هذه الرسالة هذا الذي تقرأه كلام من؟ كلام زيد ولا كلامك أنت؟ كلام زيد؛ عندما تقرأ قول نبيك: ((ألا كل شيء ما خلا الله باطل)) أنت القارئ، ولكن الكلام كلام من؟ كلام نبيك؛ فالكلام ينسب إلى من قاله ابتداء لا إلى من قرأه أو تلاه؛ فيقال إنه تلاه هذا شيء، كذلك عندما نسمع القرآن من أحداً نقول فلان يقرأ ماذا؟ يقرأ كلام الله ولذلك يقول الله - عز وجل -: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}** [التوبة: 6]

ما المقصود بكلام الله هنا؟ القرآن؛ أفترك هذا الكلام الذي هو نص كلام رب العالمين ونأخذ بعد ذلك كلام من جاء بعد عشرات السنين أو مئات السنين ويقول إنه

مخلوق، أو يقول إنه المعنى القائم بالنفس، أو أن الله خلقه في الهواء أو نحو ذلك من الأقاويل الفاسدة الباطلة؟! إذا القرآن كلام الله المتزل، غير مخلوق، المتلو، المحفوظ، المكتوب، المسموع، الذي سمعه جبريل من الله -عز وجل-، الذي تكلم به الله كما شاء بحرف وصوت، كله كلام الله -عز وجل- كل هذه المعاني تنسب إلى الله -جل وعلا- لفظه ومعناه، أظن أن هذا الأمر واضح، طيب؟

إذا هذا نداء ودعاء «يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ» طيب.

بعد ذلك قال: «يَبْنِي وَيَبْنِيكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» هذا توسل بماذا؟ الأعمال الصالحة، أحسنت توسل بالعمل الصالح، وفيه إشارة إلى التوسل بأسماء الله وصفاته، لكن هو توسل بالعمل الصالح.

«يَبْنِي وَيَبْنِيكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»؛ يعني: إيماني بهذا القرآن وعملي بهذا القرآن وإيماني بأنه كلامك المتزل من عندك، «يَبْنِي وَيَبْنِيكَ»؛ يعني: أتوسل به إليك يا رب، يعني أتوسل إليك بإيماني بكتابك أتوسل إليك بماذا؟ بإيماني بكتابك، ولذلك قال: «يَبْنِي وَيَبْنِيكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» شأن القرآن عظيم عند الله -عز وجل- كيف وهو كتاب الله الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مَنْ حَكِيمٌ حَمِيدٌ} [فصلت: 42].

كلام الله -عز وجل- الذي تكلم به حقيقة ليس كلام جبريل ولا كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولا كلام خلق في الهواء؛ وإنما هو كلام رب العالمين {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6]

ولذلك قال -رحمه الله-: «يَبْنِي وَيَبْنِيكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» عملي بهذا القرآن، إيماني بهذا القرآن، إيماني بأنه كلامك الذي تكلمت به يا ربي على الحقيقة دونما تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل أتوسل بهذا الإيمان وبهذا العمل إليك، وهذا من أنواع التوسل المشروع؛ لأن أنواع التوسل ثلاثة:

- التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، وقد نص عليه بقوله هنا: «يَا مُنْزِلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ».

- التوسل إلى الله -عز وجل- بالعمل الصالح، وقد نص عليه بقوله: «يَبْنِي وَيَبْنِيكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» عظمة القرآن، شأن القرآن، عملي بالقرآن، إيماني بهذا القرآن، أدعوك به.

فالعَمَل الصَّالِح كَأَن تَقُول يَا عَبْدَ اللَّهِ: "اللَّهُمَّ يَا إِيْمَانِي بِنَبِيِّكَ وَحَبِّي لَهُ وَاتِّبَاعِي لَهُ وَإِيْمَانِي بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَنَّهُ مُتَرَلِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي" الخ.

بعد هذين النوعين من أنواع؛ التوسُّل الأوَّل: التوسُّل بأَسْمَاءِ اللَّهِ وصفاته: «يَا

مُنَزَّلَ الْآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»

والثاني التوسُّل بالعمل الصَّالِح: «يَبْنِي وَيَبْنِيكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»، أَخَذَ يَدْعُو اللَّهَ

-عَزَّ وَجَلَّ- وَيُلِحُّ عَلَيْهِ فِي أَن يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَأَن يَجْعَلَهُ مِنَ الْعَامِلِينَ بِهِ،

الوَاقِفِينَ عِنْدَ حُدُودِهِ، الْمُحْلِينَ لِحُلَالِهِ وَالْحَرِّمِينَ لِحَرَامِهِ؛ فَقَالَ، تَفَضَّلْ.

[المتن]

«إِشْرَاحُ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى * وَاعْصِمَ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ»

[الشرح]

«إِشْرَاحُ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى * وَاعْصِمَ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ»

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَشَرْحُ الصُّدُورِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: «إِشْرَاحُ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى»؛ لِأَنَّ أَسَاسَ مَعْرِفَةِ الْهُدَى الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، لَا يُمْكِنُ أَن نَعْرِفَ طَرِيقَ الْهُدَى وَطَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ عِبَادَةِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إِلَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ إِذَا دَعَا بَأَن يَشْرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ بِالْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَشْمَلُ السُّنَّةَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ وَحْيَانٌ لَا يَنْفَكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، كِلَاهُمَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ((إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَ مِثْلَهُ مَعَهُ))؛ هَكَذَا يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْمَصْنُفُ: «إِشْرَاحُ بِهِ صَدْرِي»، بِهِ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ وَهَذَا دَعَاءُ اللَّهِ: "يَا رَبِّي اشْرَحْ بِالْقُرْآنِ صَدْرِي وَقَلْبِي لِيَتَنَوَّرَ قَلْبِي بِمَعْرِفَةِ الْهُدَى"، هَدَى اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَهُوَ الْإِسْلَامُ، الْهُدَى الْمَقْصُودُ بِهِ الْإِسْلَامُ كُلُّهُ وَالْإِيمَانُ {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: 23].

{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِ} [الأنعام: 90].

إِذَا يُتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَبِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ أَن يَشْرَحَ بِالْقُرْآنِ

الْكَرِيمِ صَدْرَهُ وَقَلْبَهُ لِهَدَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ شَرْحًا لِلصُّدُورِ وَشِفَاءً لِمَا فِي

الصدور ودواء للقلوب به تلين القلوب؛ لأنه ذكر الله {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28] ولذلك قال:

«إِشْرَاحٌ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى * وَأَعْصِمَ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ»؛

يَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يُحْفَظَ قَلْبُهُ مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ وَأَلَاغِيبِ الشَّيْطَانِ وَنَزَغَاتِهِ وَتَوْهِيمِهِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا لَمْ يُحْفَظْ بِالْقُرْآنِ عَلَيْهِ خَطَرٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالْحَصْنِ الْحَصِينَ وَالْحَرْزَ الْمُتِينَ لِلْحَفْظِ مِنَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هُوَ كِتَابُ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يُحْفَظُكَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ؛ إِذَا قَرَأْتَهُ بِصَدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَعَمِلْتَ بِهِ، وَأَحْلَلْتَ حَالَهُ وَحَرَّمْتَ حَرَامَهُ وَوَقَفْتَ عِنْدَ حُدُودِهِ وَعَمِلْتَ بِمُحْكَمِهِ وَآمَنْتَ بِمُتَشَابِهِهِ وَوَقَفْتَ عِنْدَ حُدُودِهِ وَلَمْ تَتَجَاوَزْ حَرَمَاتِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصِمُ بِهِ قَلْبَكَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، أَنْظِرْ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((بَيْتٌ تَتْلُو فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ))، وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((إِذَا أُوَيْتَ إِلَى مُضْجَعِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ)) حَيْثُ أَقَرَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَصَّتهُ مَعَ الشَّيْطَانِ الَّذِي لَقِيَهُ فِي خَزَائِنِ التَّمْرِ؛ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ -لِيَتَخَلَّصَ-: "إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ"؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ)) فَالْقُرْآنُ يَطْهِّرُ اللَّهَ بِهِ قَلْبَكَ وَيَبْتَكَ وَنَفْسَكَ وَأَسْرَتَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ لَكِنْ بِالْقِيُودِ الَّتِي ذَكَرْتُمَا وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِهِ وَتَحْلِيلُ حَالِهِ وَتَحْرِيمُ حَرَامِهِ وَالاجْتِهَادُ فِي تَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ وَالْبَعْدُ عَنْ نَوَاهِيهِ بِهَذَا يَعْصِمُ اللَّهُ بِهِ قَلْبَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَهْرَبُ مِنْ صَاحِبِ الْقُرْآنِ الَّذِي يَعْمَلُ بِهِ وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَلِذَلِكَ دَعَى الشَّيْخُ الْمُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَأَعْصِمَ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ» وَمَنْ عَصَمَ اللَّهُ قَلْبَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ -بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ قَدْ يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ وَدَمِهِ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَاهَدَ الْقُرْآنَ لِيَطْرُدَهُ بِالتَّلَاوَةِ وَالْحَفْظِ وَالْعَمَلِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّحَصُّنِ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ.

[المتن]

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي * وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النَّيِّرَانِ»

[الشرح]

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي»: كل ذلك توسّل بكلام الله؛ وهو القرآن.
 «يَسِّرْ بِهِ» الضمير أيضاً يعود على القرآن يتوسّل إلى الله عزّ وجلّ أن ييسّر له أمره
 بالقرآن الكريم {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 17].
 «يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي»؛ أي: سهّل به أموري التي أحتاج إلى قضائها؛ ولذلك يقول الله -
 عزّ وجلّ-: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: 4]، وأساس تقوى الله
 -عزّ وجلّ- تلاوة كتابه والعمل به وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم، ومن عمل
 بالقرآن ووقف عند حدوده؛ جعل الله له من كلّ هم فرجاً ومن كلّ ضيق مخرجاً ورزقه
 من حيث لا يحتسب.

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي»؛ يعني: وقّني للحصول على قصدي وما أريد من
 خير، طبعاً المقصود بالمأرب: المأرب التي هي خير؛ مثل طلب الهدى وطلب الرزق الحلال
 وطلب زيادة الإيمان و طلب الخير، طلب الجنة، طلب النجاة من النار، هذا المراد.
 وأقض -به أيضاً- مآربي يسّر به أمري وأقض به، لكن هنا من أجل الوزن حُذِفَ
 به وإلاّ فهناك جار ومجرور مقدّران يسّر به وقضّي؛ أي: بالقرآن.
 «وَأَقْضِ مَآرِبِي» المأرب: جمع مأرب، والمأرب هو القصد ما يتمناه المسلم وقيدنا
 هنا ما يتمناه المسلم المؤمن؛ ليس كلّ ما يتمناه إنسان، قد يتمنى البعض شراً ولكن بحكم
 مدلول هذه الآيات كلّها لا يمكن أن يُتصوّر إلّا أنّه يقصد المأرب الإيش؟ الخيريّة وأقض
 مآربي من التوفيق والسداد، والظفر بالجنة والنّجاة من النار.

«وَأَقْضِ مَآرِبِي»: جمع مأرب والمأرب هو القصد، والمقصود به القصد المشروع إذ
 لا يُتصوّر من عالم مثل هذا غير ذلك، وأقض مآربي ماذا بعد؟
 «وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النَّيرانِ»، الله أكبر وأجر به جسدي من النيران؛ جاء في
 الحديث: ((اللهم أجري من النار))، وهنا توسّل بالقرآن الذي هو كلام الله -عزّ وجلّ-
 «أَجِرْ بِهِ»: بعلمي به، بإيماني به، باحتجاجي به، باعتمادي عليه، بوقوفي عند حدوده؛
 أجري من النيران نسأل الله أن يمجّرنا وإياكم من النار؛ لأنّ من أجير من النار هذا أعظم
 فوز بعد رؤية المؤمنين لرّبهم -سبحانه وتعالى-: {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ

فَقَدْ فَازَ { آل عمران: 185 }، ولذلك من أعظم دعاء المؤمنين: { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [البقرة: 201].

هذه الآية أمرنا الله أن ندعو بها بين الركن والمقام؛ بين الركن والحجر الأسود؛ بين الركن اليماني والحجر الأسود؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [البقرة: 201]، ويقول الله -عز وجل- في الدعاء الذي جاء في آخر سورة آل عمران: { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } [آل عمران: 193]

{ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } [آل عمران: 192]

نعوذ بالله وإياكم من عذاب النار، استعينوا بالله من عذاب النار؛ ولذلك شرع لنا في نهاية التشهد بعد كل صلاة أن نقول -كما ثبت في صحيح البخاري-: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ)) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((استعينوا بالله من عذاب النار)).

«وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النَّارِ»؛ أي: أتوسل إليك بالقرآن الكريم وبعملي به وإيماني أنه كلامك أن تحيّرني من عذاب النار، صاحب القرآن يأتي يوم القيامة والقرآن يحاجّ عنه تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أولئك ثم استمرّ الشيخ -رحمه الله- في الدعاء.

** ** * * * * *

الشريط الثالث

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«وَاحْطُطْ بِهِ وَزْرِي وَأَخْلِصْ نِيَّتِي * وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَصْلِحْ شَانِي»

[الشرح]

«وَاحْطُطْ بِهِ وَزْرِي وَأَخْلِصْ نِيَّتِي * وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَصْلِحْ شَانِي»

كل هذه الضمائر تعود على القرآن، تعود على القرآن.

«اخْطُطْ بِهِ وَزْرِي»؛ لأنه عمل صالح، والعمل الصالح مما تُحَطُّ به الأوزار، وتُرفع به الدَّرَجَات، وتُقَال به العثرات؛ ولذلك قال: «اخْطُطْ بِهِ وَزْرِي» بفضل الله - عزَّ وجلَّ - وبرحمته والباء هنا ماذا يسميها اللغويون؟ السببية؛ أي: بسبب العمل؛ لأنَّ الإنسان لا ينال ما ينال عند الله بعمله المجرَّد؛ وإنما الأعمال هي أسباب، وأمَّا ما يناله فهو بفضل الله ورحمته - سبحانه وتعالى - فالباء في مثل هذه الأمور للسببية، ويأيدُه قول الله - سبحانه وتعالى -: {جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الواقعة: 24]؛ أي: بسبب ما كانوا يعملون من الأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله والموافقة لشرع الله، ولذلك قال: «اخْطُطْ بِهِ وَزْرِي» والوزر: هو الذنب والإثم؛ فبالأعمال الصالحة والتوبة الصادقة تُحَطُّ الأوزار وتُوضع عن أصحابها؛ كما قال الله - جلَّ وعلا - بعد أن ذكر مجموعة من الذنوب وعلى رأسها الشرك أنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُ وَ مَلَ صَالِحًا فَإِنَّ اللَّهَ يُبَدِّلُ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ؛ قال تعالى بعد ذكر عدد من الذنوب: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: 70].

«اخْطُطْ بِهِ وَزْرِي»؛ أي: ضع يا ربي بفضلك ومَنِّتك بسبب القرآن واهتمامي بالقرآن وعنايتي بالقرآن، وحفظي للقرآن وعملي بالقرآن؛ اجعل ذلك قربة لك وحدك ينفعني يوم لقاءك واحطط به أوزاري وآثامي، وهذا اعتراف منه بذنبه، وينبغي للمسلم أن

يكون هكذا يعترف بذنبه؛ كما اعترف ذو النون -عليه السلام-: { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء: 87]، لا يفعل فإذا أصابته مصيبة قال يا ربّي أنا ماذا فعلت حتّى تفعل بي كيت وكيت؛ كما يقوله بعض العوام، هذا اعتراض على الله؛

أولاً: أنّما وقع لك إنّما هو بسبب ذنوبك.

وثانياً: لو احتسبت ذلك عند الله؛ فإنّه تحطّ عنك بها سيئة وترفع لك بها درجة.

«احْطُطْ بِهِ وَزَرِّي وَأَخْلِصْ نِيَّتِي» وهناك تقدير؛ أي: أخلص به نيّتي؛ لأنّ تلاوة القرآن والعمل به من أعظم الأسباب لصلاح النية وشفاء القلب؛ فإنّ القلب يمرض بالمفسدات ويشفى بالأعمال الصالحة، ومن ذلك صلاح النية التي بصلاحها يُقبل العمل وبفسادها تفسد؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف القلب: ((ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّ وإذا فسدت فسد الجسد كلّ ألا وهي القلب))، ويقول عليه الصّلاة و السّلام: ((إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى)) ويقول عليه الصّلاة و السّلام: ((لا هجرة بعد الفتح و لكن جهاد ونية))؛ والنية هي: القصد الحسن الذي يتغي به المرء؛ يتغي بالعمل عندما يعمل وجه الله -تبارك وتعالى- لا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً.

«وَأَخْلِصْ نِيَّتِي» الإخلاص أمر قلبيّ، أمر عجيب له أشياء تخدمه وتنقصه وقد تُبطله؛ فيبطله الشرك والرياء إذا دخله كاملاً ويضعفه يسير الرياء، وتضعفه إرادة الإنسان بعمله الدنيا إن كان يسيراً؛ أمّا إن كان توجّه بالإرادة إلى الدّنيا خالصة؛ فالعمل أصلاً غير مقبول؛ فيجب على المسلم أن يجتهد في إخلاص نيّته وأن يسأل الله أن يرزقه الإخلاص؛ لأنّه أمر عزيز، أمر خطير، أمر في القلب، وأخلص نيّتي و؟

الطالب:

«وَأَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي»

الشيخ:

«وَأَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي»؛ الشد: هو الضبط، والربط والأزر: هو الشّأن والأمر الذي أنت

فيه، وهذا من دعاء موسى -عليه السلام- عندما دعا ربّه أن يرسل معه أخاه هارون ماذا

قال؟ {أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: 31-32]؛ أي: في أمر الرسالة؛ فالمثل يقول شدّ فلان على يد فلان؛ أي عاضده في عمله الذي يعمل، ومنه قول: النبي صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً))، وكلّما تعاون الناس؛ حصل شدّ الأزر، كلّما تعاونوا على البرّ والتقوى؛ حصل شدّ الأزر؛ ولذلك قال: «وَأَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي»؛ أي: بالقرآن اشدد به جميع أموري، واجعله عوناً لي على طاعتك «وَأَصْلِحْ شَأْنِي»؛ والشأن: سهّلت الهمزة وإلاّ فالأصل شأن، والتسهيل والإظهار ثابت من حيث اللغة، وصلاح الشأن عام يشمل تضرّعه إلى ربّه أن يصلح جميع أموره، ديناً ودنياً؛ ولذلك جاء في الدعاء الصّحيح في دعاء الكرب: ((اللّهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أصلح لي شأني لا إله إلاّ أنت)) وإذا صلّح شأن المرء؛ صلح كل أموره؛ لأنّ شأنه يشمل جميع أحواله، فإذا أصلح الله شأنه وأعانه عليه؛ فكل بقيّة الأمور أمرها سهل، وهذا كلّ يدل على اعتماده على ربّه وصدق اللجوء إليه - سبحانه وتعالى - نعم.

[المتن]

«وَكَاشِفٌ بِهِ ضُرِّي وَحَقَّقَ تَوْبَتِي * وَارْبَحَ بِهِ بَيْعِي بِلَا خُسْرَانٍ»

[الشرح]

قال أيضاً: «وَكَاشِفٌ بِهِ ضُرِّي وَحَقَّقَ تَوْبَتِي * وَارْبَحَ بِهِ بَيْعِي بِلَا خُسْرَانٍ»، «وَكَاشِفٌ بِهِ ضُرِّي» الضمير كما تقدّم يعود على القرآن، وهذا أيضاً من التوسّل بأسماء الله وصفاته والتوسّل بالعمل الصّالح؛ لأنّ تلاوة القرآن من العمل الصّالح والخشوع فيه من العمل الصّالح، والوقوف عند حدوده من العمل الصّالح، وتحليل حاله وتحريم حرامه من العمل الصّالح؛ فيكون هذا التوسّل شاملاً للتوسّل بأسماء الله وصفاته؛ حيث أنّ القرآن كلام الله وشامل لماذا؟ للتوسّل بالأعمال الصّالحة، وكلاهما دلّت عليه الأدلّة من الكتاب والسنة؛ لذلك دعا الله - عزّ وجلّ - أن يكشف به ضرّه؛ لأنّ الذي يكشف الضرّ هو الله وحده؛ قال الله - تبارك وتعالى -: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [الأنعام: 17] فالذي يكشف الضرّ هو الله وحده لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا

السّاحر ولا الكاهن ولا الدجال؛ الله -تبارك وتعالى- وحده الذي يكشف الضّر ويُلجأ إليه في طلب كشف الشّدائد: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: 62]، هو الذي يجعل لنا من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ فيجب أن نُخلص النّية له في طلب كشف الضّر؛ لأنّ الله وحده القادر على كشفه؛ فالذي قدره هو القادر على إزالته، والضّر يشمل جميع أنواع الشر من الأمراض وتسليط الأعداء والمصائب التي تحصل على المسلم؛ فهو يتوسل إلى الله أن يكشف أيّ ضرّ مسّه؛ كما قال أيّوب - عليه السّلام-؛ كما حكى الله عنه: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83]؛ فيجب أن نلجأ إلى الله في طلب كشف الضر.

«وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي»؛ و؟ «وَحَقِّقْ تَوْبَتِي»؛ كلمة «وَحَقِّقْ»: وراءها ما وراءها من المعاني؛ إذ ليس المراد بالتوبة مجرد النطق باللسان أو ترداد الكلمات، وإنّما لابد فيها من التزام الشّروط، وهناك فرق بين مجرد التلفظ بالتوبة وبين تحقيق التوبة؛ ولذلك وصف الله -عزّ وجلّ- التوبة الحقيقية بالتوبة النصوح {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا} [التحریم: 8]؛ وكيف تتحقق التوبة؟ ما معنى هذا التحقيق الذي ذكره هنا المصنّف -رحمه الله تعالى-؟

«وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي وَحَقِّقْ تَوْبَتِي»؛ ذكر أهل العلم ما يدلّ على تحقيق التوبة وهي ما يسمّيها العلماء شروط التوبة الصّادقة النصوح وهي:

- الإقلاع من الذنب؛ أي: تركه بالكلية و مفارقتة والبعد عنه.

- والعزم على عدم العودة؛ أي: عندما تتلفظ بالتوبة لا تفكر في العودة إلى هذا الذنب ألبته؛ أي: أن في قلبك عزمًا أكيدًا على أن لا تعود إليه مرّة أخرى.

- والشّروط الثالث: النّدم على ما فات، أن تتأسّف على ما بدر منك من تقصير في جنب الله؛ فلا تذهب تتحدّث بما اقترفت من جرائم ومعاصي على سبيل التندّر والتفكّه؛ وإنّما لا بدّ أن تندم وتتمنى أنك لو لم تفعل، هذا إذا كان الذنب المتوب منه يتعلّق بحقوق الله -سبحانه وتعالى-، وأمّا إذا كان يتعلّق بحقوق الآدميين؛ فثمّة شرط رابع وهو ردّ حقوق النّاس التي عليك فإن وُجدت بعينها أعادها، وإن لم تُوجد أعاد ما يماثلها أو بدلها

أو ثمنها أو تحلل من صاحبها، فإن أباحه وحلله؛ تمت التوبة بإذن الله مع الشروط المتقدمة، وإن كانت تتعلق بعرض أو كلام أو سب أو شتم فإِنَّكَ تُتَحَلَّلُهُ مِنْهَا إِلَّا إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَتَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ ضَرَرٌ أَوْ فِتْنَةٌ، وهو مجرد كلام صدر من اللسان؛ فاستغفر له وأدعو له لعل ذلك يكون كفارة لك،

طيب تجد هنا مسألة نحن قلنا أن شروط تحقيق التوبة هذه الأربعة، وأنه إذا لم تتوافر هذه الشروط؛ فالتوبة لا قيمة لها، لكن قد يرد سؤال لو أن هذه الشروط توفرت غير أن الإنسان عاد مرة أخرى إلى الذنب بعد فترة فهل يُقال إن توبته الأولى انتقضت ولم تُعتبر هه؟ لا، لا يُقال هذا بل توبته الأولى تامة؛ وإِثْمًا يُحَاسِبُ عَلَى مَا فَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لأن التوبة تجب ما قبلها؛ كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أي: تمحو ما قبلها ولكن بالشروط التي ذكرناها.

● هناك شرط آخر قد لا يتنبه له البعض، وهو أن تكون التوبة واقعة في زمان إذ تُمكن فيه التوبة، أمّا إذا بلغت الروح الحلقوم أو طلعت الشمس من مغربها؛ فإن التوبة لا تُقبل؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تُقبل توبة العبد ما لم يغرغر))، والغرغرة هو وجود الترع، بلوغ الروح الحلقوم؛ أي: حال الاحتضار، وجاء في الحديث الآخر: ((إِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا عِنْدَهَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا))، وإِلَّا فَالْإِنْسَانُ مَجْبُولٌ عَلَى الذَّنْبِ لَكِنْ بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو لم تذنبوا لخلق الله أقوامًا يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم))؛ فالواجب على المسلم المبادرة إلى التوبة قبل هذه الأحوال؛ {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ} [النساء: 17].

المقصود من قريب يعني قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها ثم قال: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} [النساء: 18] لو كانت تنفع؛ لنفعت فرعون فإنه عندما أحس بالغرق قال: "آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل"؛ فردَّ الله -تبارك وتعالى- عليه وكتبته: {وَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: 91].

إذا نتنبه وترك التسويف، بعض الناس يقولون: الآن شباب خليني أتمتع إن شاء الله غداً أتوب، بعده، بكرة، بعد بكرة، السنة الجاية؛ لا يا عبد الله إنك لا تدري ماذا يعرض لك؛ إن الآجال والأعمار بيد الله: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 11]؛ فانتهبه يا عبد الله إلى الخطأ فقد تُمسي ولا تُصبح وقد تُصبح ولا تُمسي، وقد تعرض لك فتن؛ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((بادروا بالأعمال فتناً يمسي الرجل فيها مؤمناً ويصبح كافراً ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً يبيع دينه بعرض من الدنيا)) نسأل الله العافية والسلامة.

إذا هذا ما يتعلق بالتوبة فبادروا إليها في هذه الأيام المباركة يا عباد الله، نعم.

[المتن]

«وَارْبِحْ بِهِ بِنَعْيٍ بِلَا خُسْرَانٍ»

[الشيخ]

«وَارْبِحْ بِهِ بِنَعْيٍ بِلَا خُسْرَانٍ»؛ هذا من الأساليب العربيّة التي يسمّيها بعض اللغويين مجازاً واستعارة، والحق أنّ المجاز طاغوت من الطّواغيت امتطته فرق أهل الكلام من الجهميّة والمعتزلة ومن قلّدهم من الأشعريّة والماتريديّة؛ فجعلوا صفات الله -عزّ وجلّ- مجازاً، وقد ألف شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله- رسالة نفيسة في الردّ على القائلين بالمجاز؛ كما ألف شيخنا الشّيخ محمّد الأمين الحكني الشنقيطي -رحمه الله تعالى- رسالة عنوانها: "منع جواز المجاز"؛ فالمجاز حمار المعتزلة الذي ركبوه فأبحر بهم في غياهب الظلام؛

كما يقول أحد الشعراء: "خضتم بحار الشعر دون روية * أنتم كمن ركب الحمار فأبحر"؛ فهذا هو شأن المتكلمين ركبوا علم الكلام والمجاز، وسبحوا في خيالات ذلك؛ حتى ألقى بهم في الهاوية فأنكروا أو عطّلوا أو أولّوا أو فوّضوا أو توقّفوا في أسماء الله وصفاته؛ فوقع ما الله به عليهم في الإفراط والتفريط في هذا الباب؛ فنحن نسّميه كما سمّاه علماؤنا أسلوب عربي منوع، والعرب لم تسمه جوازاً؛ كل عربي فصيح إذا قال له أحد: "زارني أسد" عِلِمَ بداهة أن الذي زاره ما هو؟ أنه رجل شجاع، وكل عربي فصيح لم يتبدّل لسانه كما تبدّلت ألسنتنا في هذا العصر؛ إذا سمع قائلًا يقول: "وجدت الجود عند هذا البحر" يعلم يقيناً أنه يقصد الإنسان الكريم السخي الجواد، وهذا يفهم ابتداء ما يحتاج إلى قرينة ولا إلى علاقة ولا إلى وجه شبه ولا إلى مشبّه به الأمور واضحة لكن لما فسدت الألسن امتطوا هذه الأشياء، نعم لاشك أن علم البلاغة و علم النحو علوم نافعة عظيمة لكن إذا خرجت عن الشرع أصبحت فاسدة وإذا امتطيت لتغيير وتحريف كتاب الله -عزّ وجلّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أصبحت فاسدة.

«وَارْبِحْ بِهِ بَيِّعِي بِلَا خُسْرَانٍ» الله -عزّ وجلّ- سمى الأعمال الصالحة بالتجارة الرَّابِحَة كما قال الله -جلّ وعلا-: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [الصف: 10-12]

فسمّاها الله -عزّ وجلّ- تجارة وقال -تبارك وتعالى- في وصف المؤمنين وأنهم يتاجرون مع ربّ العالمين تلك التجارة الرَّابِحَة؛ قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} إيش؟ {أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} بماذا؟ {بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ} [التوبة: 111].

جعلني الله وإياكم منهم، فسمّاها شراء وهذا من الأساليب العربيّة المعروفة ووصف أعمال الكفار بالتجارة الخاسرة، فقال تعالى: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة: 16].

ولذلك الشيخ هنا قال: «وَارْبِحْ بِهِ»؛ أي: بالقرآن، «بَيِّعِي»؛ أي: عملي الصالح الذي أعمله خالصاً لوجه الله بلا خسران؛ لأنّ من ربح بالأعمال الصالحة؛ فإنّه لن يخسر

والخسران الذي يشير إليه ويحذر منه ويخشى منه؛ هو خسران الدنيا والآخرة؛ {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: 15].

فإذا «وَارْبِحْ بِهِ بِنَعْيِ بِلَا خُسْرَانٍ»؛ أي: وفقني يا ربّي ليكون ذلك البيع هو العمل الصالح عملاً رابحاً متقبلاً ينفعني عندك يوم الحاجة إلى ذرة من الأعمال؛ {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ { [الزلزلة: 7, 8]، تفضل.

[المتن]

«طَهَّرْ بِهِ قَلْبِي وَصَفَّ سِرِّيَّتي * أَجْمِلْ بِهِ ذِكْرِي وَأَعْلِ مَكَانِي»

[الشيخ]

«طَهَّرْ بِهِ قَلْبِي»، القرآن يطهّر القلوب من الأدران والأضغان، وطهارة القلوب تنتج عنها طهارة الجوارح والأعمال كما تقدّم لنا؛ إذ أنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده؛ فطهارة القلوب: نظافتها من الغلّ والحقد والحسد و لتفّاق والكفر والأمراض التي تفتك بالقلوب المعروفة، والقلوب تمرض كما تمرض الأجسام؛ فتحتاج إلى تطهير كما أن الجسم يحتاج إلى تطهير.

«طَهَّرْ بِهِ قَلْبِي»؛ أي: نظف به قلبي من كلّ درن، ومن كل شائبة تخالف الشرع. ونقيّ سريريّتي: السريرة أيضاً: هي محلّها القلب وهو ما يكنّه العبد مما لا يطلع عليه إلاّ الله - سبحانه وتعالى-، فهو الذي يعلم السرّ وأخفى، فإذا نُقيت سريرة العبد ونُظفت وصُفيت؛ انعكس ذلك على سائر جوارحه وأعماله التي يتقرّب بها إلى الله - سبحانه وتعالى-، وقد تُكشف سريرة العبد أحياناً؛ كما جاء في المثل أو الحكمة المأثورة: "ما أسرّ عبد سريرة إلاّ أظهرها الله على صفحات وجهه و فلتات لسانه"؛ فسلامة القلب وتنقيته من أعظم الأمور التي تُقرّب العبد إلى ربّه؛ ولذلك وُصف أبو بكر -رضي الله عنه- بأنّه غلب الناس بشيء وقر في قلبه كما ذكر ذلك عنه، أو في وصفه غير واحد من السلف ونقيّ سريريّتي؛ صفّي، التنقية: هي التّصفية والتنظيف حتّى يصبح القلب صافياً أبيض خالصاً وذلك إذا خلّص لله، ومن أعظم أسباب أدران القلب تراكم الذنوب والمعاصي

عليه؛ كما قال الله - سبحانه وتعالى -: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14].

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا تَابَ وَرَجَعَ وَنَزَعَ ثِقْلَ قَلْبِهِ - يَعْنِي نُظْفَ - فَإِذَا زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ وَذَلِكَ الرَانُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}" [المطففين: 14]

ويذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في وصف قلوب الكفار والطبع عليها {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [النحل: 108].

وقال تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف: 179]
وقال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]

وقال - تبارك وتعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً { [البقرة: 6-7]

إلى أن قال في وصف هؤلاء المنافقين: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: 10]. والعياذ بالله.

«طَهَّرَ بِهِ قَلْبِي وَصَفَّ سَرِيرَتِي * أَحْمِلْ بِهِ ذِكْرِي وَأَعْلِ مَكَانِي»، الذكر الحسن ينتج عن سيرتك الحسنة، ليس المراد هنا طلب محمداً الناس أو مدحهم أو ثنائهم، وإنما الناس يصفون الإنسان بما فيه فربما دعوا له أو عليه ولذلك يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - حكاية عن إبراهيم عليه السلام: {وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء: 84]
ويقول - تبارك وتعالى -: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: 44]

في القرآن تذكير لك ولقومك وذكر لكم وشرف لكم أيضاً.

«وَأَعْلِ مَكَانِي»؛ أي: في الجنة، ارفع به ذكري في الدنيا والآخرة، في الدنيا ليدعو لي الناس ولأحصل على الدعاء الذي هو عبادة، وفي الآخرة في الجنة، «وَأَعْلِ مَكَانِي»؛ أي: أعل منزلي ومنزلي في الجنة؛ لأن صاحب القرآن يترقى في درجات الجنة إلى آخر آية

تلاها وقرأها؛ يُقال له: ارق، وما زال يترقى حتى يقف عند آخر آية قرأها في درجات الجنان، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منها؛ هذا هو المقصود بـ «وَأَعْلَ مَكَانِي» ليس المقصود أنه يتمنى مجرد الذكر في الدنيا ورفع المكانة في الدنيا؛ وإنما المراد الرفعة المهمة في الآخرة، وما يتعلّق بالدنيا يُطلب الذكر الجميل الذي يؤدي إلى أن يُدعى للمسلم على ما قدّم سواء دعاء إخوانه المسلمين أو دعاء أولاده الذين ربّاهم على طاعة الله؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له)).

إذا «وَأَعْلَ مَكَانِي» ؛ أي: في الجنة؛ لأنّ أهل القرآن يترقون بحسب تلاوتهم الذين يقرأونه ويعملون به ويقفون عند حدوده، ((خيركم من تعلم القرآن و علمه))، -جعلني الله وإياكم من أهله-.

ومما يؤيّد هذه الدّعوات التي مازلنا معها التوسّل بالقرآن؛ ما رواه الإمام أحمد وغيره بسند صحيح من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: -وهو دعاء الكرب ما قاله مسلم وعليه كرب إلاّ أزال الله كربيه و أبدله به فرحاً- قال عليه الصّلاة والسّلام: ((اللهمّ إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل، فيّ قضاءك، أسألك اللهمّ بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء همي وغمي وذهاب حزني وشفاء مرضي)).

فالتوسّل بالقرآن على هذا النحو: أولاً: بأنّه كلام الله، وثانياً: بأنّ تلاوته والعمل به أعمال صالحة من أعظم وأدقّ وأفضل أنواع التوسّل المشروع.

*** ** **

الشريط الرابع

قال العلامة القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«وَأَقْطَعْ بِهِ طَمْعِي وَشَرِّفْ هِمَّتِي * كَثُرْ بِهِ وَرَعِي وَأَخِي جَنَانِي»

[الشرح]

«وَأَقْطَعْ بِهِ طَمْعِي»؛ أي: الأطماع الدنيوية والضَّمير كما تقدَّم لنا في الأبيات السابقة: «وَأَقْطَعْ بِهِ» كَلَّها تعود إلى ماذا؛ الضَّمائر؟ إلى القرآن الكريم؛ لأنَّه كلام الله والتوسل بصفات الله - عزَّ وجلَّ - مشروعة؛ أي: اجعل تعلُّقي بالآخرة، ووفَّقني للتعلُّق بالآخرة، والبعد عن الأطماع الدنيوية التي تصرفني عن الآخرة؛ وليس المراد أن يترك الإنسان المسلم الدنيا كلها؛ بل يتزوَّد منها بما يعينه على طاعة الله - سبحانه وتعالى -، والله - عزَّ وجلَّ - يحب أن يرى أثر نعمه على عباده؛ لكن المراد: أن يقطع طمعه؛ ذلك الطَّمع الذي يجعله يُؤثر الدُّنيا على الآخرة وهذا المذموم، المذموم هو أن تُؤثر الدُّنيا على الآخرة، وأمَّا إذا أخذ منها بالقدر الذي يعينه على طاعة الله ولو كَثُرَ ماله إذا كان من طرقه المشروعة وسخَّرَه في طاعة الله - عزَّ وجلَّ - فهذا لا حرج عليه ولا شيء فيه؛ وإنَّما المراد أنَّه يدعو أن يقطع الله بالقرآن وبالاشتغال بالقرآن من الأطماع الدنيوية، وهذا فيه أيضاً لفظة عظيمة إلى أمر هام؛ وهو أنَّه لا يجوز للمسلم أن يستخدم القرآن من أجل أطماع الدنيا من أجل التكثر منها والتزوَّد منها وهذا ممَّن يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا، وخير مثال لهذا الصَّنْف من الناس؛ الذين سخَّروا القرآن للأطماع الدنيوية في هذا العصر؛ أولئك

♦ هذا الشريط ترقيمه في السلسلة الصوتية بالشريط التاسع، ولكن قمنا بإدراجه محل الرابع إذ هو المناسب لتسلسل شرح الأبيات، ولعله كان خطأ لمن أدرجه أن يضعه بالتسلسل التاسع، وعليه فسوف يكون ترقيم الأشرطة المفرغة فيما بعد سابق للترقيم الصوتي بواحد؛ أي: سيكون التالي هو الخامس في الترقيم، الرابع في الصوتي، وسنشير لهذا في بداية كل ملف قادم - إن شاء الله تعالى -.

الذين يحيون بالقرآن المآتم البدعية التي تقام عند وفاة زيد من الناس، فيقيمون ثلاثة أيام أو أسبوع، وربما جددوا ذلك عند الأربعين، وعند حلولان الحول، وكل هذا بدع ما أنزل الله بها من سلطان، وأكل لأموال الناس بالباطل؛ فالذين يقيمون السُّرادقات عند وجود ميت عندهم:

أولاً: العمل في حد ذاته بدعة.

وثانياً: ما يأخذه هؤلاء القراء الفجار سحت وحرام.

وثالثاً: أن فيه أكلاً لأموال الورثة بغير حق المساكين الفقراء؛ فهو حرام من جميع الوجوه ولذلك قال «وَأَقْطَعْ بِهِ طَمْعِي»؛ أي: في الدنيا وأعظم الناس طمعاً في الدنيا القراء الذين يستخدمون القرآن بهذا الغرض إذا أصبح الصباح فتح مكتبته و قال على الله على باب كريم يبحث عن ميت، يعني يفرح إذا أخبروه أنه قد مات فلان في الحي الفلاني حتى يساومهم على التَّقود التي تُدفع ناهيك عن الذبائح والحلوى التي يبلع منها ويتجرّع ويتمايل برقبته ورأسه كما تتمايل الرّاكصة مثل هذا القرآن يلعنه وهو حجة عليه -والعياذ بالله- ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث أبي مالك الأشعري: ((والقرآن حجة لك أو عليك)) فانتبه لهذا يا عبد الله.

«وَأَقْطَعْ بِهِ طَمْعِي وَشَرَّفْ هِمَّتِي»، القرآن شرف لأصحابه، وهم أصحاب القرآن مُتعلِّقة بما عند الله - سبحانه وتعالى - وهو أعظم مقصد شريف يطلبه مسلم، كيف لا وقد ذكرنا بالأمس الحديث أن صاحب القرآن يترقى في سلم في الجنة بعدد ما قرأ من الآيات، ولذلك «وَشَرَّفْ هِمَّتِي»؛ أي: بالقرآن وذلك بالعمل به، وتلاوته حق تلاوة والعمل به على الوجه الذي يُرضي الله، وفهمه وفق فهم السلف الصالح هذا هو الذي ينبغي التنبيه له، نعم، تفضّل.

«كَثُرَ بِهِ وَرَعِي وَأَخِي جَنَانِي»، القرآن إذا تعلّمه المسلم وعمل به؛ كثر ورعه وزهده في الدنيا، وأقبل على الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن القرآن قد تشرب بدمه وعروقه وشُغف به قلبه؛ فأصبح شغله الشاغل؛ لذلك يمتاز بالورع، ليس ورع المتصوّفة الذين يتركون القرآن، ويردّدون أذكّاراً ابتدعوها من عند أنفسهم يرقصون بها ويسمّونها ذكراً وإنّما هو ورع أهل السنّة والجماعة الذين يعملون بالقرآن ويطبقونه ويحلّون حلاله

ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ولذلك قال: «كَثُرَ بِهِ؛ -أي: بالقرآن- وَرَعِي» والورع: هو الوقوف عند حدود الله نتيجة لشدة الخوف وخشية الله - سبحانه وتعالى - وهذا هو شأن القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

«وَأُحْيِ جَنَانِي»، الجنان هو القلب الجنان بالفتح، والجنان ما يجتن ويستتر به، والجنان الإصابة بالجنون -والعياذ بالله-، هنا الجنان ولذلك السلف منهم من عرف الإيمان بقوله: "قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان"، والمقصود بالجنان: القلب.

«وَأُحْيِ؛ -أي: بالقرآن- جَنَانِي»؛ أي: أحيي به قلبي يا ربي؛ لأن في القرآن حياة القلوب وطمأنينة الأفتدة، فيه تنبيه لها من غفلتها وإيقاظ لها من سباتها وتلين لها من قسوتها، فإذا قرأه المسلم وعمل به وطبقه؛ كان في ذلك حياة القلوب وتفريج الكروب بإذن الله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال: "وأحيي يا ربي، «أُحْيِ»؛ -أي: بالقرآن- جَنَانِي»؛ أي: قلبي نعم.

[المتن]

«أَسْهَرُ بِهِ لَيْلِي وَأَظْمِ جَوَارِحِي * أَسْبِلْ بِفَيْضِ دُمُوعِهَا أَجْفَانِي»

[الشرح]

«أَسْهَرُ بِهِ لَيْلِي وَأَظْمِ جَوَارِحِي» الذين يسهرون يتلون كتاب الله يرجون تجارة لن تبور، أنظر إلى بعض المحرومين حتى في رمضان يسهرون على ما حرم الله! على الأفلام والفضائيات والكيل والقال واللعب بالألعاب المشغلة وربما كان بعضها غير مباح! فهؤلاء محرومون يسهروا على ما حرم الله، فإذا ما أقبل الفجر؛ نام ثم بال الشيطان في أذنيه، وإن لم يكن عنده عمل وظيفي؛ لم يقم إلا قبيل المغرب، والويل لك أيتها الأم أو الزوجة إن لم يجد أصناف الطعام على السفرة؛ لأنه ضيع ثلاثة فروض ولم يركع ولم يسجد لله - عز وجل - فأجدر به أن يفطر لأنه محروم.

«أَسْهَرُ بِهِ لَيْلِي»؛ أي: بالقرآن اجعلني أقضي الساعات الطويلة من الليل يا ربي في تلاوة القرآن وقراءته، والعمل به؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا حسد إلا في اثنتين وذكر منهما رجل آتاه القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار)) فالمسلمون

الْخُلُصَّ وطلَّابُ العلمِ خاصَّةُ الجادُّونَ هم الذين يسهرون ليلَهم في القرآن الكريم تلاوةً وعملاً وتفسيراً وفهماً، ورجوعاً إلى المصادر التي تُفهم القرآن على منهج السلف الصَّالح.

«وَأَظْمَ جَوَارِحِي»؛ أي: عطَّش جوارحي بكثرة ما ألَّحج بتلاوة كتابك، وليس المراد يا عبد الله أن تضني نفسك حتى السَّأم؛ فإنَّ هذا لا ينبغي وإنَّما ساعة وساعة؛ كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم لحنظلة، ولأنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، اقرأ ساعة ونم مثلها؛ ثم قم وقرأ وهكذا هذا هو مقصود المصنِّف؛ أنَّه يطبِّق وفق السنة، وليس المراد أن تضني نفسك إلى درجة السَّامة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا))، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [يَتَخَوَّلُ] أصحابه بالموعظة تخوَّلاً، ولذلك هذا هو المقصود بقوله: «أَسْهَرُ بِهِ لَيْلِي وَأَظْمَ جَوَارِحِي» اجعل جوارحي تتلهف إليه وتعطش من كثرة الجهد فيه؛ لأنَّه جهد مبارك، وكما قلت يعني ليس المراد أن يتبتَّل المسلم وينقطع في العبادة تماماً، فإنَّ هذا قد نُسخَ ولله الحمد من شريعتنا، وإنَّما المراد أن تراعي ثلاثة حقوق: حق نفسك وحق أهلِكَ وحق إخوانك، وقبل ذلك حق الله -عزَّ وجلَّ- أربعة حقوق فتنبه لهذا "إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ" هذا هو المراد بالبيت، وليس المراد التبتل والانقطاع الكلِّي، وإنَّما المراد أن القرآن هو شغله الشَّاعِل قولاً وعملاً واعتقاداً وعلماً؛ بل تعلُّماً وتعليماً نعم.

«أَسْبَلُ بِفَيْضِ دُمُوعِهَا أَجْفَانِي». بمعنى أنَّه يتضرَّع إلى الله -عزَّ وجلَّ- أن يرزقه التأثير بالخشوع عند تلاوة القرآن والعمل به، والتأثُّر به والتأثير به؛ لأنَّه كلام عظيم لو أنزل على الجبال لتهدَّدت؛ قال الله سبحانه: {لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]

المقصود أن المسلم الحق يتأثَّر ويخشع قلبه، وقد تذرف عينه وتدمع من خشية الله حين تلاوة القرآن، وهذا عند تفهِّمك لمعانيه وتدبرها وتأملها؛ كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24] وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82] فالمقصود يا عبد الله أن تتدبَّره وتعمل به وتقف عند كل آية؛ حتى يلين به قلبك؛ كما قال الله -عزَّ وجلَّ-

وجلّ-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2].

والمقصود ليس هو التكلف في البكاء عند تلاوة القرآن، وإنّما المقصود ما يحدث عفويًا بسبب تأثر القلب عندما يسمع الآيات التي تخوّف من عذاب الله، أو التي تبشر بالجنة وتحذر من النار، يخشع قلبه ويعود إلى ربّه ويزيد إيمانه وتقوى عزيمته ويطمع فيما عند الله أكثر، يرجو ثواب الله ويخاف عقاب الله.

والأجفان هي ما عدى الحجب التي فوق العينين، نعم تفضّل.

[المتن]

«إِمْرَجْهُ يَا رَبِّي بِلَحْمِي مَعَ دَمِي» *وَغَسِلْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الْأَضْغَانِ»

[الشرح]

«إِمْرَجْهُ يَا رَبِّي»، أيضًا كل هذا تضرعًا إلى الله -عزّ وجلّ- بأن يجعل القرآن شغله الشّاعِل، وإذا اشتغل بالقرآن اشتغل بالسنة، لا يفهم من هذا أنّه يعني القرآن مجردًا من السنة؛ لأنّ هذا غير متصور من هؤلاء الأئمة بدليل ما سطره بعد، يتضرّع إلى الله أن يجعل تأثيره بالقرآن هو شغله الشّاعِل؛ حتّى يجري في سويداء قلبه وشعيرات دمه وعروقه، وهذا أسلوب عربي فصيح؛ المقصود به: أنّه يتعلّق بالقرآن دائميًا يتعلّق به في كلّ وقت وفي كلّ حين، قلبه معلّق بالقرآن ولذلك قال: «إِمْرَجْهُ يَا رَبِّي بِلَحْمِي مَعَ دَمِي»؛ أي: اجعله شغلي الشّاعِل وهمي العظيم قولاً وتلاوةً وقراءةً وعملاً وتطبيقاً وأخلاقاً وآداباً، وقبل ذلك عقيدة؛ هذا هو المراد؛ ثمّ أيضًا يتضرّع إلى الله أن ينظف به أضغان القلوب؛ لأنّ ضغينة القلب وسخيمة القلب تُزال بتلاوة القرآن؛ {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

فإذا طهر قلبك يا عبد الله من الأضغان؛ فذلك فضل عظيم يمتنّ الله به عليك وأعظم ما تُنظّف به تلك الأضغان والأحقاد والسّخائم؛ إنّما هو كتاب الله -عزّ وجلّ- وهدى نبيّه صلى الله عليه وسلم، نعم إذا صارت تفرغ القلب بما فيها من مبشّرات ومنذرات ومن خوف ورجاء ودعوة إلى كلّ خير وتحذير من كلّ شر، وبيان الثواب والعقاب؛ فإنّها ستسلّ سخيمة القلب وستسلّ ضغينته -بإذن الله تعالى-؛ فيبقى قلب المؤمن أبيض

كالصفا؛ نقيًا من كلّ درن؛ لأنّ القلوب إذا وجدت فيها الأضغان والأحقاد خربت، والرجل الذي بشرّه النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وتتبعه عبد الله بن عمر ليرى عمله وما رأى عنده كثير صلاة ولا صوم غير أنّه أخبره بنهاية المطاف أنّه لم يبت وفي قلبه حقد على مسلم؛ فهذا هو شأن المسلمين يطهّرون قلوبهم من الأحقاد والأضغان والحسد وما إلى ذلك وخير ما تطهّر به القلوب هو كتاب الله - سبحانه وتعالى - يُغسل بالقرآن يُنظّف بالقرآن تلاوة القرآن مع الطمأنينة والخشوع والخضوع ثلث القلوب وتطهّرها - بإذن الله سبحانه وتعالى -.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي * وَهَدَيْتَنِي لَشَرَائِعِ الْإِيمَانِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي * وَهَدَيْتَنِي لَشَرَائِعِ الْإِيمَانِ»، هنا أيضًا توسل إلى الله - عزّ وجلّ - بالعمل الصالح، وهو ما منّ الله عليه به من الخلق أوّلًا، وجعله في أحسن تقويم؛ ثمّ أيضًا بعد هذا هداه إلى شريعة الحق إلى الإسلام؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ فأوّلًا يتقرّب بأن يشكر الله - عزّ وجلّ - على ما أنعم عليه بأن خلقه حتى صار بشراً سوياً؛ ثمّ جعله في أحسن صورة؛ كما قال - عزّ وجلّ -: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4] وقال - تبارك وتعالى -: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الإنفطار: 6-8]؛ يعني: أكثر خلق بني آدم دمامة أقلهم جمالاً، لو أُتي بأقلّ الادميين جمالاً وأكثرهم دمامة؛ هل يرضى هذا الدميم الذي يوصف بأنّه دميم هل يرضى مثلاً أن يكون قرداً أو كلباً؟ لا يمكن {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4] الله - عزّ وجلّ - كرّم بني آدم {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء: 70] وجعلهم في هذه الصورة الجميلة وأعطاهم هذا القوام؛ فذكره لذلك من باب الامتنان بنعمة الله - عزّ وجلّ - «أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي»، خلقتني من عدم، وصوّرتني في هذه الصورة الجميلة؛ ثمّ بعد هذا التصوير البديع والخلق الجميل؛ هديتني للإسلام والشرائع الإيمان، والشرائع جمع شريعة

والمقصود بها مناهج الإسلام التفصيلية، وإلا فهي شريعة واحدة، ولكن المراد يعني: الأحكام الكثيرة التي يشملها الدين الحنيف.

«وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الْإِيمَانِ» فهذه مئة من الله - عز وجل - انظر إلى العالم آلاف الملايين يعيشون شريعة الغاب، كفر منوع، وقد من الله عليك يا عبد الله بأن هداك للإسلام، وهذه أعظم مئة، وأفضل نعمة يجب أن نشكر الله - تبارك وتعالى - عليها؛ **ف{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}** [الأعراف: 43] ولذلك جاء في دعاء القنوت: "اللهم اهدنا في من هديت"؛ فمن هداه الله للإسلام فإن كل ما دونه يهون؛ **{وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [آل عمران: 85] **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ}** [الأنعام: 90] فأعظم مئة وأعظم نعمة؛ هداية الله لنا إلى دينه الحنيف؛ فنسأله - تبارك وتعالى - أن يثبتنا على ذلك، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ثبت قلوبنا على طاعتك، ثبت قلوبنا على الإيمان، يا حيُّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

*** ** **

الشريط الخامس

قال الشيخ القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي وَرَحِمْتَنِي * وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِي الْقُرْآنِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

قال - رحمه الله -:

«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي وَرَحِمْتَنِي * وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِي الْقُرْآنِ»، مازال في باب الامتنان بما تفضل الله به عليه والاغتراب بذلك والتوسل به؛ يعني يتوسل بالأعمال الصالحة؛ فيشكر ربه ويعترف بنعمته عليه حيث تفضل عليه بالعلم، والعلم هو أعظم زاد يتزوّد به المسلم؛ لأنّه بالعلم يعرف الكفر من الإسلام، والهدى من الضلال، والتوحيد من الشرك، والسنة من البدعة، والحق من الباطل، العلم الذي يعمل به صاحبه هو كالميزان الذي توزن به الأشياء فيزن به الأمور ولا يضع قدمه إلا حيث ينبغي أن تكون، العلم نور يضيء له الطريق؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي مالك الأشعري والذي جاء فيه: ((والعلم نور))؛ فهو يشكر الله ويحمده أن وفقه للعلم ويعترف بفضله عليه.

«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي» تفضّل عليه بالعلم وماذا؟ «وَرَحِمْتَنِي» بهذا العلم؛ لأن في العلم رحمة لأولي الألباب، العلم رحمة على أصحابه حيث يرحمهم الله به من الوقوع في الشبهات وكذلك من الوقوع في الشهوات؛ لأنّ العالم العامل بعلمه يخشى الله - عزّ

وجلّ-؛ كما قال الله -جلّ وعلا- {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر : 28]؛ فالعلم هو طريق الرحمة أيضاً؛ ولذلك قال: «أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي وَرَحِمْتَنِي»؛ أي: رحمتني بهذا العلم، ثمّ بيّن بعض ما منّ الله به من العلم وأعظم ذلك وأفضله وأساسه؛ وهو كتاب الله -سبحانه وتعالى-؛ حيث قال: «وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِي الْقُرْآنِ» وكلمة واعى أعظم من كلمة حافظ؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((نُظِرَ اللَّهُ أَمْرِي سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَاها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع)) والوعي هو الفهم والإدراك والتمييز ومعرفة مدلول النص؛ ولذلك "فرب مبلغ أوعى من سامع"، فإذا وعى المسلم القرآن؛ أي: فهم معانيه وعمل به؛ كان ذلك سبباً في سعادة الدارين، وهذا الوعي للقرآن لا يكون بمجرد التلاوة والحفظ؛ بل لابدّ مع ذلك مع فهم المعنى والعمل.

يقول أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ التابعي -رحمه الله تعالى-: "كان الذين يُقَرِّوننا القرآن أبيّ بن كعب وعثمان بن عفّان وزيد بن ثابت لا يجاوزون بنا عشر آيات حتّى نتعلّمهن ونعمل بهنّ فتعلّمنا العلم والعمل جميعاً"؛ لأنّ العمل هو ثمرة العلم، ولذلك قال: «وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِي الْقُرْآنِ»؛ أي: فاهماً له عاملاً به؛ لأنّه إذا كان واعياً حقّ الوعي؛ فإنّه يخشى الله، وإذا خشي الله -تبارك وتعالى-؛ عمل بطاعته، فعل ما أوجب الله عليه، وترك ما حرّم الله عليه؛ لأنّ خشية الله تحمله على الطّاعة وتمنعه من المعصية، فمن جعل الله صدره واعياً للقرآن تالياً له عاملاً به معطيه حقّه؛ فهذه أفضل نعمة يمتنّ الله بها على إنسان مسلم، تفضّل.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي * مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ يَدٍ وَلَا دُكَّانٍ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي * مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ يَدٍ وَلَا دُكَّانٍ»

هذا أيضاً من باب الاعتراف بنعمة الله، والتوسّل بهذا الاعتراف إلى الله -عزّ وجلّ- وبيان ما تفضّل به المنعم -سبحانه وتعالى- من نعم عظيمة؛ لأنّ من أعظم أسباب إجابة الدّعاء: اعتراف المؤمن بنعم الله عليه التي تفضّل بها عليه وأولاه إيّاها، ومن ذلك: الإطعام والسّقيا، «أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي» وهو الذي يطعمني ثمّ يسقيني؛ يعني: تعداد هذه

الفضائل والاعتراف بها والاعتباط بها، وتسخيرها لطاعة الله - سبحانه وتعالى - من أعظم ما يوصلك يا عبد الله إلى مرضاة الله - سبحانه وتعالى -.

«أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي»؛ {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: 22]، الله - تبارك وتعالى - هو المتكفل بالرزق؛ {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ {الذاريات: 56-58}، {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: 11]؛ فالله - عز وجل - هو المتكفل بالرزق وهو المتكفل بالسُّقيا؛ لأنَّ الماء أساس كلِّ رزق {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: 30]، فمن منَّ الله عليه بهذا الرزق وسخره في طاعة ربِّه؛ سعد في دنياه وفي آخرته.

وقوله: «مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ يَدٍ وَلَا دُكَّانٍ»؛ يدل على أهمية التوكل، وأَنَّهُ بمنزلة الرأس من الجسد، ((لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطائناً)).

طيب عندنا سؤال هنا: هل يُفهم من السطر الأخير أنَّ الإنسان يجلس فلا يكسب بيده ولا يفتح حانوت دكاناً ولا يبحث عن أسباب طلب الرزق؟ أبداً، لا يُفهم هذا من هذا البيت؛ وإنَّما هذا البيت يُبيِّن أنَّ حقيقة الرزق من الله بغضَّ النظر عن الأسباب التي يُهيئها الله ويرتّبها على مسبباتها ويرتب مسبباتها عليها، ومقصوده: أَنَّهُ لا حول ولا طول ولا قوَّة لنا إلاَّ بالله، وليس المراد ولا يُفهم أحد من كلام الشيخ هنا أنَّ الإنسان يجلس فلا يعمل ينتظر السَّماء تمطر عليه ذهباً أو فضة، أبداً، لا يفهم أحد ذلك؛ بل إنَّ هذا الفهم معارض للقرآن والسنة فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الجمعة: 10] ويقول - تبارك وتعالى -: {وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [البقرة: 187] ويقول - جلَّ وعلا -: {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [المزمل: 20] يبتغون من فضل الله فطلب الرزق والسَّعي في ذلك من سنن الأنبياء والمرسلين، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو؟ أو أن يتكفف الناس أعطوه أو منعوه)).

فلا بدَّ يا عبد الله من العمل، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن خير ما أكل ابن آدم من كفَّ يده وإنَّ نبيَّ الله داوود كان يأكل من كفِّ يده))، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((ما من نبي إلا وقد رعى الغنم))، وحثَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمته على العمل والكدَّ وطلب الكسب الحلال، والأنبياء منهم من كان صانعاً، ومنهم من كان نجاراً أو حدَّاداً، ومنهم من كان يسعى في طلب الرزق، وكان الصَّحابة -رضوان الله عليهم- منهم التاجر ومنهم الفلاح ومنهم المزارع وهكذا سنَّة الله في خلقه.

إذا لا يفهم أحد من قول المصنِّف: «**مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ يَدٍ وَلَا ذُكَّانٍ**» لا يفهم من هذا أنَّه يمنع العمل، فإنَّ العمل مطلوب، وينبغي للمسلم أن يسعى في طلب الرزق الحلال وأنَّ يكدَّ في ذلك بشرط أن لا يطغى هذا السعي على ما أوجب الله عليه من فعل المأمورات وترك المحظورات، وإنَّما قصد المصنِّف أنَّ الأرزاق بيد الله - سبحانه وتعالى - والله -تبارك وتعالى- هو الذي يعطي ويمنع، وليس الغنى دليل محبة الله تعالى ولا الفقر دليل كراهية الله تعالى للفقير؛ بل ربما انعكس الأمر أحياناً؛ لذلك تكلم بعض النَّاس في أي الصنفين أفضل الغنيُّ الشَّاكر أم الفقير الصَّابر؟ وهذه مسألة أرى أنَّها من فضول العلم كلَّ سيؤتيه الله - عزَّ وجلَّ - من فضله ولذلك لما جاء فقراء الصَّحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا: ((يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور - يعني: أهل الأموال الكثيرة - يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم؛ قال: ((أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ - وذكر الحديث - إنَّ في كلِّ تسبيحة صدقة، وفي كلِّ تكبيرة صدقة، وفي كلِّ تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة)) إلى آخر الحديث؛ فلمَّا فعلوا ذلك جاءوا مرَّة أخرى؛ قالوا: "يا رسول الله رأونا نفعل ففعلوا مثلنا"؛ قال: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) فلا اعتراض على قدر الله - عزَّ وجلَّ -؛ {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 26].

فالخلاصة ينبغي أن يفهم كلام السلف، يُحمل على ما فيه من إطلاق على ما هناك من تقييد في مواطن أخرى، والشيخ ليس ممن يرى الركون إلى النَّوم والسُّكون والدَّعة والراحة وعدم العمل؛ تدلُّ لذلك أبيات سوف تأتي ولكن هو ينبه إلى أهمية الإيمان بأنَّ

الأرزاق بيد الله - سبحانه وتعالى - يرزق من يشاء بفضله، ويحرم من شاء بعدله؛ فليكن هذا هو المفهوم من هذا البيت لا غير، نعم.

قال:

[المتن]

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي * وَغَمَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ»

[الشرح]

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي * وَغَمَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ»، الجبر هو إصلاح الكسر ويُطلق على ما يمن الله به على عبده من الخير؛ من جبر قلبه بالإيمان، ولذلك جاء في الدعاء الذي يُقال في الجلسة بين السجدين: "اللهم اغفر لي وارحمي وارزقي واجبرني"؛ لأنه هو الجبار بما يحتمله هذا الاسم من معان كثيرة؛ هو جابر الكسور وجابر القلوب -نسأل الله أن يجبر قلوبنا بالإيمان وبعز الإسلام ورفعة الدين وعلو شأنه-؛ كما أنه الجبار الذي يكسر الظلمة والكفرة والملحدين -نسأله تبارك وتعالى أن يكسر أعداء المسلمين، نسأله تعالى أن يكسر شوكته؛ يعني: بعض الأسماء قد تكون -يعني- في حق الله -عز وجل- تعتبر مدحاً، وفي حق الآدمي تعتبر ذمّاً، ومنها اسم الجبار؛ ففي حق الله -عز وجل- مدح؛ لأنه الجبار المتكبر، ولأنه الجبار الذي يجبر كسر عبادته، وأما الإنسان الجبار؛ فإنه ممقوت إن الله لا يهدي قلب كل متكبر جبار؛ فالجبار في حق الإنسان مذموم، «وَجَبَرْتَنِي»: جبرت كسرنا، وجبرت قلوبنا بالإيمان، وجبرت قلوبنا بالرضا بما قسمت وما قدرت، وجبرت أمرنا بما عوَّضتنا من خير، نسأل الله أن يوزعنا وإياكم شكر نعمته.

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي» يشمل هذا الستر كل ما من الله به علينا من ألوان الستر من ستر الذنوب، وستر العيوب، وكلنا عيوب وذنوب لولا فضل الله علينا وستره وستر أجسامنا بما تفضل علينا به من لباس وخير وسترنا بالرزق الحلال؛ فقلوه: «وَسَتَرْتَنِي» تشمل معان كثيرة؛ ((من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة)) ولذلك من أسماءه - سبحانه وتعالى - السَّتِير؛ كما ثبت في السنة؛ أي: الساتر لذنوب عباده، والساتر لعيوبهم والساتر لأجسامهم، والساتر لخلائقهم أو لخلائقهم؛ فالله -تبارك وتعالى- هو السَّتِير، ولا

نعلم أنّ من أسماء الساتر لذلك الأولى بدل ما يقول الإنسان يا ساتر أن يقول يا ستير؛ لأنّ ذلك هو الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي» فمن ستره الله فلا كاشف لستره، ومن فضحه الله فلا ساتر له، نسأل الله أن يسترنا وإياكم أن يستر ذنوبنا وعيوبنا في الدنيا والآخرة، ومما جاء في هذا المعنى؛ حديث عائشة في تفسير قول الله - سبحانه وتعالى -: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: 8]؛ حيث استفسرت النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: ((من نوقش الحساب هلك))؛ فاستفسرت عن معنى الآية؛ فبين لها النبي صلى الله عليه وسلم إنّما ذلك العرض حيث تُعرض عليه أعماله يعرضها الله بينه وبينه التي غفرها له فيقول: ((عملت في يوم كذا، كذا وكذا وقد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم))

نسأل الله من فضله، نسأل الله أن يستر عيوبنا و يغفر ذنوبنا في الدنيا والآخرة.

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي» وأول نصر وأعظم نصر هو الانتصار على النفس والشيطان {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9]، إذا نصرك الله على شهوات نفسك وعلى هواك وعلى الشيطان؛ فإنّ هذا هو أعظم نصر و يترتب عليه النصر على الأعداء بإذن الله {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: 40].

وقوله: «وَنَصَرْتَنِي» تشمل بادئ ذي بدء الانتصار على النفس وكبح جماحها ومنعها من شهواتها ونزواتها؛ لأنّ النفس أمّارة بالسوء، قد تكون أمّارة بالسوء، وقد تكون اللّوامة وقد تكون مطمئنة - نسأل الله أن يجعل نفوسنا وإياكم من النفوس المطمئنة - فالانتصار على النفس بالبعد عن الشّهوات من أعظم ما يمتنّ الله به على عباده، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))، فمن نصره الله على نفسه وعلى الشيطان؛ سَعِدَ في الدنيا والآخرة؛ ولذلك جاء في الدعاء الصحيح: ((اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رَشْدي وَاعْزِني مِنْ شَرِّ نَفْسِي))، وفي الحديث الآخر الذي نقوله عند الصباح وعند المساء، وعند النوم: ((اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَهُ أَوْ وَ شَرِّكَهُ - على الروایتين - أَوْ أَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَنْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ)) هذا نقوله

عند الصباح وعند المساء وعند النوم؛ كما أرشد إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق -رضي الله عنه-؛ فينبغي لنا أن نحافظ على مثل هذا الدعاء، والنفس كالطفل تتعود على ما تعودها عليه؛ إن عودتها على الخير تعودت وإن عودتها على الشر وتركت لها العنان سوف تلقي بصاحبها في مآهات لا تحمد عقباها؛ ولذلك ينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه وأن يكبح جماحها وأن يوقفها عند حدّها؛ حتّى لا تلقي به في مهاوي الردى.

«وَنَصَرْتَنِي * وَغَمَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ»، الغمر هو التغطية، والمقصود أن فضلك وإحسانك يارب سابغ علي وعلى المؤمنين، وأعظم ما يُغمر به المؤمن أن هداه الله تعالى للإسلام؛ فالحمد لله أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وكلُّ هذه من باب شكر النعمة والامتنان حيث ينطرح المسلم بين يدي ربه شاكرًا لأنعمه عليه؛ فإنّ ذلك هو أعظم سبب لدوامها والانتفاع بها.

«وَنَصَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ»، أحسنت إلي وتفضّلت عليّ وتكرّمت عليّ؛ {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل: 18] نعم.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي * وَهَدَيْتَنِي مِنْ حَيْرَةِ الْخِذْلَانِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي»، الإيواء هو الحماية والنصر والحفظ من كلّ شيء؛ ولذلك جاء في الثناء على أهل الذكر في الرجل الذي جلس حيث انتهى به الصّف أو حيث لم يجد مكانًا؛ فجلس خلف الصّف؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وَأَمَّا الثَّانِي فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ)) آواه وتفضّل عليه؛ لأنّ الإيواء هو الحماية والحفظ والكلاءة من الله -سبحانه وتعالى-، آويتني وحفظتني بالإسلام، وآويتني وحفظتني من كلّ ما يخالف ذلك؛ فهذا فضل من الله ومنّة؛ فيطلبه المزيد وفي كلّ هذا توسّل باعترافه بفضل الله عليه وهو من الأعمال الصّالحة التي يُشرع التوسّل بها.

«أَوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي» حباه؛ أي: أعطاه؛ أي: أعطيتني وتفضلت عليّ بعطائك الواسع ومَنَّتك العظيمة وأعظم ما حبوتني به هي نعمة الإسلام، وحبوتني فمن حباه الله نعمه؛ فليشكره بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وشكر تلك النعم حتّى لا تتعرّض للزوال، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: 11].

«وَحَبَوْتَنِي * وَهَدَيْتَنِي» الهداية هي التوفيق والسداد، وهي الدلالة أيضاً على الخير؛ فأمّا التوفيق والسداد؛ فهو خاصٌّ بالله - سبحانه وتعالى - إذ الهداية بيد الله {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: 56] وقد أمر الله المؤمنين أن يقولوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأعراف: 43]؛ فهذا من ذكر المؤمنين في الجنة بعد أن يمتنَّ الله عليهم بعفوه وغفرانه ودخول الجنة، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ لأنَّ الهداية والإضلال بيد الله يهدي من يشاء تكرّماً وفضلاً، ويضلُّ من يشاء حُكماً وعدلاً؛ ولذلك يجب على المسلم أن يسأل الله الهداية دائماً؛ بل أمرنا أن نسألها في كلِّ وقت، في الصلوات بتكرار سورة الفاتحة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]؛ أي: وفقنا للسير على الطريق السويِّ طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين، بعيداً عن طريق المغضوب عليهم اليهود والضالين النصارى ومن شايعهم أو قلّدهم، فمن هداه الله - سبحانه وتعالى - وامتنَّ عليه بالهداية؛ فهذا فضل عظيم من الله - عزَّ وجلَّ - لذلك سنُّ لنا أن ندعو فنقول: ((اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ)) وجاء في الدعاء الآخر ((اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) فلنسأل الله الهداية دائماً؛ ولذلك يعترف بفضل الله عليه أن هداه للإيمان وهي أعظم هداية أعظم فضل؛ {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} [الحجرات: 17] {وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: 101]

«وَهَدَيْتَنِي مِنْ حَيْرَةِ الْخِذْلَانِ»؛ لأن من لم يهده الله فلا هادي له، {مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ} [الأعراف: 186]، {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد: 33]،

{وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: 17] الله وحده الذي بيده الهداية؛ فعلى المسلمين أن يعوا ذلك؛ لأن من لم يهده الله سيكون في حيرة وفي ضياع لا يدري أين يتجه، {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الفرقان: 44]؛ فالله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يهدي من الحيرة إلى اليقين، فمن طلب الهدى من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بصدق وإخلاص؛ حصلت له هذه الهداية، ومن طلب الهدى من غير الكتاب والسنة؛ وقع في الحيرة والضياع والتهان.

** ** *

الشريط السادس

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«وَزَرَعْتَ لِي بَيْنَ الْقُلُوبِ مَوَدَّةً * وَعَظَفْتَ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانٍ»

[الشرح]

قال المصنّف - رحمه الله -:

«وَزَرَعْتَ لِي بَيْنَ الْقُلُوبِ مَوَدَّةً * وَعَظَفْتَ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانٍ»

يشكر ربّه - سبحانه وتعالى - ويحمده على أن زرع له مودة في قلوب المؤمنين، وهذا شأن المؤمن فإنّه إذا أحبه الله؛ حبّه إلى عباده المؤمنين وهذا يدلّ له الحديث الصحيح: ((إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحبّ عبداً ناد جبريل أنّي أحبُّ فلان فأحبه، فينادي جبريل أهل السماء السابعة: أنّ الله يحب فلاناً فأحبّوه، ثمّ ينادي كل سماء أهل السماء التي تليهم أنّ الله يحب فلاناً فأحبّوه، ثم يناد أهل السّماء أهل الأرض إنّ الله أحب فلاناً فأحبّوه يحبّه الله ويحبّه أهل السّماء ويوضع له القبول في الأرض))، وهذا من فضل الله - تبارك وتعالى - على المؤمنين أنّ الله يحبّه ويحبّه إلى عباده المؤمنين، ولذلك ذكر الشيخ - رحمه الله - أنّ الله جعل له مودة في قلوب عباده المؤمنين، ومن أحبه المؤمنون؛ فهذا دليل على محبة الله له؛ لأنّ المؤمنين شهداء الله في أرضه، وقد مرّت جنازة ذات يوم فذكرت بخير؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وجبت))، ومرّت أخرى فذكرت بشر؛ فقال: ((وجبت))؛ قالوا: "وما وجبت يا رسول الله؟" قال: ذكرت الأولى بخير؛ فوجبت له الجنّة وذكرتم الأخرى بغير ذلك؛ فوجبت لها النار أنتم شهداء الله في أرضه)) وليس المراد المحبة التي قد يغتر بها البعض وهي محبة الدّنيا ومصالحها وما يتعلّق بها من أمور؛ وإنّما المقصود

الحبة في الله، أن الله - عز وجل - يجعل المؤمنين يحب بعضهم بعضاً؛ كما قال الله - تبارك وتعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54] فإذا أحبهم الله وضع لهم القبول في الأرض وزرع لهم المحبة والمودة في القلوب من فضله - سبحانه وتعالى -.

ومن شأن المؤمنين التحاب في الله، ومن أعظم أسباب التحاب: إفشاء السلام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أدلكم على ما إن فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)) أو كما قال صلى الله عليه وسلم؛ فالمؤمن يحب أخاه المؤمن، ومن علامات ذلك: الإيثار أنه يؤثره حتى على نفسه {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9] هذا هو شأن المؤمنين؛ ((مثل المؤمنين في توادهم وتحابهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) ولذلك ينبغي للمسلم أن يفهم هذا وأن يفهم أسبابه فيعمل الأسباب التي توصله إلى الله وتوصله إلى محبة الله فإذا أحبه الله حبه إلى قلوب عباده المؤمنين وعطف عليه سبحانه.

أيضاً يمتن بعطف الله عليه ورزقه حنان إخوانه المسلمين، عليه وهذا فضل من الله - تبارك وتعالى - ونعمة {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: 4] وهذا البيت مثل ما سبقه من الآيات فيه توسل بالأعمال الصالحة؛ والتي منها محبة المؤمنين لإخوانهم؛ فإنها من العمل الصالح الذي يتقرب به إلى الله - سبحانه وتعالى - وعطف بعضهم على بعض، وحنو بعضهم على بعض ومودة بعضهم بعضاً، وهذا فضل من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم نعم.

[المتن]

«وَنَشَرْتُ لِي فِي الْعَالَمِينَ مَحَاسِنًا * وَسَرَّتْ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِصْيَانِي»

[الشرح]

«وَنَشَرْتُ لِي فِي الْعَالَمِينَ مَحَاسِنًا * وَسَرَّتْ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِصْيَانِي»، في هذا البيت، في الشطر الأول بيان أو تأكيد لما ذكر في البيت الذي قبله وهو أن الله - سبحانه وتعالى - رزقه محبة المسلمين؛ حيث لا يطلعون إلا على محاسنه وما صدر عنه من أعمال طيبة بينما ستر الله - تبارك وتعالى - عن أبصارهم ما صدر منه وما بدر منه من تقصير في

جنب الله، وهذا أيضاً اعتراف منه بتقصيره فإن ما رزقه الله -تبارك وتعالى- من نشر المحاسن والخير والأعمال الصالحة إنما هو سترٌ من الله عليه وإلاً فأغلب الناس لو يعلم الناس ما تنطوي عليه نفوسهم وقلوبهم من معاصي؛ لما سَلَمُوا عليهم ولهجروهم ولتبرؤوا منهم؛ ولكن قد تغلب الأعمال الصالحة وتغلب خشية الله -سبحانه وتعالى- فتجعل إخوانك المسلمين يحبونك من أجل ما عندك من خير؛ بينما ستر الله عليك ما قد يكون عندك من تقصير في جنب الله -سبحانه وتعالى-، والله -تبارك وتعالى- سترٌ يحبُّ الستر ولذلك يحبُّه من عباده؛ فينبغي أن يستر بعضهم حالات البعض الآخر، وبخاصة من وجدت منه هفوة أو هفوات وليس داعية إلى بدعة أو زعيماً يدعو إلى معصية؛ يعني زعيم نحلة يدعو إلى معصية محترف، يتبعه فيها الآخرون فمثل هذا لا يستحق الستر وكذلك من ينشر البدع والخرافات والمنكرات والشرك ومن ينشر المعاصي ويدعو إليها، أمّا من ابتليَ بشيء منها ولم يكن داعية مع اعترافه بذنبه فليست بستر الله، من ابتليَ بشيء من هذه القاذورات؛ فليست بستر الله فإنه من يبيد لنا صفحته نُقم عليه حد الله، وكذلك ينبغي لإخوانه أن يستروا عليه إذا كان كما قلت غير محترز ولا داعية إلى فعل بدعة أو معاصي، أمّا الذي أصبح بؤرة فساد؛ يدعو إلى الشر ويدعو إلى البدع ويدعو إلى المعاصي ويتبجح بها؛ فهذا لا ينبغي الستر عليه؛ بل يجب فضحه ويجب الإخبار عنه ويحرم إيوائه، ومن آواه أو ناصره؛ انطبق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله من آوى محدثاً))، تفضل.

[المتن]

«وَجَعَلَتْ ذِكْرِي فِي الْبَرِيَّةِ شَائِعًا** حَتَّى جَعَلَتْ جَمِيعَهُمْ إِخْوَانِي»

[الشرح]

هذا يقارب البيتين الذين قبله بمعنى أنه يحمد الله ويشكره على أن جعل له ذكراً حبّ إخوانه المسلمين إليه وليس المقصود المفاخرة ولا المراءاة؛ كما هو معلوم من سياق هذه الآيات؛ وإنما المراد تكراره لشكر الله وحمده على ما أولاه من نعمة وما جعله له من ذكر طيب وصيت حسن جعل إخوانه المسلمين يحبونه في الله؛ لأن المحبة في الله من أعظم الأعمال التي تقرّب إلى الله -عزّ وجلّ- يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثلاث من كنّ

فيه وجد بمنّ محبة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار)) فالحبّ في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان يا عبد الله، الحبّ في الله والبغض في الله والموالاتة في الله والمعاداة في الله أوثق عرى الإيمان؛ فلنتمسك بهذه العرى ولذلك عدّ النبي صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ "رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه"، ولذلك فإنّ الشيخ -رحمه الله- يلجأ بهذا العمل الصالح، ويتوسل به إلى الله، أنّ الله -عزّ وجلّ- بسبب عمله الصالح وقبل ذلك برحمته - سبحانه وتعالى - وفضله ومنّه وكرمه؛ جعل له لسان صدق بين إخوانه المؤمنين مما حبيبهم إليه وحببه إليهم و هذا من فضل الله ومنّته ورحمته على عباده نعم.

[المتن]

«وَاللّٰهُ لَوْ عَلِمُوا قَبِيْحَ سَرِيْرَتِيْ * لَاَبٰى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِيْ»

[الشرح]

«وَاللّٰهُ لَوْ عَلِمُوا قَبِيْحَ سَرِيْرَتِيْ * لَاَبٰى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِيْ» هذا يفسّر ما تقدّم في الآيات الثلاثة من أنّه يحمد الله أن جعل له ذكراً طيباً مما حبّب إخوانه إليه؛ ثمّ يعترف بذنوبه وأنهم لو يعلمون ما يعلم من نفسه؛ لهجروه و منعوا السلام عنه ولا يلزم من هذا أنّه منهمك في المعاصي؛ لكن من شأن المسلم دائماً الاعتراف بتقصيره في جنب الله؛ يعني: لا يلزم من قوله: «وَاللّٰهُ لَوْ عَلِمُوا قَبِيْحَ سَرِيْرَتِيْ * لَاَبٰى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِيْ» لا يلزم من هذا البيت أنّه عاكف ومقيم على المعاصي والذنوب لكن المسلم دائماً يشعر أنّه مقصّر في جنب الله؛ كما وصف الله -تبارك وتعالى- المؤمنين بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ} [المؤمنون: 57] {وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: 59-61].

قالت عائشة -رضي الله عنها- للنبي صلى الله عليه وسلم: ((يا رسول الله هو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ويخشى أن لا [يتقبّل منه]؟ قال: لا يا ابنة الصديق

هو الرجل يصلي ويصوم ويزكي" يعني ويفعل الطاعات "ويخشى أن لا يُتقبل منه"¹ ويخشى إيش؟ أن لا يُتقبل منه أفهمتهم؟ هذا توضيح لما يريد المؤلف - رحمه الله تعالى - من اعترافه بتقصيره بجنب الله و لا يلزم من قوله: «وَاللَّهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي» أن سريرته تنطوي على شرّ هذا ليس بلازم، وإثما يدل هذا على اعترافه بتقصيره في جنب الله، وأنه يخشى أن لا يُتقبل منه، فالمسلم يعمل ويلجأ إلى الله ويدعوه أن يتقبل منه هذا هو شأنه شأن المؤمن دائماً يلجأ إلى الله - سبحانه وتعالى - ويضرع إليه أن يتقبل منه يخشى أن تكون هناك موانع قد يكون هناك شيء من أكل الحرام؛ فيمنع إجابة الدعاء قد تكون هناك مخالفة، قد تكون هناك سيئات كثيرة تتراكم، قد تكون هناك أمور؛ لكن مع ذلك لا نياس فيعيش المسلم دائماً بين الخوف والرجاء؛ كما سيأتي توضيحه وتفصيله إن شاء الله، نعم.

[المتن]

«وَلَا عَرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي * وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهِوَانٍ»

[الشرح]

«وَلَا عَرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي * وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهِوَانٍ»، هذا كله تأكيد لما تقدم من اعترافه بتقصيره في جنب الله، أنهم لو يعلمون حقيقة أمره وما تنطوي عليه نفسه؛ لأعرضوا عنه وابتعدوا عنه وهجروه ونأوا عنه، وانقلب صديقه عدواً له، ولباء بعد العزة بالهوان والذل؛ لأن الذنوب تذل صاحبها وليس هناك ذل أعظم من ذل الذنوب؛ فإنها تذله أمام الله ثم أمام خلقه وتجعله ذليلاً منحنساً؛ لكن المؤمن الحق الذي يعترف بذنوبه يرجى له خير؛ الذي إذا سؤلت له نفسه أمراً تذكر أن له رباً يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ فرجع إلى ربه {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: 201] ولذلك وعد الله - تبارك وتعالى - على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من هم بسيئة فلم يعملها بأن تكتب بدلاً منها حسنة؛ لأنه رجع خوفاً من الله، وليس المراد أنه حاول فلم يستطع.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ) أَهْوَى الرَّجُلُ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ قَالَ « لَا يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ - أَوْ يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ - وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّي وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُنْقَبَلَ مِنْهُ ». رواه ابن ماجه وصححه الألباني

والمقصود هنا أنه يعترف بذنبه ويعترف بتقصيره في جنب الله - عز وجل - ولذلك يحمد الله على أن ستر ذنوبه وعيوبه وجعل له ذكراً بين إخوانه مما حبيهم إليه نعم.

[المتن]

«لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَائِي وَمَثَالِي * وَحَلِمْتَ عَن سَقَطِي وَعَن طُغْيَانِي»

[الشرح]

«لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَائِي وَمَثَالِي * وَحَلِمْتَ عَن سَقَطِي وَعَن طُغْيَانِي»

يقول: يا ربي إنيك رحمتني وعفوت عني وتكرّمت عليّ وأكرمتني وتجاوزت عن سيّئاتي وسترت عيوبي وغفرت ذنوبي وغمرتني بحلمك الذي غمرت به عبادك الصّالحين؛ فما أحلم الله على عباده! الله - تبارك وتعالى - من أسماءه الحليم، إنّ الله غفور حلیم، إنّ الله غني حلیم، والحلم من صفات الربّ - سبحانه وتعالى - فلولا حلمه؛ لأخذ الناس بذنوبهم وعاجلهم بالعقوبة؛ لكن الله يتفضل عليهم ويحلم عليهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويستر عيوبهم ويغفر ذنوبهم ثمّ يصفح عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم، فاعتراف العبد بأنّ الله - تبارك وتعالى - قد تكرّم عليه وحلم عليه وتجاوز عن سيئاته وغفر له زلاته؛ هذا من الأعمال الصّالحة التي تقرّبه إلى ربه؛ يعني شعوره بذلك، وتقربه إلى الله بذلك العمل الصّالح وهو شعوره بفضل الله عليه وتكرمه عليه وحلمه عليه وستره لذنوبه ونحو ذلك كل ذلك من الأعمال الصّالحة التي تقرّبه إلى الله - تبارك وتعالى - نعم.

إذاً يا شيخ البيت:

«لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَائِي وَمَثَالِي * وَحَلِمْتَ عَن سَقَطِي وَعَن طُغْيَانِي»

نعم يعني خلاصة البيت أنّه يعترف بفضل الله و مثته عليه، ويعترف أنّه مليء ومحمل بالذنوب والعيوب، لولا فضل الله وستره عليه، فهذا السّتر وهذا الحلم حيث حلّم عليه وتجاوز عنه وتفضّل عليه وتجاوز عن ذنوبه، وهذا فضل من الله ومنّة، وهو من الأعمال الصّالحة أعني شعور المؤمن بذلك بفضل الله عليه في هذه الأمور واعترافه بذنبه هذا فضل من الله ومنّة؛ {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: 4]

طيب بعده

[المتن]

«فَلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كُلُّهَا» * بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي»

[الشرح]

«فَلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كُلُّهَا» * بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي»؛ أي: لك الحمد الذي لا يحصى فالحمد لله رب العالمين، و (ال) هنا تفيد الاستغراق؛ أي: جميع المحامد وجميع ألوان الثناء العطرة لك وحدك سبحانه، وأنت وحدك الذي تستحق المدح والمحمدة والثناء؛ فلك الحمد ربنا ولك الثناء ولك المجد ولك العُتْبَى حتى ترضى؛ فأنت وحدك المستحق لهذه المحامد، أنت وحدك الذي تستحق ذلك دون سواك؛ فينبغي للمسلم أن يحمد الله بجميع أموره؛ بما يدور في خاطره وضميره، وبجوارحه بالأعمال الصالحة، وبلسانه بالذكر وتلاوة القرآن واللّهج بالتسبيح والتحميد والتهليل، وفي الشّطر الثاني بيان لأنواع الأعمال فإنّ الأعمال تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال اللسان «بِخَوَاطِرِي» تشمل ماذا؟ أعمال القلوب؛ لأنّ ما يدور في الضّمائر معناه الذي تُكِنُّه القلوب من الإخلاص والمحبة والخوف والرجاء والخشوع والخضوع والإنابة والتعظيم وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ كل هذا من أعمال القلوب التي في الخواطر؛ يعني في الخواطر ما تعمله القلوب؛ فالقلب له عمل كما أنّ للجوارح و اللسان عمل.

ثم قال: «وَجَوَارِحِي»؛ يعني: ما أعمل من صلاة، من حج، من صوم، من أي شيء أتخذه قربة عندك يارب؛ لأنّك وحدك المستحقّ للمحامد.

«وَلِسَانِي» من الذكر وتلاوة القرآن والتسبيح والتهليل والتحميد؛ كل ذلك يلهج بذكرك وحمدك وشكرك يا إلهي، نعم.

** ** * * * * *

الشريط السابع

هناك ظاهرة توجد لدى كثير من الناس وعادة يقع فيها البعض؛ هذه العادة أنه إذا أصابه مرض -عافانا الله وإياكم- فإنه يستبجح لنفسه كل شيء بما في ذلك الذهاب إلى الكُفَّان والسحرة والمشعوذين، وآخرون من المرضى إذا مَرَضَ ترك الصلاة! ربما كان يصلي وهو صحيح، ثم إذا رقد على سريرهِ ترك الصلوات! والعياذ بالله.

وهذا أمر في غاية الخطورة، وسبب طرح هذه المشكلة أنه قبل أيام كنا في زيارة مريض؛ فاكتشفت أنه لم يصلي منذ أربعة أيام! طيب سألته: قلت: هل أنت غائب عن وعيك؟ أو في حال إغماء؟ قال: لا؛ قلت: إذا ما السبب؟ هل بك جنون أفقدك وعيك؟ قال: لا؛ هل أنت نائم طيلة هذه الأيام؟ قال: لا؛ قلت: وما الذي دهاك؟ قال: أنه ليس عنده قدرة أن يقوم يتوضأ وليس عنده تراب يتيمم به، فرأى أن يجمع تلك الصلوات حتى يخرج من المستشفى ثم يقضيها!

وبالعوض يظن أنه معذور إذا ترك الصلاة وهو مريض، هذا -والعياذ بالله- انتكاس، وما الذي يدريك؟ لعل هذا المرض هو النهاية، تكون مُصَلِّياً طول حياتك ثم تحتتم حياتك بترك الصلاة؟! لا يا عبد الله هذا ليس عذراً، إن لم تستطع الوضوء فتيمم، وإن لم تجد ما تتيمم به من الصعيد؛ فتيمم ولو على الجدار الذي بجوارك، وإن كنت لا تستطيع بسبب جروح أو نحوها؛ فاطلب من يُيَمِّمُكَ؛ يعني أحد الذين بجوارك يفعلون بك التيمم، بأن يضربوا بأيديهم ويمسحوا وجهك ويديك؛ أما أن تترك الصلاة! بدلاً من أن تلجأ إلى الله -عزَّ وجلَّ-.

والصلاة هي الحصن الحصين، الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ فَرَعَ إلى الصلاة، وكان يقول عليه الصلاة والسلام: ((أرحنا بها يا بلال))، وقال: ((وَجُعِلَتْ

♦ هذا الشريط ترقيمه في السلسلة الصوتية السادس، واحتوى على كلمة في بيان أهمية المحافظة على الصلاة، وعلى أدائها مع الجماعة، ولم نجده متسلسلاً مع شرح الأبيات، ولكن قمنا بإدراج تفرغته مرتب مع الملفات كما هو بالسلسلة؛ حرصاً على عدم التغيير.

قرة عيني في الصلاة))، والله -عز وجل- لم يكلفك ما لا تطيق؛ قال الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: 16].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ))؛ فيجب على المسلم أن يحافظ على الصلاة مادام به رفق حياة، ولو أن يوماً بعينه في نهاية المطاف؛ إذا لم يستطع تحريك شيء من بقية الأعضاء، وآخرون يعني يجلسون لأي مرض؛ يصلي قاعداً ولو كان يستطيع الوقوف! بدعوى أنه مريض، الصحابة كان أحدهم يؤتى به إلى المسجد وهو يُهَادَى بين رجلين؛ أي: يُحْمَل بين رجلين يحملانه يعني يتكأ عليهما ويعتمد عليهما في وقوفه ومشيه؛ حتى يوقف في الصف؛ فأين نحن من أولئك؟!

الصلاة هي عمود الإسلام وقطب رحاه وهي العهد الذي بيننا وبين الكفار، فمن تركها فقد كفر، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، والصحيح من أقوال أهل العلم أن تاركها كافرٌ ولو كان تهاوناً، هذا هو الصحيح الذي تعاضده الأدلة؛ لذلك ينبغي أن يجتهد المسلمين في أداء هذه الشعيرة على الوجه الذي يُرضي الله -سبحانه وتعالى- وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ كما قال الله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]

وهي قرة عين، وهي الصلة العظيمة بين العبد وبين ربه، وهي أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من الأعمال، فَإِنْ قُبِلَتْ؛ قُبِلَ سائر العمل، وإن رُدَّتْ رُدَّ سائر العمل، وهي عمود الإسلام، فإذا سقط العمود؛ سقطت الخيمة.

ومن شأن من تركها أن يترك كل شيء؛ لأنه إذا سَهِّلَ عليه امتثال الصلاة فإنه سيسهِّل عليه.. ، إذا أدى الصلاة أداءً صحيحاً؛ فإن أدائه لبقية الأعمال يكون من باب أولى وأهون عليه؛ بل إن الله يُعِينُهُ في هذه الصلاة على أداء بقية الفرائض والنوافل؛ فاجتهد يا عبد الله في أدائها في جماعة، ولا تلتفت إلى بعض الأقوال التي تقول: إن صلاة الجماعة غير واجبة؛ فإنها أقوال مرجوحة، والذين يقولون أنها مجرد مسنونة؛ هذه أقوال تعارضها النصوص الصريحة الواضحة؛ منها: أن صلاة الجماعة شُرِعَتْ حتى في حال الخوف والحرب، تقوم طائفة مع الإمام وطائفة تكون تجاه العدو، فإذا كان الأمر كذلك؛

فإن الواجب على المسلم يجب أن يحافظ عليها في جماعة، ولقد هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بيوت الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة بدون عذر بالنار؛ قال: ((لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب؛ ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلي قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار))، ولولا شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على ما في البيوت من نساء وأطفال لفعل ذلك؛ لذلك فإن الواجب عليك يا عبد الله أن تحافظ عليها في جماعة؛ ويقول بعض الصحابة وقد رأيتنا ولا يتخلف عنها إلا منافق؛ أي: عن صلاة الجماعة، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يذهبوا إليها ولو حبواً لفعلوا ذلك - أو ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليها لاستهموا عليها)) ويقول عليه الصلاة والسلام: ((أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو علموا ما فيهما - أي: من الأجر -؛ لأتوها ولو حبواً))

فيجب على المسلم أن يحافظ على صلاة الجماعة وأن يؤديها كما أمره الله - عز وجل - ومادام يسمع النداء، الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعذر الرجل الأعمى الذي ليس له قائد، وبينه وبين المسجد ما بينه، ومع ذلك قال له: ((لا أجد لك رخصة))؛ لما استأذنه أن يصلي في بيته، ويقول عليه الصلاة والسلام: ((من سمع النداء ثم لم يأتيه فلا صلاة له إلا من عذر)) فعلياً أن نحافظ عليها أيها الأخوة كما أمرنا الله - عز وجل - في جماعة، وأن نؤديها كما أمرنا الله - جل وعلا - وأن نجتهد في حضور صلاة الجماعة.

*** ** **

الشريط الثامن

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن] «وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ * مَا لِي بِشُكْرِ أَقْلَهِنَّ يَدَانِ»
[الشرح]

يقول - رحمه الله -: «وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ»، مازال يعدّد نعم الله عليه، والتي أعظمها الهداية للإيمان والظفر بالإسلام، ثم يُبين أنه لا يمكنه مهما عمل أن يبلغ مقدار أو عشر معشار أداء شكر تلك النعم؛ لأنّ الفضل في تلك النعم لله وحده، وإنما يعمل الإنسان من أعمال لا يعدل قطرة من نعم الله عليه، ولو لم يكن إلّا أن هداه للحق وللدين القويم وللإيمان لكان هذا كافياً؛ بل هو فوق كل نعمة ولذلك مهما بذل الإنسان من عمل لن يبلغ شكر نعم الله عليه، ولكن يجب عليه أن يذكر بكل ما أعطاه الله - تبارك وتعالى - من إمكان حتى تدوم تلك النعم وتستمر: {وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَنِ شُكْرُكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنِ كَفْرُكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7] تفضل.

[المتن] «فَوْ حَقِّ حِكْمَتِكَ الَّتِي آتَيْتَنِي * حَتَّى شَدَدْتَ بُنُورَهَا بُرْهَانِي»
[الشرح]

«فَوْ حَقِّ حِكْمَتِكَ الَّتِي آتَيْتَنِي * حَتَّى شَدَدْتَ بُنُورَهَا بُرْهَانِي»، يقسم بصفة الله - جل وعلا - التي وهبه بفضله ومنّه تلك الحكمة، ليس المراد أنه يستشرع بحكمته هو، بحكمة العبد التي وهبه الله إياها، وإنما يتوسل بحق حكمة الله التي وهبه منها أو على ضوئها ومن آثارها الطيبة وهبه حكمة، وهي الهداية للإيمان والبرهان على أن الله - تبارك وتعالى - هو الإله الحق والمعبود الذي له الأسماء الحسنی والصفات العلی؛ فنور بها قلبه وأنار بها بصيرته ووجهه بها إلى الخير وهداه إلى الصراط المستقيم؛ لأنّ الحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها ومن أسماء الله - سبحانه وتعالى - الحكيم وهو يهب الحكمة لمن يشاء

من عباده {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: 269]

فالحكمة فضل و منة من الله، الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها، الحكمة في أن نعبد الله وحده ولا نعبد أحداً سواه، الحكمة في تطبيق شرع الله، الحكمة في الدعوة إلى الله على بصيرة، الحكمة في تعاملك مع الآخرين مسلمين كانوا أو كفاراً بحسب ما يقتضيه المقام، ولذلك فإن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه الصحيح، ولذلك يُقال لمن يتصف بذلك حكيم، والله -تبارك وتعالى- هو الحكيم ولكن ليس الحكيم كالحكيم، كما أنه ليس العليم كالعليم، وليس الحليم كالخليم وليس الرحيم كالرحيم، وإن وجد اشتراك كليّ في مطلق الاسم؛ لكن المعنى يختلف عند الحقيقة فإن حكمة الإنسان ورحمته وحلمه وعلمه محدود؛ كل هذه الأشياء محدودة، أما علم الله فإنه لا يصيب أحداً به، وحكمته لا تقف عند حد، ورحمته وسعت كل شيء، وعلمه وسع كل شيء، ولا يحيط أحد بشيء من علمه، والمهم أنه يمتنّ بأن وهبه الله الحكمة {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: 269]؛ حتى صار عنده برهان يفرّق به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال نعم.

[المتن]

«لَئِنْ اجْتَبَيْتَنِي مِنْ رِضَاكَ مَعُونَةً * حَتَّى تُقَوِّيَ أَيْدِيَّ إِيمَانِي»

[الشرح]

«لَئِنْ اجْتَبَيْتَنِي مِنْ رِضَاكَ مَعُونَةً * حَتَّى تُقَوِّيَ أَيْدِيَّ إِيمَانِي»، المقصود أن هذا هو جواب القسم، فهو أقسم بصفة الله -عزّ وجلّ-، وحكمته التي هي صفة من صفاته والذي تقدم هو القسم وجوابه وحقيقة القسم.

«لَئِنْ اجْتَبَيْتَنِي مِنْ رِضَاكَ مَعُونَةً»؛ أي: إذا وهبتني يا رب بفضلك ورضاك عني معونة منك استعين بها على طاعتك وعلى شكر نعمتك وتكون هذه المعونة عظيمة بحيث تحفظني بها من كل سوء يا رب العالمين، فإذا وهبتني معونة منك ورضيت عني؛ فكل الذي فوق التراب تراب، يعني يسأل الله -عزّ وجلّ- أن يعينه وقد جاء بها بصيغة القسم: لئن تفضلت علي بمعونة منك ورضيت عني؛ لأُسخرنّ ذلك في طاعتك وفيما يرضيك

يارب العالمين، المقصود أنه مازال يبين أن منة الله عليه ونعمه عليه، ويعد أنه إذا تفضل الله عليه فإنه سيسخر ذلك فيما يرضي الله -تبارك وتعالى- وفيما يقرب إلى الله ويقربه إلى مرضاته ويقربه إلى الجنة ويباعده من النار نعم.

[المتن]

«لَأَسْبَحَنَّ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً * وَلَتَخْدُمَنَّكَ فِي الدُّجَى أَرْكَانِي»

[الشرح]

«لَأَسْبَحَنَّ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً * وَلَتَخْدُمَنَّكَ فِي الدُّجَى أَرْكَانِي»، هذا هو جواب القسم والذي تقدم هو القسم؛ يعني أقسم بحق الله وحكمته لئن تفضل عليه بعونه ورضاه وفضله؛ ليسخرن ذلك في طاعة الله ومن ذلك أن يسبح الله -تبارك وتعالى- بكرة وعشية؛ البكرة: أول النهار، والعشية: آخر النهار، وقد يُقال الغداة والعشي؛ فالغداة أول النهار والعشي آخر النهار؛ ومنه قول الله تعالى: {أَنْ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مریم: 11] وقد يُقال للعشي الأصيل ويجمع على آصال وهي أواخر السويحات التي تقع في آخر إيش؟ النهار {وَإِذْ كَرَّرَ رَبُّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: 205]

{وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران: 41]

والمقصود أنه يعد بل يُقسم وفيه جواز القسم على الأمور المتيقنة أو التي يغلب على الظن فعلها وبخاصة فعل الطاعات، فعل الطاعات يجوز القسم عليها، فهو يقسم أن يُكثر من تسبيح الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، بكرة وأصيلاً؛ ثم أقسم أن يسخر جوارحه في الظلام للعمل بما يُرضي الله -سبحانه وتعالى- وهو ما عبّر عنه بقوله: «وَلَتَخْدُمَنَّكَ فِي الدُّجَى أَرْكَانِي»؛ أي: لأسخرن جوارحي في طاعتك وفيما يرضيك والدُّجَى هو الظلام، والظلام من أفضل الأوقات التي يتعبد فيها المرء بحيث لا يراه إلا رب العالمين، {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: 218 - 219]، حينما يهجع الناس وينام الخرومون، يقوم من وفقه الله -تبارك وتعالى- يناجي ربه، يتعرض لنفحاته، عندما يترل فينادي عباده، حينما يبق الثلث الأخير من الليل، من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأستجيب له، من يستغفري فأغفر له؛ فهو يقسم أن يسخر جميع جوارحه في

التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة والعبادة، وهي التي عبّر عنها بالخدمة، وليس المراد ما قد يتبادر إلى أو ما قد يفهمه من لا يفهم اللغة، فالله -تبارك وتعالى- لا يحتاج إلى من يخدمه، ولكن هذه أساليب عربية ولا نسميها مجازاً كما يسميها المسمون؛ فإن المجاز من الطواغيت التي هُدمت بها عقيدة الإسلام، ومن معاول الهدم التي استخدمها المعتزلة والجهمية ومن نهج نهجهم وفي ذلك، والمقصود أنه يقسم أن يسخر جميع جوارحه وأعماله فيما يُرضي الله - سبحانه وتعالى - ويقربّه إليه نعم.

[المتن]

«وَلَا ذُكْرَتِكَ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا * وَلَا شُكْرَتِكَ سَائِرَ الْأَحْيَانِ»

[الشرح]

«وَلَا ذُكْرَتِكَ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا * وَلَا شُكْرَتِكَ سَائِرَ الْأَحْيَانِ»، يقول الله - سبحانه وتعالى - في وصف المؤمنين: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 191]

و يقول -جل وعلا-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: 41, 42]

و تقول عائشة -رضي الله عنها-: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه"، وجاء في الدعاء الذي يذكر دبر كل صلاة من حديث معاذ: ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))، ومن أعظم وصايا النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا يزال لسانك رطبا بذكر الله))؛ فالمسلم يُكثر من ذكر الله إلى إن يلقي الله -جل وعلا- ما عدا الأماكن التي يجب أن يُترّه ذكر الله عنها، والمؤمن الذي يلهج بذكر الله يصبح ديدنه ولغته وطابعه ودأبه حتى في أحلك الظروف لا يذكر إلا الله -جل وعلا- كما فعل ذو النون -عليه السلام-: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 87] الذين يتعلّقون بأصحاب القبور ويذبحون لها ويستغيثون بأهلها إذا نابه أمر؛ فزرع إلى تلك القبور وأصحابها، ويقول: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" -والعياذ بالله- وماذا ينفعك به أصحاب القبور الذين إن كانوا مؤمنين فهم

يحتاجون إلى دعائك، وإن كانوا غير ذلك؛ فقد أفضوا إلى ما أفضوا إليه؟! تجد مسلم سَوِيَّ يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم ويحج البيت، ويفعل الطاعات ويحْتَنِبُ المعاصي، وينقض ذلك كله بكلمة يقولها عند قبر من القبور! مدد يا فلان! انتهى كل شيء؛ شطب على الصلاة، شطب على الزكاة، شطب على التوحيد، شطب على كل شيء أبداً؛ إذا قال: مدد يا رسول الله، مدد يا بدوي، مدد يا نقشبندي يا شاذلي يا مرغني؛ صار كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً نقض ما بنى، وهدم ما بنى؛ ولذلك يؤكد الشيخ -رحمه الله- أنه سيلزم ذكر الله في جميع أحواله قاعداً وقائماً وعلى جنبه وفي جميع الأحوال، وسيستمر على شكره بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ما حيي وما بقي.

«وَلَا شُكْرَ تَكَ سَائِرَ الْأَحْيَانِ» سائر الأحيان؛ أي: في كل زمان إلى أن أُدفن في التراب، وهذا الوعد يلتزم به المؤمن ويجوز القسم على مثل هذا؛ لأنه قسم على [مرضاة]، على ما يرضي الله -سبحانه وتعالى- بأن يكون من الذاكرين في جميع الأوقات، والشاكرين في جميع الأحيان، والشكر عبادة المنعم -سبحانه وتعالى- بفعل أوامره واجتناب نواهيه نعم.

[المتن]

«وَلَا كُتْمَنَ عَنِ الْبَرِيَّةِ خَلَّتِي * وَلَا شُكُونَ إِلَيْكَ جَهْدَ زَمَانِي»

[الشرح]

«وَلَا كُتْمَنَ عَنِ الْبَرِيَّةِ خَلَّتِي * وَلَا شُكُونَ إِلَيْكَ جَهْدَ زَمَانِي»؛ يعني الستر بستر الله وإذا أصابني فاقة أو فقر أيضاً؛ أشكو أمري إلى الله الذي إليه المشتكى وهو المستعان. والمقصود أنه يَعِدُّ؛ بل ويُقَسِّمُ أن يضرع إلى الله -عزَّ وجلَّ- وأن يكتم سرَّائه وفقره وحاجته وشكواه لله وحده لا شريك له، وأن لا يستشرف إلى أحد غير الله -عزَّ وجلَّ-، يسأله قضاء الحاجات وإقالة العثرات وكشف الكربات، يشكو إليه نوائب الدهر، وليس المقصود أنه يشكو الدهر، وإنما يشكو ما تحل به من مصائب إلى الله -سبحانه وتعالى-، ليس المراد أنه ينسب الأشياء إلى الدهر، وأنه هو الذي فعل؛ لكن قد توجد أساليب -وإن كان الأولى اجتنابها- يعني من هذا القبيل والمقصود بها أنه يضرع إلى الله

وحده لا إلى أحد سواه، ليس المقصود أنه يشكو الزمان نفسه؛ وإنما يشكو فقره وفاقته وحاجته بعد أن يكتف سريره ويفتح قلبه وصدره لله - سبحانه وتعالى - يشكو إليه ويث إليه أحزانه وأشجانه وأحواله نعم.

[المتن]

«وَلَا قَصِدْتُكَ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِي * مِنْ دُونِ قَصْدِ فَلَانَةٍ وَفُلَانٍ»

[الشرح]

«وَلَا قَصِدْتُكَ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِي * مِنْ دُونِ قَصْدِ فَلَانَةٍ وَفُلَانٍ»، هذا تأكيد لما تقدم من أن المؤمن يجب أن يعلق حوائجه بالله وحده؛ ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك))؛ ولذلك فإنه يعد ويقسم أن لا يث شكواه إلا إلى الله، وأن لا ييدي خلته إلا إلى الله، وأن لا يشكو فاقته إلا إلى الله، وأن لا يطلب قضاء حوائجه إلا إلى الله - سبحانه وتعالى -، ما يقف أمام قبر ويقول: مدد يا فلان أغني يا فلان أنقذي يا فلان؛ وإنما يمد يديه إلى من لا تخفى عليه خافية، إلى من يعلم السر وأخفى ولا يسأل فلاناً ولا فلانة، لا يسأل فلاناً ولا فلانة؛ فسبحان الله العظيم وكأنه قد عايش أو أدرك بعض ما يعيشه الناس الآن من أحوال؛ فتجد بعض الناس تستغيث بامرأة ميتة في قبرها، وآخر يستغيث برجل؛ نظرة يا ست فلانة، نظرة يا سيد فلان، مدد يا سيد فلان مدد يا ست فلانة؛ هذا هو الشرك الذي تبطل به الأعمال ويحبط الأعمال ويفسدها، والله لو يقف أحد أمام قبر وقال: مدد يا فلان، أغني يا فلان؛ فقد أشرك وفسد أعماله؛ {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103-104]

[104-103]

[المتن]

«وَلَا حُسْمَنَ عَنِ الْأَنَامِ مَطَامِعِي * بِحُسَامٍ يَأْسٍ لَمْ تَشْبُهُ بَنَانِي»

[الشرح]

«وَلَا حُسْمَنَّ عَنِ الْأَنَامِ مَطَامِعِي * بِحُسَامٍ يَأْسٍ لَمْ تَشْبُهُ بَنَانِي»، الأنام الخلق والحسم هو الكف والمنع، وهذا كله أيضاً تأكيد لما سبق من أنه يعلّق رجاءه وحوادثه في الله - سبحانه وتعالى - وأن لا يلجأ إلى الأنام وهم الخلق أعطوه أو منعه؛ وإنما يلجأ إلى الله - عزّ وجلّ - وأن يئأس ممّا في أيدي المخلوقين مقابل أن يطمع في ما عند الله - سبحانه وتعالى -، يقوي رجاءه وطمعه وأمله في الله - سبحانه وتعالى - وحده دون سواه فهو في معنى ما تقدم نعم.

[المتن]

«وَلَا جَعْلَنَّ رِضَاكَ أَكْبَرَ هِمَّتِي * وَلَا ضَرْبَنَّ مِنَ الْهَوَى شَيْطَانِي»

[الشرح]

«وَلَا جَعْلَنَّ رِضَاكَ أَكْبَرَ هِمَّتِي * وَلَا ضَرْبَنَّ مِنَ الْهَوَى شَيْطَانِي»؛ يقول: سأقدم يارب رضاك على رضا من سواك، فإذا قدم المسلم رضا ربه؛ فاز في الدنيا والآخرة؛ لذلك فإن المؤمن يؤثر محاب الله ومراضيه على محاب الخلق ومراضيههم، وأبشر يا عبد الله فإنك إذا آثرت مراضى الله؛ فسيرضى عنك وسيُرضي عنك الناس، مع أنك لا تسأل عن رضا الناس، "إذا صح منك الودّ فالكل هين" * وكل الذي فوق التراب تراب"، إذا أرضيت ربك فلا يعنك من سواه، ومع ذلك فإنه وعدك إذا اتبعت مراضيه إن يُرضي عنك الناس؛ ثبت من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس سخط الله برضا الناس سخط الله عليه وأسخط الله عليه الناس)).

ثم بعد أن أقسم أن يقدم رضا الله -عزّ وجلّ- على رضا العباد، أكّد أيضاً بأنه سيضرب بيد من حديد كلّ ما من شأنه أن يفتح عليه أبواب الأهواء، ونزغات الشيطان وذلك بإقامة طاعة الله بهذا يُضرب الهوى ويُضرب الشيطان، انظر إلى الشيطان إذا سمع الآذان هرب وله ضراط، وانظر كيف تصفد الشياطين في رمضان؛ فالشيطان يخنس إذا ذكر الله -سبحانه وتعالى-، وإذا شعر أنك تقدم محاب الله ورضاه على مراضى الخلق؛ فإنه لن يقربك بإذن الله؛ ولذلك أقسم أنه سيحطم جميع أغلال الهوى بأطر النفس على

طاعة الله - سبحانه وتعالى - وسيحطم ويسد طرق الشيطان ومنافذه بطاعة الله - عز وجل - وذكره نعم.

[المتن]

«وَلَا كُسُونَ عُيُوبِ نَفْسِي بِالتَّقَى * وَلَا قَبْضَنَ عَنِ الْفُجُورِ عِنَانِي»

[الشرح]

«وَلَا كُسُونَ عُيُوبِ نَفْسِي بِالتَّقَى * وَلَا قَبْضَنَ عَنِ الْفُجُورِ عِنَانِي»، يقسم أيضاً بأن يستر نفسه ويكبح جماحها بتقوى الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن التقوى تحجز المرء وتحجز النفس الأمانة بالسوء عن هواها، فإذا حجزتها عن هواها؛ تحكمت فيها وقادتها إلى الخير، وإذا أسلمتها قيادك وسلّمها عنانك؛ قادتك إلى الشرّ فهو يقسم أن يتغلّب على هوى النفس بماذا وأن يغطّيه بماذا؟ بتقوى الله - عز وجل - وطاعته، وحقيقة التقوى امتثال الأوامر واجتناب النواهي ثم أكد أنه ماذا؟

«وَلَا قَبْضَنَ عَنِ الْفُجُورِ عِنَانِي»، أن يحبس تلك النفس بأطرها على الحق حتى لا تقع في الفجور، أن يمسك عن الفجور بأن يتحكم في نفسه، ويأطرها على الحق أطراً ويجبرها على الحق جبراً، ويعودّها عليه فإنها كالطفل والنفس كالطفل إن تتركه شبّ على حبّ الرضاع وإن تفضمه ينظم، عليك نفسك هذبا؛ فمن ملك قياده النفس عاش الدهر مدموماً؛ فاجتهد يا عبد الله في إن تكبح جماح نفسك؛ كما وعد الشيخ - رحمه الله - في أن يكبح جماحها بأطرها على طاعة الله - تبارك وتعالى، نعم.

[المتن]

«وَلَا مَنَعَنَّ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا ... وَلَا جَعَلَنَّ الزُّهْدَ مِنْ أَعْوَانِي»

[الشرح]

كل هذا تأكيد لما تقدّم بأن يحول بين نفسه وبين شهواتها؛ لأنّ النفس ميّالة إلى كل سوء، {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: 53]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)).

ومن شأن المؤمنين أنهم يمنعون النفوس من إتباع شهواتها بتعويدها على طاعة الله وبالاجتهد في أن تُربّى وتسير دائماً وأبداً فيما يرضي الله - سبحانه وتعالى -، وأن تُبعد عنها

عن مساخط الله وعن شهواتها ونزواتها وإن تتحكم فيها ولا تجعلها تتحكم فيك، فإذا منعتها من شهواتها قدتها إلى الخير، وإن حملتك على شهواتها قادتك إلى الردى.

«وَلَا جَعَلَ الزُّهْدَ مِنْ أَعْوَانِي»، ثم يُبين ما يمكن أن يُستعان به على كبح جماح هذه النفس، وهو الزهد في الدنيا، والزهد فيما عند الناس، والرغبة فيما عند الله -جلّ وعلا-، والمقصود بالزهد هو القناعة بالحلال والبعد عن الحرام والمغريات، والاجتهاد بالتقرب إلى الله -سبحانه وتعالى- والعمل بما يُرضيه، وليس المقصود أن تحرّم على نفسك ما أحل الله -سبحانه وتعالى- فإن هذا ليس من الزهد، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: 87].

وإنما المراد أن تزهد فيما عند الناس، أن تزهد في الحرام، أن تزهد في الأبهة، أن تزهد في المغريات التي ربما تُطغّي صاحبها؛ لأن الوقوع في المطامع قد يطغّي الإنسان {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ} [العلق: 6, 7]

فهو يقسم أن يزهد فيما عند الناس، ويرغب فيما عند الله -سبحانه وتعالى-، ويستعين بهذا الزهد على ما يقربه إلى الله -تبارك وتعالى-.

*** ** **

◆

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيته:

[المتن]

«وَلَا تُنَلُّونَ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى * وَلَا تُحْرِقَنَّ بَنُورَهُ شَيْطَانِي»

الشريط التاسع

[الشرح]

كل هذه أجوبة قسم قطعها الشيخ - رحمه الله - على نفسه؛ فقال هنا: «وَلَا تُثْلَوْنَ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى * وَلَا حَرْقَنَ بُنُورِهِ شَيْطَانِي»،

والمقصود به: القرآن الكريم؛ فإنه عاهد الله - عز وجل - أن يتلوه حق تلاوته، والله - تبارك وتعالى - يقول: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: 121]، ويقول - تبارك وتعالى -: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ} [فاطر: 29]؛ فهذا فضل من الله يمتنُّ به على تالي القرآن، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن في كل حرف يتلوه المسلم حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ يقول عليه الصلاة والسلام: ((لا أقول الم حرف، ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف))؛ فتلاوة القرآن مع التدبُّر والتأمل من أعظم القرب، وأفضل الأعمال الصالحة التي يتوسَّلُ بها وتوصل إلى مرضاة الرب - سبحانه وتعالى -.

ومعنى قوله: «فِي الدُّجَى»؛ أي: في الظلام؛ عندما ينام المحرومون الذين يعتقد الشيطان على قوافيهم عقداً ولا يحسُّون باللذة التي يجدها أولئك المؤمنون التالون لكتاب الله آناء الليل وأطراف النهار.

«وَلَا تُثْلَوْنَ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى» وهذا أيضاً فيه إشارة إلى إيمانه بأن القرآن كلام الله وهذا سيأتي تفصيله؛ لأنَّه وحى مادام حروفه وحى من الله - عز وجل - إذا الله - عز وجل - هو الذي تكلم به حقيقة كلاماً يليق بجلاله وعظمته، فحروفه كلام الله والقرآن المتلوّ كلام الله، والقرآن الذي سمعه جبريل من الله كلام الله، والقرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كلام الله، والقرآن المكتوب في المصاحف كلام الله، والقرآن الذي يُتلى بالألسن كلام الله، والقرآن المحفوظ في الصدور كلام الله لفظه ومعانيه تكلم به بحرف وصوت سمعه منه جبريل عليه الصلاة والسلام، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

ثم قال: «وَلَا حَرْقَنَ بُنُورِهِ شَيْطَانِي»، البيت الذي يُتلى فيه القرآن تهرب منه الشياطين المردة وتبتعد عنه؛ لأنَّهم لا يرتاحون لذكر الله - جلَّ وعلا -، بيت تُتلى فيه

سورة البقرة لا يقربه الشَّيْطَانُ فهو يَعِدُ ويُعَاهِدُ اللهُ أَنْ يُحْرَقَ مُرَدَّةُ الشَّيَاطِينِ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَ الْعَمَلُ بِهِ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِهِ، فَتَأْمَلُوا هَذَا فَإِنَّهُ عَظِيمٌ فَإِنَّ الْقُرْآنَ خَيْرُ حَرْزٍ يُحْتَرَزُ بِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ تَعْلُقَهُ عَلَى جِسْمِكَ أَوْ فِي سَيَّارَتِكَ أَوْ تَزْخَرَفَ بِهِ بَيْتَكَ فِي حَيْطَانِ الْغُرْفِ، لَا يَا عَبْدَ اللَّهِ بَلْ هَذَا لَعِبٌ بِكِتَابِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ تَتْلُوهُ وَتَعْمَلَ بِهِ وَتَتَدَبَّرَهُ وَتَجْتَهِدَ فِي تَطْبِيقِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضَى اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِهَذَا يُحْرَقُ الشَّيَاطِينُ وَتَطْمَئِنُّ بِهِ النُّفُوسُ وَتَصْلَحُ بِهِ الْأَحْوَالُ وَيَقْوَى بِهِ الْإِيمَانُ وَيَزْدَادُ بِهِ الْيَقِينُ بِإِذْنِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- نَعَمْ.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ * وَوَصَفْتَهُ بِالْوَعْظِ وَالتَّبَيَّانِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ * وَوَصَفْتَهُ بِالْوَعْظِ وَالتَّبَيَّانِ»، هَذَا كَلَامٌ عَظِيمٌ وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ أَنْ أَشْرَحْتُ إِلَيْهِ قَبْلَ قَلِيلٍ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ قَالَهُ الرَّبُّ -جَلَّ وَعَلَا- بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، سَمِعَ هَذِهِ الْحُرُوفَ وَذَلِكَ الصَّوْتُ جَبْرِيلُ سَمَاعًا حَقِيقِيًّا مِنَ الرَّبِّ -جَلَّ وَعَلَا-؛ ثُمَّ نَزَلَ بِهِ وَأَلْقَاهُ وَدَرَّسَهُ وَعَلَّمَهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: «أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ» وَيُشِيرُ بِهَذَا إِلَى الرَّدِّ عَلَى بَعْضِ الطَّوَائِفِ الَّتِي تَنْكُرُ الْحَرْفَ وَالصَّوْتَ أَنْ يَقُولَهُ الرَّبُّ -جَلَّ وَعَلَا-؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ اللَّهُ كَمَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ سَمِعَهُ جَبْرِيلُ مِنَ الْهَوَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّ جَبْرِيلَ عَبَّرَ عَنِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ؛ فَقَالَ: الْقُرْآنُ عِبَارَةٌ عَنِ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ حِكَايَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ كَلَامًا حَقِيقِيًّا عِنْدَ تِلْكَ الطَّوَائِفِ الْمُنْحَرِفَةِ -تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا-؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: «أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ» وَكَلِمَةُ «قُلْتَ»؛ أَيُّ: تَكَلَّمْتُ بِهِ حَقِيقَةً لَا مَجَازًا؛ فَالْقُرْآنُ بِالْفَاظِ وَمَعَانِيهِ قَدْ تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ -جَلَّ وَعَلَا-.

«وَوَصَفْتَهُ بِالْوَعْظِ وَالتَّبَيَّانِ»؛ يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَفِيهِ بَيَانٌ لِلنَّاسِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس: 57] مَاذَا يَعْنِي بِذَلِكَ؟ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَقَالَ -تَبَارَكَ

وتعالى:- {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: 89]، وقال تبارك وتعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: 52]؛ ففيه بيان للتوحيد وبيان للحلال والحرام، وبيان لأحكام الله -جل وعلا- وبيان لحدود الله وتبيان لكل شيء، القرآن تبيان لكل شيء وموعظة للمؤمنين، "ونزل من القرآن ما هو شفاء للناس وموعظة للمؤمنين"²؛ فالقرآن موعظة لمن أراد الموعظة، ولمن أراد الخير، ولمن تدبّر وتأمل فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا فيه الهدى والنور، فيه كل شيء؛ فيه الأحكام العادلة والحدود الرادعة ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة والآداب السامية، فيه حياة القلوب؛ {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21] أنزله الله بالحق؛ {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء: 105].

فالقرآن موعظة وشفاء وتبيان لكل شيء ولذلك جعله الله -تبارك وتعالى- بهذه المثابة {لِيَذَّبُرُوا آيَاتِهِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [ص: 29].

من هنا وجب علينا تدبره وتأمله والوقوف عند حدوده والعمل بمقتضاه والاجتهاد في فهمه على وفق فهم سلفنا الصالح الذين نقلوا لنا هذا القرآن غصّاً طريّاً كما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم نعم تفضل.

[المتن]

«وَنَظَمَتْهُ بِبَلَاغَةٍ أَرْزَلِيَّةٍ * تَكْوِينُهَا يَخْفَى عَلَى الْأَذْهَانِ»

[الشرح]

«وَنَظَمَتْهُ بِبَلَاغَةٍ أَرْزَلِيَّةٍ * تَكْوِينُهَا يَخْفَى عَلَى الْأَذْهَانِ»، القرآن أنزله الله بلسان عربي مبين {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2] وجعل فيه من أسرار البيان والبلاغة ما لا يمكن أن يُحاط به، ولذلك فهو معجز بألفاظه ومعانيه وفصاحته وبيانه وبلاغته وأمثاله وما إلى ذلك مما يحتويه، لا يمكن لأحد أن يَكَيِّفَ تلك البلاغة أو أن يُحِيط بها أو أن يأتي بمثلها؛ لأنّه كلام الله وكلام الله لا نكيّفه، نؤمن به ونؤمن بأنّه من عند الله ولكن كسائر الصفات نكل علم كيفيته إلى الله -سبحانه وتعالى-.

والمقصود بخفاء الكيفية التي تخفى على الأذهان، المقصود الإدراك الكامل لمحتوياته وبالغته، وكيفية تكلم الله به هذا الأمر لا يمكن أن يحيط به أحد وإلاّ معناه واضح وليس فيه ألغاز ولا أحاجيج؛ بل هو واضح لأولي الأبواب أصحاب العقول النيرة التي لم تفسدها أدران الفلسفة [وأوضار] المنطق، ولم تفسدها شبهات أهل الكلام؛ فإنّها تفهمه وتدبره وتأمّله لكن لا يمكن أن تحيط بأسراره أو تكيف كيفية تكلم الله -تبارك وتعالى- به؛ لأنّ مردّد علم ذلك إلى الله -سبحانه وتعالى-؛ يعني يجب أن نفهم أنّ مراد الشيخ هنا ليس هو أنّ معاني القرآن تخفى عن الأذهان، وإنّما المراد التكييف الذي استأثر الله بعلمه من كيفية تكلم الله به إلى أن وصل إلينا غصّاً طريّاً هذا يخفى على الأذهان؛ أمّا معناه لمن تدبّر وتأمّل فهو واضح جليّ لا يحتاج إلى كبير عناء؛ بل هو واضح كل الوضوح لمن سلمت فطرته وعقله من زُبلات علم الكلام ومنطق الهند واليونان، نعم تفضّل.

[المتن]

«وَكُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْحَفِيفِ حُرُوفُهُ * مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي أَرْمَانٍ»

[الشرح]

«وَكُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْحَفِيفِ حُرُوفُهُ * مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي أَرْمَانٍ»، قال الله -سبحانه وتعالى-: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: 21-22].
كون الله -عزّ وجلّ- كتبه في اللوح المحفوظ لا يتعارض مع كونه تكلم به؛ فالله -عزّ وجلّ- يتكلم بما شاء، ويكتب ما أراد أيضاً في اللوح المحفوظ، وليس المراد أن الله خلقه في اللوح المحفوظ ثم نزل من اللوح المحفوظ على النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض الناس يتخذ هذا دليلاً على أنّ القرآن مخلوق {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: 21-22] وهذا فهم ساقط وفهم فاسد، الله -عزّ وجلّ- تكلم به وسطره في اللوح المحفوظ لا تعارض بين هذا وذاك؛ كما أنّه تكلم به وأمرنا بتسطيعه الآن في المصحف؛ فهل تسطيعه في المصحف الآن يغير كونه كلام الله -جلّ وعلا-؟ هل كونه مسطراً في المصحف يغير كونه كلام الله؟ لا إذ الكلام ينسب إلى من قاله ابتداء لا إلى من قرأه أو تلاه أو كتبه؛ ولذلك لا تعارض بين كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ وكونه كلام الرب -سبحانه وتعالى- الذي تكلم به حقيقة على الوجه الذي يرضيه، فالله تكلم به

وكتبه في اللوح المحفوظ وليس المراد أن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ لكن الله -عز وجل- كتب وكتب جميع الأشياء قبل خلق السماوات والأرض وعلمه -تبارك وتعالى- علم أنه سيتكلم به في وقت كذا وكذا؛ لأن الله -عز وجل- علمه أزلي أبدي لا يحدّ بابتداء ولا بانتهاء ولا يحيط أحدهم بشيء من علمه؛ فالله -تبارك وتعالى- تكلم به وكتبه باللوحة المحفوظ وأوحاه إلى جبريل وجبريل بلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أعد البيت.

الطالب:

«وَكُتِبَ فِي اللّٰوْحِ الْحَفِیْظِ حُرُوفُهُ * مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي اَزْمَانٍ»

الشيخ:

يعني: أنت مع كونه كلامك الذي تكلمت به؛ فقد كتبت حروفه في اللوح المحفوظ، وأوحيته إلى رسولك في الوقت الذي اقتضته حكمتك يارب، وإن كنت قد كتبه و علمته قبل خلق السماوات والأرض.

[المتن]

«فَاللّٰهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا * حَقًّا اِذَا مَا شَاءَ ذُوْ اِحْسَانٍ»

[الشرح]

هنا دخل في مسألة الكلام بشكل عام؛ فقال: «فَاللّٰهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا * حَقًّا اِذَا مَا شَاءَ ذُوْ اِحْسَانٍ»، الله -تبارك وتعالى- موصوف بصفة الكلام يتكلم متى شاء إذا شاء، وليس المراد بالأزلية هنا ما يجري على السنة بعض الخطباء تأثراً بعقيدة الأشعرية عندما يريدون أن يقرؤوا آية: "قال الله تعالى ولم يزل قائلاً عليماً"؛ يعني: كأنه يردد هذا الكلام إلى ما لا نهاية، لا ليس هذا المراد بالأزلية فالكلام صفة أزلية أبدية من حيث الأصل والقدرة على الكلام في كل وقت، وصفة فعلية حادثة من حيث وقوعه في وقت معين يشاءه الرب -سبحانه وتعالى-، ولذلك يقول أهل العلم: إنه قديم النوع حادث الآحاد أو الأفراد؛ معنى قديم النوع؛ أي: أن الله -عز وجل- من صفاته الذاتية الكلام فهو بهذا الاعتبار صفة ذاتية أي إنه قادر على الكلام في أي وقت يريد بهذا الاعتبار صفة الإيش؟ ذاتية، وحادث الأفراد أو الآحاد؛ بمعنى أنه مثلاً كلّم آدم في وقت معين، وكلّم موسى في وقت معين، وكلّم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في وقت معين، ويكلّم ما شاء من خلقه

في وقت يشاءه - سبحانه وتعالى-، تكلم بالقرآن، تكلم بالتوراة، تكلم بالإنجيل، تكلم بالزبور في أوقات أرادها - سبحانه وتعالى- فهو بهذا الاعتبار صفة فعلية اختيارية؛ أي: يتكلم بها الله - عز وجل - متى شاء إذا شاء كيف شاء، وباعتبار صفة الكلام التي هي صفته القادر عليها بلا ابتداء وبلا انتهاء هي صفة ذاتية هذه هي عقيدة السلف في مسألة الكلام؛ أن الله يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وليس المراد بقوله: «لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا» أنه يردد الكلام؛ فكأنه يقول: يا موسى يا موسى يا موسى إلى مالا نهاية! هذا لم يقل به إلا مجنون، وفعلاً قد قالت به بعض الطوائف.

فالمقصود الخلاصة يجب أن نفهم هنا أن الله - عز وجل - يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وسوف نتعرض في دروس قادمة بعد أن نُنهي بيان عقيدة السلف في مسألة الكلام؛ سنتطرق إلى بعض مذاهب الطوائف ولاسيما المعتزلة والأشعرية والماتريدية، ولن نتعرض لبقية الطوائف التي لها في الكلام أكثر من مائة قول.

[المتن]

«نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ * مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِلاَ كِتْمَانٍ»

[الشرح]

«نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ * مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِلاَ كِتْمَانٍ»، سبحانه الله {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} [النازعات: 15 - 18] إلى آخر الآيات من الذي نادى؟ رب العالمين، من المُنَادَى؟ موسى - عليه السلام-؛ قال الله - عز وجل -: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164] سبحانه الله هذه الآية فيها تأكيد على حقيقة الكلام من عدة وجوه:

أولاً: عبّر بالفعل "كَلَّمَ".

وثانياً: أكد بالفعل المؤكد لفعله؛ بقوله: {تَكْلِيمًا}.

وثالثاً: ذكر لفظ الجلالة بالرفع {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164]؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ما موقف المؤولة من مثل هذه الآية؟ لو أرادوا أن يحرفوا أي شيء لا يستطيعون تحريف هذه الآية بالذات؛ اللهم إلا بالتحريف اللفظي وهذا ما وقع

فيه بشر (...). عندما قال لأبي عمر بن العلاء -رحمه الله- أحد القراء: ما رأيك لو قرأنا وكَلَّمَ الله موسى تكليماً؛ بنصب لفظ الجلالة؛ فقال: "هب أني سلَّمتُ لك بهذه القراءة الفاسدة التي لا أصل لها؛ فما كنت تقول في قول الله -تبارك وتعالى-: {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}؟ [الأعراف: 143] فُبْهَتَ المعتزلي كيف؟ ما وجه بهتانه هنا؟ لأنَّ {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143] هنا الفعل قد أخذ مفعوله وهو الهاء الذي يعود على من؟ على موسى -عليه السلام-؛ ثمَّ قال: "رَبُّهُ"؛ هذا هو الفاعل قطعاً؛ ثمَّ أضافه إليه؛ أي: إلى موسى هذا لا يمكن بحال ولو بأيِّ شيء من التكلف، وكل كلامهم متكلف أن يحتمل التأويل بحال من الأحوال؛ فُبْهَتَ المعتزلي فالشيخ يُبين هنا أنَّ موسى -عليه السلام- سمع نداء الربِّ وموسى بالواد المقدَّس طوى؛ سمعه سماعاً حقيقياً ليس فيه تأويل ولا تحريف؛ {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ} [النازعات: 16] لا يحتمل التأويل بأيِّ حال من الأحوال؛ لذلك فإنَّ الأدلة واضحة في دمع عقيدة هؤلاء المعتزلة كما سيأتي تفصيله إن شاء الله، أعد البيت.

الطالب:

«نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ * مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِلاَ كِتْمَانٍ»

الشيخ:

«نَادَى بِصَوْتٍ» ولذلك ألف الإمام السجزي -رحمه الله- رسالة الحرف والصَّوت في الردِّ على من ينكر أن يكون الله -عزَّ وجلَّ- يتكلم بحرف وصوت، نادى عبده موسى نداءً حقيقياً سمعه بلا كتمان، سمعه سماعاً ظاهراً؛ فقال له: إني أنا الله، سبحانه الله! لما ينادي عبده ويقول له: إني أنا الله؛ ما موقف المتكلِّمين والمؤولة من مثل هذا؟! هل الشَّجرة قالت لموسى إني أنا الله؟! -تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً- هم يقولون كلاماً غريباً؛ قالوا: إنَّ الله خلق الكلام في الشجرة، ثمَّ القدر سمع هذا الكلام بعد أن خلق الذي هو جملة: "إني أنا الله" هذا دجل وتحريف؛ فلا أدري أين تذهب عقول بعض الجهابذة الذين وقعوا في هذا التأويل وهم من الذكاء بحيث لا ندري كيف تنطلي عليهم الشبه؟! لكن هنا قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، نسأل الله وإياكم الثبات، نعم.

*** ** **

الشريط العاشر

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:
«وَكَذًا يُنَادِي فِي الْقِيَامَةِ رَبُّنَا * جَهْرًا فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يقول - رحمه الله -: **«وَكَذًا يُنَادِي فِي الْقِيَامَةِ رَبُّنَا * جَهْرًا فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ»** المقصود أن الله - تبارك وتعالى - ينادي الخلائق يوم القيامة بعد أن يبعثهم ويحشرهم فيناديهم بصوت يسمعه الثقلان: الجن والإنس، ينادي - سبحانه وتعالى - الخلائق ويفصل بينهم ويحيي للفصل بينهم - كما سيأتي تفصيله -؛ فيناديهم؛ أي: يكلمهم كلاماً مباشراً ليس بينهم وبينه ترجمان، فيسمعون ويفهمونه؛ فيناديهم بصوت مسموع لا يخفى على أحد، وهذا دليل على إثبات كلام الرب - سبحانه وتعالى - وأنه يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وسوف يأتي مزيد من الأدلة على ذلك - إن شاء الله تعالى -، نعم.

[المتن]

«أَنْ يَا عِبَادِي أَنْصِتُوا لِي وَأَسْمَعُوا * قَوْلَ الْإِلَهِ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ»

[الشرح]

«أَنْ يَا عِبَادِي أَنْصِتُوا لِي وَأَسْمَعُوا * قَوْلَ الْإِلَهِ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ» ينادي عباده من الجن والإنس؛ فيسمعون جميعاً؛ أنا الملك أنا الديان، فيسمعون جميعاً عندما ينادي بهذا النداء العظيم ولا يفهم منه إلا النداء الحقيقي، إذ لا يمكن أن ينوب عنه أحد - سبحانه - ولا يمكن أن يتكلم عنه أحد - سبحانه -، ولا يمكن أن يكون هذا الكلام مجازاً بحال من الأحوال، ومن زعم ذلك؛ فهو يكذب ظاهر القرآن والسنة؛ حيث

جاء إثبات صفة الكلام والنداء والسَّماع، وسماع ذلك في كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فالكافرون يناديهم: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [القصص: 62]، والمؤمنون يناديهم ويسلم عليهم: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} [يس: 58]، ويناديهم: {أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأعراف: 46]، ويناديهم: أن يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت؛ ينادي الكفار: "ألم يأتكم رسل منكم فيحيون بيلي"؛ ينادي المؤمنين نداءً لطيفاً رحيماً رؤوفاً يدل على الرحمة والمحبة، وينادي الكفار نداءً تبكيت وتوبيخ وتقريع، وينادي الجميع أنه الملك الديان، وينادي الجميع يوم القيامة {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: 16]؛ فلم يجب أحد فيقول -سبحانه-: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]، أبعد هذا البيان نحتاج إلى أن نسمع نعيق المعتزلة والأشاعرة والمأثرية في تأويل صفة الكلام والنداء؟! فالحق أبلج واضح لكل ذي بصيرة، والباطل لجلج واضح الظلم واضح الفساد، نعم تفضل.

[المتن]

«هَذَا حَدِيثٌ نَبِيًّا عَنْ رَبِّهِ * صِدْقًا بَلَا كَذِبٍ وَلَا بُهْتَانٍ»

[الشرح]

«هَذَا حَدِيثٌ نَبِيًّا عَنْ رَبِّهِ * صِدْقًا بَلَا كَذِبٍ وَلَا بُهْتَانٍ» الحديث الذي أشرت إليه أو إلى طرف منه أنا الملك أنا الديان؛ ينادي عباده المؤمنين صدقاً صحيحاً ثابتاً في الصِّحاح والسُّنن والمسانيد، فإذا جاء نهر الله بطلَ نهر معقل، وتلك الأحاديث مؤيدة بالقرآن الذي ثبت فيه النداء يوم القيامة -كما سمعنا بعض الآيات قبل قليل-؛ فالنداء حقيقي دلَّ عليه الكتاب والسنة، ولا يمكن قبول تأويله بحال من الأحوال إذ أن التأويل تحريف للكلم عن مواضعه، وتغيير للدلول كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وما دلت عليه السنة النبوية المطهرة؛ لذلك فإن الذي ينبغي للمسلم هو الإيمان بذلك والإذعان به والتسليم أن الله -تبارك وتعالى- يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء بصوت وحرف مسموعين ولا يلزم من ذلك مشاهة المخلوقين؛ كما سيأتي مناقشة شبه المتكلمين والردُّ عليها -إن شاء الله- نعم.

[المتن]

«لَسْنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلَامِنَا * إِذْ لَيْسَ يُدْرِكُ وَصْفُهُ بَعِيَانٍ»

[الشرح]

«لَسْنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلَامِنَا * إِذْ لَيْسَ يُدْرِكُ وَصْفُهُ بَعِيَانٍ» مع إيماننا بأن الله يتكلم بصوت وحرف مسموع، وأنه كلم جبريل وكلم ملائكته وكلم موسى وكلم آدم وكلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويتكلم يوم القيامة وتكلم بالقرآن تكلم بالإنجيل تكلم بالزبور تكلم بالتوراة، مع إيماننا بهذه الأمور، وأن الله -عز وجل- يتكلم متى شاء إذا شاء فإنه يجب أن نعتقد؛ يقول المصنف: «لَسْنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلَامِنَا» ثبت له كلاماً يليق بجلاله وعظمته ليس ككلامنا، كلامنا محدود، وكلامه لا يقف عند حد، يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، كلامنا يعتريه المرض والخرس وكلامه بريء من ذلك، كلامنا له ابتداء وله انتهاء وقدرته على الكلام واتصافه بصفقتها بلا ابتداء وبلا انتهاء، كلامنا ينفذ وكلام الله -تبارك وتعالى- لا ينفذ؛ {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف : 109].

كلامنا يحتاج إلى تسخير آلات، ويحتاج إلى مجموعة عوامل؛ لهات ولسان ولعاب وفم وأسنان وحنجرة ومزامير وحبال صوتية وبلعوم وما إلى ذلك، والله -تبارك وتعالى- منزّه عن ذلك، كلامنا بجهد وتعب يتعبنا والله -عز وجل- لا يناله شيء من ذلك؛ ولذلك، فكما أن الله -عز وجل- لا يشبه أحد من خلقه؛ فكذلك صفاته ومنها صفة الكلام لا تشبه صفات المخلوقين، يجب أن نؤمن بذلك؛ ولذلك قال: "لا نشبه صوته بكلامنا".

و «إِذْ لَيْسَ يُدْرِكُ وَصْفُهُ بَعِيَانٍ»، قال الله -عز وجل-: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} [الأنعام : 103] وقال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة: 255] والمقصود أن صفات الرب -سبحانه وتعالى-؛ يُؤْمَنُ بها وهي حقيقية لكن لا ندرك كُنْهَهَا ولا كَيْفِيَّتَهَا؛ بل نَكِلُ علم ذلك إلى الله -عز وجل- مع إيماننا بأنه يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء؛ فإنه يجب علينا أن نَكِلَ علم كيفية التكلم إلى الرب -سبحانه وتعالى-، يجب أن نكل علم الكيفية إلى الله -عز وجل- في الكلام وفي غيره، وفرق بين أن تؤمن بالصفة وبين أن يدَّعي أحد إدراكها؛ فادعاء الإدراك باطل

والإيمان واجب، ولا يلزم من الإيمان بأن الله يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء لا يلزم من ذلك معرفة الكيفية؛ ففي هذا البيت: نفى أولاً: التشبيه، وثانياً: نفى التكيف؛ في الشطر الأول نفى أن يشبه كلام الرب كلام المخلوقين أو أن يشبه كلام المخلوقين كلام الرب - سبحانه وتعالى-، وفي الشطر الثاني نفى الإدراك والكيفية؛ فمع إيماننا بأنه يتكلم؛ فأنا نكل العلم بكيفية التكلم إلى رب العزة والجلال، فلو قال أحد: كيف يتكلم؟ قلنا له: كيف هو؟ فإن قال: لا يعلم كيف هو إلا هو؛ قلنا له: ولا يعلم كيف يتكلم إلا هو - سبحانه وتعالى- . نعم.

[المتن]

«لَا تَحْصُرُ الْأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ * * أَبَدًا وَلَا يَخْوِيهِ قُطْرُ مَكَانٍ»

[الشرح]

«لَا تَحْصُرُ الْأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ * * أَبَدًا وَلَا يَخْوِيهِ قُطْرُ مَكَانٍ»؛ أي: لا يمكن أن يتوهم أحد أنه يستطيع أن يفهم كيفية ذاته، فإذا جهل كيفية ذاته فمن باب أولى أن يجهل كيفية صفاته، وإذا آمننا بأن له ذاتاً لا تشبه الذوات؛ فلنؤمن بأن له صفات لا تشبه الصفات، علماً بأن لفظة الذات إنما يُتوسّع بها على سبيل الإخبار لا على سبيل الوصف؛ لأن الذات ما جاءت في حق الله إلا مضافة في حديث حُبيب، "وذلك في ذات الإله وإن يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزج"، في ذات الإله وهذا في الصحيحين؛ أي: في سبيل الله ومن أجل الله -هذا هو المعنى المراد-.

وثانياً: وردت في قصة إبراهيم قال: ((ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كُلُّهُنَّ في ذات الله)) والمقصود بالكذبات هنا المعارض عند الضرورة أو عند الحاجة، "في ذات الله"؛ أي: من أجل الله، إحداها - كما هو معلوم - قوله عن سارة: إنها أختي؛ ليتخلص من النمروود من الطاغية وهي أخته في الإسلام، والثانية: قوله: "بل فعله كبيرهم"، وهذا يقصد التهكم بهم، لا يقصد أن ينكر ما فعل بها ويسنده إلى كبيرهم؛ وإنما أراد أن يكتبهم وأن يُبين فضيحتهم، هم يعلمون أن كبيرهم لن يفعل؛ فلذلك قال لهم تهكمًا: "بل فعلها كبيرهم"، والثالثة قوله: "إني سقيم"؛ أي: مريض، وهو مريض مما يفعلون من الشرك، هذا

المراد، وهذه تسمى المعاريض، وهي تجوز عند الحاجة والضرورة؛ فهنا المقصود أنه لا يدرك أحد كيفية ذاته.

أعد البيت.

الطالب:

«لَا تَحْصُرُ الْأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ * أَبَدًا وَلَا يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانٍ»

الشيخ:

«لَا تَحْصُرُ الْأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ» لا يمكن أن يحيط أحد بذاته أو أن يدعي أنه يدرك كيفية ذاته، ومن ثم فهو لا يدرك كيفية صفاته.

«وَلَا يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانٍ»، هذا البيت أو هذا الشطر فيه شيء من الإجمال الذي يحتاج إلى توضيح، نعم هو لا يحويه قطر مكان، لا يحيط به أحد، ولا يحيط به أحد من خلقه، ولا يدركه أحد من خلقه، لا تحويه السماوات ولا تحويه الأرض، ولا يحويه العرش ولا يحتاج إلى العرش مع أنه مستو على عرشه؛ لكنه لا يحتاج إليه؛ بل العرش هو المفتقر إليه، وهو الذي يمسك العرش ويمسك السماوات ويمسك الأرض؛ فالله -عز وجل- لا يحيط به أحد لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا الشطر نفي العلو؛ لأن هناك عبارات فيها إجمال قد يكون لبعض أهل الكلام تأثير ببعض الألفاظ؛ كما وجدَ لفظ من الإمام الطحاوي -رحمه الله- في قوله: "ولا تحده الجهات"، نعم هي لا تحده بمفهوم أهل السنة والجماعة؛ أي: لا تحيط به ولكن لا يعني هذا أن تنكر الجهة أو ينكر المكان، وليس المكان ما قد يتبادر إلى الذهن من أنه مكان يحيط به أو يحده أو يحويه أو يحوزه أو يحيط به، لا يفهم هذا أحد من أهل السنة لكن أهل الكلام ثبتت عندهم هذه الألفاظ أو تتردد عندهم هذه الألفاظ، ويعنون بها إنكار ماذا؟ يعنون بها إنكار صفة العلو، وأما لو صدرت من مثل هذا السلفي السني الإمام القحطاني؛ فإنها لا تُحمل على مفهوم أهل الكلام وإنما تحمل على مفهوم أهل السنة والجماعة، وهو أنها مع اعتقادنا أن الله في العلو، وأنه فوق جميع خلقه مستو على عرشه عالٍ على جميع خلقه؛ فإنه لا يحويه مكان ولا يحيط به مكان ولا يحوزه مكان ولا يحده مكان، وليس معنى هذا إنكار المكان أي العلو؛ وإنما المقصود هنا بيان أن المكان لا يحيط به ولا يحده، والله -تبارك وتعالى- لا يحتاج إليه، فهنا؟ بل إن

العرش الذي هو أعظم المخلوقات والله قد استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته، لو شاء لذهب العرش وجميع المخلوقات ولا يتغير بشأن الله -تبارك وتعالى- شيء؛ لأن العرش هو المفتقر إليه كسائر المخلوقات؛ فالله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يمسك العرش ويمسك السماوات ويمسك الأرض، هو يحيط بخلقه ولا يحيط به شيء من خلقه، فهما هذا؟

يعني لا يفهم من كلام الشيخ هنا -رحمه الله- لا يفهم ما قد يستغله عند الشرح وفعلاً تجد بعض الشُّراح إذا شرحوا بعض كلام السلف، إذا وجدوا طريقاً للتحريف وفق أهوائهم يفعلون ذلك، رسالة ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله- إلى الآن لم تُشرح على منهج السلف مع أن الرسالة المقدمة أقصد؛ أعني المقدمة في العقيدة كلها على منهج السلف؛ لكن الشروح التي حصلت قديماً إلى ما قبل مائة عام كلها على غير منهج السلف وإن شاء الله بلغني أن فضيلة شيخنا الشيخ عبد المحسن -حفظه الله- العباد البدر سينتهي من شرحها قريباً، وتكون بذلك أول شرح سلفي يخرج برسالة ابن أبي زيد القيرواني؛ لكن هذه النونية -ولله الحمد- لم تُشرح حتى الآن، نونية القحطاني، وإلا لحرفت كما حرفت رسالة ابن أبي زيد، لم تُشرح من قَبْلِ أولئك المؤولة ولا غيرهم؛ فلذلك لا يفهم من هذا الشطر ما قد يستغله المؤولة والمعطلة من أن المقصود نفي العلو، من أن المقصود نفي العلو؛ وإنما المراد أن الله لا يحيط به أحد، ولا يحويه خلق ولا يحده خلق ولا يحيط به أحد من خلقه هذا المراد، نعم

[المتن]

«وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ * مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نِسْيَانٍ»

[الشرح]

هذا يوضح ما تقدم «وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ * مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نِسْيَانٍ» المقصود أن الله تعالى محيط بكل شيء، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً،

وقال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه : 110]

وقال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة : 255]

وقال تعالى: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} [البروج : 20]

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

وقال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: 108]
وقال تعالى: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} [البروج: 20]، وقال تعالى: {وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} [الكهف: 91].

إذاً الله -تبارك وتعالى- لا يحيط أحد بشيء من علمه، اقرأ البيت.

الطالب:

«وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ * مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نِسْيَانٍ»

الشيخ:

أي: لا يغفل -سبحانه وتعالى- ولا ينسى، لا يضل ربي ولا ينسى، وما ربك بغافل عما تعملون، وما الله بغافل عما يعملون؛ فهو -سبحانه وتعالى- محيط بكل شيء، لا يغيب عن علمه، مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ بل هو سبحانه عليم بكل شيء؛ {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: 40]، {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 8]، {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 28].

فعلم الله -تبارك وتعالى- لا يحيط به أحد ولا ينفذ ولا ينتهي؛ بل هو عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وما تحت الثرى، يعلم ديب النمل في الليلة المظلمة على صفات سوداء، يعلم السر وأخفى؛ {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16].

إذا كان مجرد الوسوسة والخواطر يعلمها؛ فما بالكم بما هو فوقها؟! فلذلك الله -عز وجل- لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: 59]

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22]

والآيات كثيرة في بيان صفة علم الله - سبحانه وتعالى -، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عَلِيمٌ} [يوسف: 76].

[المتن]

«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصَفَاتِهِ * وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوَّنُ الْأَكْوَانِ»

[الشرح]

«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصَفَاتِهِ * وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوَّنُ الْأَكْوَانِ»، من الذي يستطيع أن
يكيفه وقد استأثر الله بعلم الكيفية، كيفية ذاته وكيفية صفاته؛ إذاً من ادعى علم الكيفية،
من قال أن ذاته مثل كذا وكذا؛ كما تقوله المجسمة من الكرامية وغيرهم؛ وكما تقوله
المشبهة؛ يقولون: له يد شكلها كذا وكذا، وله جسم شكله كذا وكذا؛ فهذا كفر
ومروق من الدين، وادعاء لعلم ما لم يُعَلِّمْ، ولذلك قال: «مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصَفَاتِهِ»
نحن نجعل كيفية ذاته وكذلك كيفية صفاته، وفرق بين أن تؤمن بحقيقة ذاته وبين أن تؤمن
بحقيقة صفاته ومعانيها، وبين دعوى من يدعي العلم بكيفية ذاته؛ شتان بين الأمرين،

«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصَفَاتِهِ * وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوَّنُ الْأَكْوَانِ»

نقف وقفة عند كلمة القديم، كلمة القديم والذات والوجود وواجب الوجود وما
إلى ذلك ما كانت معروفة في الصدر الأول؛ لأن الناس كانوا على فطرتهم يؤمنون بالله
وبأسمائه وصفاته دون تكلف ودون تحريف ولا تعطيل؛ فلما جاءت المعتزلة وأهل الكلام
كالجهمية والمعتزلة؛ جعلوا القديم أخص أسماء الله - جلّ وعلا - والسلف ربما عبروا بذلك
بمجاراة لهم من أجل إلزامهم بالحجة من خلال ما يؤمنون به، وليس المراد أنهم يعتبرون
القديم من أسماء الله، والقديم عليه اعتراض حتى من جهة اللغة؛ لأن القديم هو الذي تقدم
غيره وإن كان حادثاً، ومنه قول الله - سبحانه وتعالى -: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس: 39].

وإن كان قد يقول قائل: إنه قد ورد لفظ القديم في وصف سلطان الله - جلّ وعلا -
في الحديث الذي يُحَسِّنُهُ بعض أهل العلم: ((أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه

القديم من الشيطان الرجيم))، وأفضل من ذلك وأسلم أن نعبر بدل كلمة القديم؛ بماذا؟ بالأول، {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3] وجاء تفسير ذلك في حديث مسلم: ((أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)) لذلك لا تستغربوا تعبير السلف أحياناً بالقديم في معرض المحاجة؛ وإلا فليس القديم من أسماء الله، وهو القديم؛ أي: هو الأول، ونحن نعبر بالأول، ولا ينبغي التعبير بلفظة القديم، وإن كان السلف قد يضطرون إلى ذلك أحياناً كما قلت وهم يردون على الفلاسفة والمتكلمين؛ فقد يذكرون القديم وواجب الوجود والذات والممكن، وما إلى ذلك من الألفاظ المنطقية في معرض المحاجة وفي معرض المجادلة؛ أما عندما يأتون إلى تقرير منهج السلف في أسماء الله وصفاته لا يمكن أن يعدوا لفظة القديم من أسماء الله.

مكون الأكوان؛ أي: خالق المخلوقات، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82]؛ أي: خالق جميع المخلوقات، الله خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: 62]

** **

موقع المكتبة الصوتية للشيخ:
صالح بن سعد السُّحَيْمي - حفظه الله -

www.alsoheemy.net

شرح نُونية القطاني

لفضيلة الشيخ الدكتور:

صالح بن سعد السُّحَيْمي

موجه الدعاة بفرع وزارة الشؤون الإسلامية
بالمدينة النبوية، والمُدرّس بالمسجد النبوي

الأشرطة العشرة الثانية

[الشريط الحادي عشر]

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله - في نونته:

«سُبْحَانَهُ مَلِكًا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .. وَحَوَى جَمِيعَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ»

[الشرح]

«سُبْحَانَهُ مَلِكًا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .. وَحَوَى جَمِيعَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ»

«سُبْحَانَهُ»؛ أي: أنزهك يا ربي؛ يعني ينزهه ربه عما لا يليق به، وكلمة "سبحان" تعني:

التنزيه، ولا يجوز أن تُقال لغير الله - سبحانه وتعالى -؛ لأنها تفيد التنزيه المطلق عن جميع النقائص والعيوب التي تعتري البشر وسائر المخلوقات.

فالمقصود أن التسبيح خاص بالله رب العالمين؛ ومن أضافه إلي غير الله فقد كفر؛ كما سيأتي في المثال الذي بينه الشيخ الناظم - رحمه الله - من قوله: "فليقلُ سبحاني" بعد قليل، وهذا أمر وقع فيه بعض المتصوفة؛ سيأتي له مزيد بيان إن شاء الله.

«سُبْحَانَهُ مَلِكًا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»:

الملك: اسم من أسماء الله - جل وعلا - قال الله - جل وعلا -: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}¹.

وقال - تبارك وتعالى -: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}²، وهناك قراءة صحيحة: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

وقال - تبارك وتعالى -: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}³ وقال - تبارك وتعالى -: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}⁴.

¹ [الحشر: ٢٣].

² [الفاحة: ٤].

والآيات في هذا الباب كثيرة، وقد يُسمى المخلوق ملكاً، ولكن ليس الملك كالمملك، فالمملك الديان ملكه كامل، لا ينضب ولا ينتهي، وليس له ابتداءً وليس له انتهاء، ومملك المخلوق له بداية ونهاية وهو محدود ومحصور وقليل ولا يعد شيئاً بالنسبة لمملك الله - سبحانه وتعالى -؛ فالله - تبارك وتعالى - هو المملك الديان كما يقول عن نفسه يوم القيامة.

«عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»؛ «سُبْحَانَهُ مَلِكًا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»:

العرش: أعظم المخلوقات؛ أعظمها على الإطلاق؛ وهو أكبرها وأولها خلقاً، أول المخلوقات وأكبرها وأعظمها، وليس العرش المملك كما تقول بعض الطوائف، وليس هو الكرسي كما تقوله طوائف أخرى؛ بل العرش سقف جميع المخلوقات وهو أعظمها وأكبرها وهو سرير المملك، ومع عظمه وكبره فإنه مخلوق من المخلوقات، والله - سبحانه وتعالى - لم يزد بخلق العرش شيئاً، ولم ينقص لو أراد إثباته بذلك شيئاً؛ لأن الله - عز وجل - له صفات الكمال ونعوت الجلال.

ومما يدل على أن العرش أعظم المخلوقات وأعظمها قول الله - سبحانه وتعالى -:

{ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ }^٥.

{ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ }^٦.

فالعرش عظيم بالنسبة لسائر المخلوقات، وما المخلوقات جميعاً بما فيها من سماوات وأرض في العرش إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة؛ قال تعالى: { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ }^٧ وقال تعالى: { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ }^٨.

وقال تعالى في وصف جبريل: { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ }^٩؛ أي: صاحب العرش وهو الله - سبحانه وتعالى -.

^٣ [آل عمران: ٢٦].

^٤ [المملك: ١].

^٥ [النوبة: ١٢٩].

^٦ [الزخرف: ٨٢].

^٧ [البروج: ١٥].

^٨ [غافر: ١٥].

وهو {الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ^{١٠}
{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} ^{١١}

هذه كلها أدلة على أن العرش مخلوق وأنه أعظم المخلوقات، وأنه ليس الكرسي وليس السماوات وليس الملك، ومما يدل على أنه خُلِقَ أولاً؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((كتب الله مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء))؛ أي: قبل ذلك، ولذلك ثمة نزاع أيهما خُلِقَ أولاً: العرش أم القلم؟ فهناك من يرى أن القلم هو أول المخلوقات؛ بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ))، وفي رواية: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ)) ^{١٢}، وفي رواية: ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ)) ^{١٣}.

والصواب: أن العرش هو أول المخلوقات؛ لقوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} ^{١٤}، ولأن العرش هو أعظم المخلوقات، ولأن هذا هو قول المحققين من أهل العلم. طيب، كيف نوجه "أول ما خلق الله القلم"؟ توجيهه واضح بحمد الله، وهو أن أول ظرف متعلق بقال؛ أي: قال له اكتب عندما خلقه؛ والمقصود حينما خلق الله القلم قال له: اكتب، وتأييده رواية: ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ)) ^{١٥}؛ فليس في هذا دليل على الأولوية وإنما دليل على الظرفية العندية؛ أي: عندما خلق الله القلم وحينما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب؛ قال: وماذا اكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة.

^٩ [التكوير: ٢٠].

^{١٠} [الرعد: ٢].

^{١١} [هود: ٧].

^{١٢} أخرجه أبو داود (٢٢٥/٤)، رقم (٤٧٠٠). وصححه الألباني.

^{١٣} أخرجه الطبراني (٦٨/١٢)، رقم (١٢٥٠٠). قال الهيثمي (١٩٠/٧): رجاله ثقات.

^{١٤} [هود: ٧].

^{١٥} أخرجه الطبراني (٦٨/١٢)، رقم (١٢٥٠٠). قال الهيثمي (١٩٠/٧): رجاله ثقات.

{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} ١٦.

وهذا نظائره كثيرة كما لو قلت لك: أول ما تصل إلي المكان الفلاني ابدأ بكذا، أول ما تقدمُ إلي المدينة النبوية ابدأ بالصلاة في المسجد النبوي؛ فأول هنا ظرف والمقصود أنها معمول لعامل قال، أول ما خلق الله القلم قال له اكتب؛ أي: قال له اكتب لما خلقه أو عندما خلقه أو حينما خلقه؛ فبهذا يزول الإشكال ويتضح أن أول مخلوق من المخلوقات وأعظمها هو ماذا؟ هو العرش.

وقوله: «عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»:

هذا نص آية أو جزء آية {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ١٧ جاء ذلك في سبعة مواضع من القرآن الكريم.

في سورة الأعراف، وفي سورة هود، وفي سورة الرعد، وفي سورة طه، وفي سورة السجدة، وفي سورة الفرقان، وفي سورة الحديد؛ كم موضع؟ سبعة مواضع في القرآن الكريم جاء فيها الاستواء، وهو [مُعَدًّا] بماذا؟ بحرف على الذي لا يفهم غير العلو والارتفاع والفوقية.

فأولاً: ذكر الفعل استوى.

وثانياً: عدّاه بحرف على الذي لا يفهم منه غير العلو.

وثالثاً: بَيَّنَّ أن الاستواء على العرش، ومعلوم لدى جميع العقلاء -فضلاً عن جميع

المسلمين - أن العرش هو أعلى المخلوقات حتى بعض الكفار يشهدون بهذا.

إذا الآيات نصٌ في استواء الله -تبارك وتعالى - على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته.

ومعنى استوى: فسرّها العلماء بأربع كلمات كلها متقاربة؛ علا وارتفع وصعد واستقر.

١٦ [هود: ٧].

١٧ [طه: ٢].

وإن كان هناك من ينازع في لفظة استقر، لكن لا ينبغي فيها نزاع؛ لأنها في معنى علا وارتفع وصعد، وليس المقصود الاستقرار الذي يلزم منه حاجة المستقر إلى ما استقر عليه؛ كما يفهمه أهل الكلام الذين أولوا هذه الصفة بسبب هذا التصور وهذا المفهوم الفاسد.

هذا هو معنى استوى، استوى بمعنى: علا وارتفع وصعد واستقر على العرش؛ أي: فوق العرش.

وهذا من أعظم أدلة علو الله على خلقه؛ لأن الجميع يعترف بأن العرش أعظم وأعلى المخلوقات، والله - تبارك وتعالى - قد استوى على عرشه؛ إذاً له الفوقية والعلو المطلق ذاتاً وقدرًا وقهرًا، وهذا سيأتي له مزيد بيان عند الكلام على صفة العلو مفصلةً إن شاء الله تعالى. والعجيب في الأمر؛ نشير إلى أمر مهم، وهو أن العلو هو أكثر الصفات أدلةً وهو أكثر الصفات حصل فيه النزاع بين الناس! وهذا بسبب الرجوع إلى غير المصادر الشرعية، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} ^{١٨}.

{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} ^{١٩} والاستواء علينا أن نثبتته وفق الخطوات التالية:

أولاً: ثبت حقيقة الاستواء وأن الله - عز وجل - متصفاً بهذه الصفة حقيقة لا مجازاً؛ لأنه هو الذي وصف بها نفسه، وليس هناك أعلم بما يجب لله من الله، وليس هناك أعلم بما يجب لله بعد الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهو الذي وصف نفسه؛ فلماذا هو يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ^{٢٠}، والبعض يقول: لا لم يستوي على عرشه؟!

لو تأملوا ما يلزم تفسيراتهم من معاني فاسدة؛ لوجدوا أنهم يكذبون القرآن من حيث لا يشعرون.

الخطوة الثانية: أنه استواء يليق بجلاله وعظمته.

^{١٨} [النساء: ٨٢].

^{١٩} [النساء: ٨٣].

^{٢٠} [طه: ٢].

الخطوة الثالثة: تنزيهه في هذا الاستواء عن مشابهة استواء المخلوقين على عروشهم أو على كراسيهم؛ يعني إثبات ذلك على وجه لا يشبه صفات المخلوقين.

الرابع: أن لا نحرف ولا نؤول هذا الاستواء؛ فلا نقول: استوى بمعنى استولى.

الخامس: ألا نعطل فلا ننفي حقيقة الاستواء.

السادس: ألا نكيف؛ فلا نقول: استوى على شكل كذا وكذا؛ لأن ذلك كله قد استأثر

الله بعلمه، ومن رام علمه فقد ادعى ما لا يمكن الوصول إليه.

ومن هنا قال السلف في باب الصفات في باب الاستواء وغيره: "أمروها كما جاءت بلا كيف".

نعيد الخطوات مرة أخرى:

أولاً: ثبت حقيقة الاستواء لله - عز وجل - لأنه هو الذي وصف بها نفسه.

ثانياً: نثبت استواءاً على ما يليق بجلاله وعظمته.

ثالثاً: نثبت على وجه لا يشبه صفات واستواء المخلوقين.

رابعاً: لا نحرفه ولا نؤوله؛ فلا نقول: استوى بمعنى استولى؛ كما تقول المعطلة والمؤولة.

خامساً: لا نعطله ولا نتوقف فيه؛ كما تذهب إلى ذلك الجهمية والمعتزلة.

سادساً: لا نكيفه، لا نقول استوى على شكل كذا وكذا؛ بل نثبت على الوجه اللائق

بجلال الله.

وهذه النقاط الستة هي المفهومة من نصوص الشريعة؛ كما فهمها الإمام مالك - رحمه

الله تعالى - عندما سأله أحد المبتدعة قائلاً: يا أبا عبد الله يقول الله - جل وعلا -: {الرَّحْمَنُ

عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؛ فكيف استوى؟

فأطرق الإمام مالك قليلاً حتى علته الرُّحَضَاءُ؛ يعني حتى تفصد من وجهه العرق لكثرة ما

غضب لله - عز وجل -، أو لقوة غضبه لله؛ فلما سُريَّ عنه قال: "الاستواء معلوم والكيف

مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة".

وقد رُويَ أيضاً موقوفاً على أم سلمة، ورُويَ مرفوعاً ولكن بسند لا يصح، وأثبت ما فيه أنه مرويٌّ عن الإمام مالك - رحمه الله تعالى - وهو حق يتفق مع مدلول النصوص الشرعية "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، وقد روي برواية أخرى كقوله: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، وهو في نفس المعنى الذي تقدم أو يؤدي المعنى نفسه.

وقد أفرد بعض السلف هذه الجملة ببحث خاص، وكذلك أفرد أخونا الشيخ الدكتور: عبد الرزاق البدر - حفظه الله - هذا الأثر عن مالك ببحث خاص مطبوع الآن؛ استقصى فيه رواياته وبيّن فيه مدلوله؛ فجزاه الله خيراً، وارجعوا إليه.

إذاً هذا القول العظيم عن الإمام مالك في الاستواء ينسحب على سائر الصفات، وفاتني أن أقول لكم: أن الإمام مالكاً أخرج هذا الرجل من مجلسه؛ قال: "وما أظنك إلا مبتدعاً فأخرج من مجلسنا"، طرده من مجلسه؛ لأنه مبتدع، والمبتدع إن شكّل خطراً في طرح الشبه يجب إبعاده من المجلس، وما أكثر الذين يطرحون الشبه في هذا الزمان، ويولّدون شبهة من شبهة، ويجب أن يعاملوا معاملة عمر - رضي الله عنه - لصبيغ العراقي؛ الذي بدأ يطرح بعض الشبه في القرآن فأُتي به إلي عمر؛ فأحضر الجريد الرطب وضربه حتى ترك ظهره وبرة؛ أي: نفش جلده من قوة الضرب، وضربه على رأسه حتى سال الدم من رأسه؛ لأنه صاحب بدعة وموقد فتنة، وهكذا يجب أن يُعامل مع أهل الفتن لكن من قبل ولاة الأمور لا من قبل سائر الناس؛ حتى أنه قال: "يا أمير المؤمنين إن كنت تريد قتلي فاقتلني، وإن كنت تريد شيئاً آخر فوالله لقد ذهب الذي كنت أجد في رأسي" كان رأسه خربان! كان يجد في رأسه الخرافة والبدعة، ومع ذلك أبعد عمر وأوصى أبا موسى الأشعري ألا يُجالس وألا يُقعد معه؛ حتى كتب أبو موسى أنه صلّحت حاله فعندها أذن بمجالسته، وهذا دليل على موقف السلف من المبتدعة وبخاصة من جعل البدعة أصلاً له يدور في فلكها.

أما من وقع في شيء من الأخطاء؛ فهذا له باب خاص ربما بعد غدٍ العصر نتكلم عنه بالتفصيل إن شاء الله بناءً على طلب بعض الإخوة.

إذاً هذا معنى مسألة الاستواء، طيب، والذين قالوا: إن معنى استوى استولى، أو قهر أو غلب؟ ما حكم هذا المعنى الذي ورثته الأشعرية والماتريدية عن الجهمية والمعتزلة؟
لأن كما تعلمون الأم هي الجهمية، أنجبت الجهمية بنتها وهي المعتزلة، المعتزلة فرخت فأنجبت أحفاداً، وعلى رأس أولئك الأحفاد الأشعرية والماتريدية، ومن سلك سبيلهم من السالمية والواقفة والمشبهة والكرامية وما إلي ذلك؛ كلهم يقول أو أغلبهم يقول: استوى بمعنى استولى؛ سبحان الله! وهل كان له مغالبٌ حتى استولى عليه؟!

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} ^{٢١}، هذا الذي يسمى دليل التمانع، لا يمكن أن يكون هناك مغالب له - سبحانه وتعالى - هو الملك الواحد الأحد الفرد الصمد؛ فكيف تقول استولى يا مسكين؟! استولى عليه من من؟! استولى على العرش بعد من؟! ومن من؟! وعلى اثر من؟! وعلى أنقاض من؟!

لذلك - سبحانه الله! - لا يوجد أناس أغبي ممن يفسر "استوى" بهذا التفسير، إنهم في منتهى الغباء والغفلة والسذاجة والهمجية؛ لأنه انتقل من معنى قوي لا تترتب عليه لوازم فاسدة إلي معنى كل لوازمه فاسدة! كيف؟

هم فهموا من "استوى" كما تستوي أنت على كرسيك - تعالى الله عما يقول الظالمون والمؤولة والمعطلة علواً كبيراً - هذا فهمهم؛ إذاً سبحان الله المعطلة، أو هم وقعوا في التشبيه قبل أن يلجئوا إلي التعطيل؛ لأنهم ما فهموا من صفات الرب - سبحانه وتعالى - إلا التشبيه فلما فهموا التشبيه؛ لجئوا إلي التعطيل، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

تعرفون قصة هذا المثل؟

معلش نحن هذا الموضوع نضطر أن نقف عنده طويلاً؛ لأن أكثر العالم الإسلامي اليوم على هذا المنهج وللأسف، يدرس في معاهد المسلمين وجامعاتهم إلا جامعات هذه البلاد - والله الحمد والمِنَّة - يدرس المنهج الأشعري؛ الذي يقول: استوى بمعنى استولى، أليس كذلك يا إخوان؟ هل أنا مخطئ في هذا؟ لا والله، كما تفضلتم.

^{٢١} [الأنبياء: ٢٢].

إذاً انظر إلى أم البراهين الكبرى وأم البراهين الصغرى والجوهرية وشروح الجوهرية والسنوسية و و و إلى آخره والمواقف للأيدي، كلها تنطق بهذا المنطق: استوى بمعنى استولى أو قهر أو غلب.

«والمستجير بعمره عند كربته .. كالمستجير من الرمضاء بالنار»

هل نحتاج أن نذكر لكم مورد هذا المثل ولا لا؟

أحد الطلبة: نحتاج. نعم.

الشيخ: طيب، لا بأس.

في حرب البسوس التي جرت بين بني بكر وبني تغلب بسبب عجز شمطاء أشعلت الفتنة بين القبيلتين، فدامت حرب البسوس بسبب عجز شمطاء وناقة جرباء، فاستمرت هذه الحرب أربعين سنة، قضت على الأخضر واليابس في الجاهلية طبعاً قبيل الإسلام.

فجاء جساس بن مرة البكري بسبب ناقة هذه العجوز، العجوز استنجدت به فذهب وطعن كليب بن مرة التغلبي وهم بني عمومة كلهم بني ربيعة، فطعنه بالرمح، فأخذ وروحه تقعقع؛ فمر عليه برجل، يُقال له: عمرو؛ فقال له كليب وهو في الرمح الأخير: يا عمرو أغثني بشربة ماء، فجاء عمرو وأجهز عليه؛ يعني أكمل البقية فقتله؛ فقال الشاعر: والمستجير بعمره عند كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار.

الرمضاء أثر حرارة الشمس في الأرض والنار تعرفونها، أيهما أعظم الرمضاء أم النار؟ النار أعظم، ليست هناك مقارنة بين الرمضاء والنار، فتمام فعل المعتزلة والجمهية والأشعرية والمأثرية في معنى استوى، وتفسيره باستولى تماماً كالمستجير من الرمضاء بالنار.

هم فهموا أن الاستواء هو استواء المخلوقين على كراسيهم! فلما فهموا هذا الفهم قالوا: ليس أمامنا إلا أن ننفي الاستواء؛ ثم جاءهم الشيطان قال لهم: لا النفي ما ينفع، لا بد من معنى، قالوا: إذاً استوى بمعنى استولى.

طيب مقابل أدلة القرآن والسنة في الاستواء، دليلهم ما هو؟

دليلهم بيت شعري مصنوع ليس له أصل!! بيت شعر مصنوع ليس له أصل! وهو ماذا؟

يقول الشاعر: «كما استوى بشرٌ على العراقِ .. من غير حربٍ ودمٍ مهراقٍ»
 بشر بن مروان أخو عبد الملك لما تولى العراق، قالوا فيه هذا البيت، ويبدو أن البيت لم يُقال في عهد بشر؛ لأن اللغة العربية ما زالت قوية، ولم يقل أحد أن استوى بمعنى استولى أبدًا؛
 فالبيت منتحل ومصنوع.
 "ومن يسويّ بأنف الناقة الذهبا!" والله المثل الأعلى، من يسويّ بآيات القرآن بيتًا من الشعر؟!

هذا يذكرني بأحدهم قبل سنتين، لما هيناهم عن تقبيل الحيطان التي على قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم والتمسح بها؛ انظر ماذا قال؟ قال: يا أخي تمنعوننا من تقبيل الحيطان المقدسة الأعتاب المقدسة، والشاعر يقول: "أقبل ذا الجدار وذا الجدار، وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا".

قلت له: يا مسكين، أهذه آية قرآنية؟! قال: لا، قلت: أهو حديث نبوي؟! قال: لا، قلت: أهو أثر سلفي؟! قال: لا

قلت: ما هو؟ قال الحاضرون: هو أبيات شعرية في امرأة يُتغزل بها!

أتقيس العبادة على الغزل يا مسكين؟!!

فقال هذا المسكين وهو يُجادل في هذه المسألة -وهذا الأمر جرى معي أنا- قال: بالله عليكم، أحدكم يقبل زوجته مئة مرة في اليوم ولا تجعلونا نقبل الأعتاب المقدسة!!

أرايتم إلى السذاجة التي وصل إليها الجهل في كثير من المسلمين؟! لا يشرع التقبيل لأي شيء بنية التعبد إلا تقبيل الحجر الأسود؛ تأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن زاد على ذلك فقد ابتدع، ومن (قات) عليه غيره فقد ابتدع، ولذلك حتى الحجر لا نقبله عبادةً له، لا نقبله عبادة له؛ لأنه لا يضر ولا ينفع، وإِثْمًا نقبله اقتداءً وتأسيًا وتيمُّنًا بفعل المصطفى صلى الله عليه وسلم، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} ٢٢

٢٢ [الأحزاب: ٢١].

ولذلك قال عمر -رضي الله عنه- كما روى الشيخان في صحيحيهما مقالته المشهورة عندما جاء يقبل الحجر الأسود -قال: "والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك".

سبحان الله! هناك في رواية ساقطة يوردها بعض الجهلة، وهو أن علياً -رضي الله عنه- اعترض على عمر؛ قال: بلى يا ابن الخطاب إنه يضر وينفع، وهي رواية لا تصح البتة أبداً؛ بل إن هذه الرواية فضلاً عن إنها ساقطة سنداً فإنها ساقطة متناً؛ لكونها تعارض القرآن الكريم والسنة النبوية اللذان يدلان على أن الضر والنفع بيد الله -سبحانه وتعالى- وحده؛ ولذلك ذمَّ الله المشركين؛ لأنهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم؛ فانتبهوا لهذا أيها الإخوة. نعود إلى قضية الاستواء، نحن نؤمن بها كما جاءت في كتاب ربنا -سبحانه وتعالى-؛ استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته، وهي دليل على علو الله على جميع خلقه.

الشرط الثاني؟ ايش؟

الليلة معلش ما شرحنا إلا بيت واحد نظراً لأهميته وكونه في أمر كثر فيه الخلاف والنزاع. نعم.

[المتن]

«وَحَوَى جَمِيعَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ»

[الشرح]

«وَحَوَى جَمِيعَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ»

{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} ^{٢٣}، الله -تبارك وتعالى- سلطانه محيطٌ بكل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، وهو -سبحانه وتعالى- يحيط بجميع المخلوقات قدرةً وعلمًا وسلطانًا وقوةً وجبروتًا وعلمًا، ليس المقصود أن نقول: والله بكل شيء محيط؛ أن الله ظرفٌ للمخلوقات، -

^{٢٣} [البروج: ٢٠].

أستغفر الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، وإنما المقصود إحاطة العلم والقدرة والسلطان والقهر والعظمة وكل ذلك لله -عز وجل-، {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} ٢٤.

{وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} ٢٥ {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا} ٢٦

فالله -عز وجل- يحيط بكل شيء، ولا يُحاط به، لا يُحاط به علماً ولا قدرةً ولا سمعاً ولا بصرًا ولا إدراكًا؛ فهو يُرى ولا يُحاط به، ويُبصر؛ يبصره المؤمنون يوم القيامة -كما سيأتينا تفصيله- ولا يُحاط به، ولا يُدرك -سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والمؤولون علواً كبيراً-

«

٢٧

ليس المقصود الأفضلية؛ فلا أدري كيف فهمَ هذا اللبس، المقصود أكبرها، أكبر المخلوقات؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الصحيح، سيد ولد آدم، سيد الأولين والآخرين عليه الصلاة والسلام، فلا يتعارض هذا مع ذاك طيب البعير أكبر من الرسول صلى الله عليه وسلم هل معنى هذا أن فيه مفاضلة؟ ليست هناك مفاضلة، نحن عندما نقول: أعظم وأكبر بالنسبة للعرش، هو أعظمها حجماً وكبراً وشكلاً وموضوعاً هذا هو المقصود، ولا يفهم هذا الفهم العجيب!

٢٤ [البروج: ٢٠].

٢٥ [النساء: ١٠٨].

٢٦ [النساء: ١٢٦].

٢٧ من هنا حدث تغاير في الصوت وبدأ كلام الشيخ من نقطة جديدة لا نعلم ما قبلها! ولعلها كانت في ضمن رده على بعض الاستفهامات أو التساؤلات.

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله - في نونيته:

«وَكَلَامُهُ الْقُرْآنُ أَنْزَلَ آيَهُ .. وَحْيًا عَلَى الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ»

[الشرح]

الشيخ - رحمه الله - يستطرد؛ فقد يذكر صفةً أو مسألةً عقدية عرضاً ثم يعود إلى ما كان يتكلم عنه قبل ذلك؛ ومن ذلك: أنه بعد أن ذكر الاستواء وإحاطة الله - تبارك وتعالى - بكل شيء؛ عاد مرة أخرى إلى بيان أن القرآن كلام الله - عز وجل -؛ فقال - رحمه الله -:

«وَكَلَامُهُ الْقُرْآنُ أَنْزَلَ آيَهُ .. وَحْيًا عَلَى الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ»

«كَلَامُهُ»: كلام الرب - سبحانه وتعالى -.

«الْقُرْآنُ»: القرآن كلام الله، وقد قدمنا الأدلة على ذلك، والتي من أشهرها وأوضحها قول الله - سبحانه وتعالى -: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} ^{٢٨}.

فالمقصود بكلام الله هنا ما هو؟ القرآن الكريم، وقد تقدمت الأدلة الكثيرة في بيان أن القرآن كلام الله.

«أَنْزَلَ آيَهُ»: أنزله - سبحانه وتعالى - حيث تلقاه جبريل مباشرة عن الله؛ سمعه منه مباشرة؛ ثم نقله جبريل بصدق وأمانة وإخلاص إلى أن بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرسول صلى الله عليه وسلم بلغه للصحابة، والصحابة بلغوه إلى من بعدهم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ^{٢٩}.

^{٢٨} [التوبة: ٦].

^{٢٩} [الحجر: ٩].

«وَحْيًا»: القرآن وحي، كذلك السنة وحي؛ قال الله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ^{٣٠}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)) ^{٣١}.

«وَحْيًا»: -أنزله وحيًا- عَلَى الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانَ:

الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانَ: هو النبي صلى الله عليه وسلم، والمقصود بعدنان: هو جد العرب العدنانيين، وهو من ذرية إسماعيل -عليه السلام- ابن إبراهيم -عليهما السلام-؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم ينتهي نسبه إلى عدنان إلى إسماعيل إلى إبراهيم الخليل -عليه السلام-؛ ولذلك قال: "المبعوث"؛ أي: الذي اختاره الله وبعثه وأرسل إليه وميزه بالرسالة من بني عدنان وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يُعرف أن أحداً من بني عدنان قد أرسل قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. نعم، تفضل.

[المتن]

«صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ خَيْرَ صَلَاتِهِ * مَا لَاحَ فِي فَلَكَيْهِمَا الْقَمَرَانِ»

[الشرح]

«صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ خَيْرَ صَلَاتِهِ * مَا لَاحَ فِي فَلَكَيْهِمَا الْقَمَرَانِ»

في ضمن الدعاء ينبغي للمسلم أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً وانتهاءً، أو على الأقل في الابتداء أو الانتهاء، وإن حصل في الابتداء والانتهاء؛ فهذا حسن. والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم القرب التي تقرب إلى الله -عز وجل- ولذلك كانت ركناً في الصلاة، لا تصح الصلاة بدونها، فلو أن مصلياً وقف على الشهادتين ولم يذكر الصلاة الإبراهيمية؛ هل تصح صلاته؟ لا تصح؛ لأن الصلاة الإبراهيمية الذي عليه

^{٣٠} [النجم: ٣-٤].

^{٣١} رواه أحمد، وصححه الألباني في المشكاة: (١٦٣ و ٤٢٤٧).

التحقيق من أقوال أهل العلم ركنٌ من أركان الصلاة، ركنٌ من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا بها.

وقد أمرنا نحن المسلمين أن نُكثِرَ من الصلاة والسلام عليه؛ قال الله - عز وجل -: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} ^{٣٢}

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: ((من صلى عليّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه بها عشراً))، وسننبه بعد شرح البيت على بعض المخالفات فيما يتعلق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والمهم أن نعلم الحكم وهو أن الصلاة عليه والسلام واجبة، ولذلك جاء في الحديث: ((رَغِمَ أَنْفُ امرئٍ ذُكِرَتْ عنده فلم يصلِّ عليك؛ قل: آمين؛ فقلت: آمين))؛ فالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا بد منها، وبخاصة كلما ذُكِرَ وسُمِعَ ذكره عليه الصلاة والسلام.

وسنبيّن بعض أخطاء الكتّاب المعاصرين في هذا الباب.

وقوله: «خَيْرَ صَلَاتِهِ»؛ أي: أفضل صلاة.

«صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ»: أي: بارك فيه وأثنى عليه.

«خَيْرَ صَلَاتِهِ»: أفضل صلاة؛ فالصلاة من الله - عز وجل - على رسوله صلى الله عليه وسلم والملائكة والمؤمنون؛ ولذلك {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} ^{٣٣}، وأيضاً المؤمنون يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكر أن الله يصلي عليه ويسلم ولذلك أمرنا نحن عباد الله المؤمنين أن نصلي ونسلم عليه، وأن نُكثِرَ من ذلك، أن نُكثِرَ من ذلك وبخاصة عندما نبدأ خطبةً أو موعظةً أو دعاءً أو درساً أو نحو ذلك، نُكثِرَ من الصلاة والسلام عليه ولا سيما في بداية الحديث وفي نهايته، وكلما جاء ذكره عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «مَا لَاحَ فِي فَلَكَيْهِمَا الْقَمَرَانِ»:

^{٣٢} [الأحزاب: ٥٦].

^{٣٣} [الأحزاب: ٥٦].

أي: بعدد طلوع الشمس والقمر طيلة الحياة الدنيا؛ يعني آلاف السنين، وملايين الأيام؛
يعني: صلاة دائمة على مر العصور والأزمان، هذا المقصود بـ: «مَا لَاحَ فِي فَلَكَيْهِمَا
الْقَمَرَانِ».

والمقصود بالقمرين: -الفلك معروف ما تدور فيه هذه الكواكب-، والقمران: يُعني بهما
الشمس والقمر؛ فقد يُطلق لفظ القمرين ويُعني بهما الشمس والقمر؛ كما يُطلق لفظ
"العُمرين" ويُعني بهما من؟ يُعني بهما أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما وأرضاها وأخزي الله
من أبغضهما وقلاههما- يُقال لهما العُمران.

أبو بكر وعمر اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردد اسميهما على لسانه؛
يقول جئت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر
-رضي الله عنه وأرضاها-؛ ولذلك أكرمهما الله بجواره عليه الصلاة والسلام حتى بعد وفاتهما؛
فهما خير هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم، ومن طعن فيهما فهو يطعن في الإسلام
كله، ومن تنقصهما فهو يتنقص الدين، ومن اعتقد ارتدادهما فهو المرتد والكافر، رضي الله
عن الصحابة أجمعين، وعن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي خاصة، وسائر الصحاب.

والمقصود هنا أنه يُكثر أو يُبين أهمية الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله
عليه وسلم، وقد سمعنا الآية {صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}؛ أي: أكثرُوا من الصلاة والسلام
عليه، ويتأكد هذا أكثر في يوم الجمعة؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن من أفضل
أيامكم يوم الجمعة، فيها خُلِقَ آدم وفيها أُهْبِطَ من الجنة، وفيها تقوم الساعة؛ فأكثرُوا عليَّ
من الصلاة في يوم الجمعة))^{٣٤}.

فحكم الصلاة والسلام عليه واجبة، وفي الصلاة ركنٌ لا تصح الصلاة بدون ذلك،
وأفضل صيغة للصلاة والسلام عليه؛ هي الصلاة التي شرعت لنا في التشهد: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى
مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ،

^{٣٤} أخرجه أحمد (٨/٤، رقم ١٦٢٠٧)، وأبو داود (٢٧٥/١، رقم ١٠٤٧)، وصححه الألباني.

وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ
إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ".

وتختصر في جملة واحدة وهي كلمة: "صلى الله عليه وسلم"، وهي ما استخدمها الصحابة عندما يروون أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فقد رووا آلاف الأحاديث يقول في بدايتها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلي آخره؛ فهي تختصر في كلمة "صلى الله عليه وسلم"، وأوفي صيغة هي صيغة الصلاة الإبراهيمية.

بقي أن ننبه على أخطاء تتعلق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ من تلك الأخطاء:

ما ابتلي به الصحفيون والكتاب المعاصرون؛ عندما يكتبون مقالات تشتمل على أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم يخلون حتى بالخبر وبالورق؛ فيكتبون حرف الصاد! وهذا بخل -والعياذ بالله-، جملة ما تأخذ نصف سطر، تبخل بها؟! تخشى أن ينفذ الخبر من عندك؟! وأن تشتري حبراً بداله، فلا تكتبوا الصاد إخواني وإنما اكتبوا هذه الجملة كاملة "صلى الله عليه وسلم".

وقد يكتب بعضهم (صلعم) (ص ل ع م) وهذا خطأ، خطأ كبير، يا أخي قل: "صلى الله عليه وسلم" لا تكن بخيلاً؛ هذا أحد الأخطاء.

الخطأ الثاني:

أنه أيضاً قد كثر بين الكتاب المعاصرين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مجرداً عن وصف النبوة أو الرسالة؛ فيقولون: "فعل محمد، وقال محمد، وعبقريّة محمد، وهذا شأن محمد، وفضل محمد" وما إلي ذلك، ولا يذكرون الصلاة والسلام عليه، وهذا أيضاً من البخل، لا بد أن يُذكر مقروناً بوصف الرسالة، ثم يُصلى ويسلم عليه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يُذكر

اسم النبي صلى الله عليه وسلم مجرداً في القرآن، وقد ذكر باسمه أربع مرات كلها مقرونة بوصف الرسالة.

{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} ^{٣٥} {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ^{٣٦}.
{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} ^{٣٧}.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} ^{٣٨}؛ هذه الوحيدة التي ذكرت مجردة عن وصف الرسالة؛ لكن في الكلام ما يدل على وصف الرسالة، أما بقية الآيات فهي مخاطبة بوصف الرسالة فقط، وهذا فيه تعظيم له {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}، إلى آخر الآيات الكثيرة التي دائماً تذكره بوصف النبوة والرسالة أو هما معاً.

فعندما نكتب مقالات لا نكتب اسمه مجرداً إنما نقرنه بوصف الرسالة، ونضيف إلى ذلك الصلاة والسلام عليه، عليه الصلاة والسلام.

التنبيه الثالث:

يتعلق بالصيغة؛ هناك دعوى خبيثة أن صيغة قد وُجِدَتْ وأحدثها أحد المتصوفة الطواغيت الذين هم من أكبر عملاء فرنسا في ذلك التاريخ، وسماها صلاة "الفتاح"، وزعم أنه أُوحيَ إليه بها من قِبَلِ الله، ولم تأتِ بواسطة جبريل -عليه السلام-! يعني تلقاها من الله مباشرة -تعالى الله عما يقول المشركون والمبتدعة علواً كبيراً-، وليته وقف عند هذا الحد، صلاة الفتح أعرفُ طرفاً منها؛ "اللهم صلّ وسلم على محمد الفتح لما أُغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراط مستقيم" قد يكون بعض الكلمات فيها حق من حيث الأوصاف؛ ولكن

^{٣٥} [الأحزاب: ٤٠].

^{٣٦} [الفتح: ٢٩].

^{٣٧} [آل عمران: ١٤٤].

^{٣٨} [محمد: ٢].

مع ذلك فإنه ورد في بعض رواياتها لفظة: "الأسقم"، وزعموا أن الأسقم يعني المستقيم، والأسقم هو المريض، المهم بغض النظر عن نوع الصيغة فإنها باطلة من وجوه:

الوجه الأول: دعوى أنها أنزلت مباشرة من الله على ذلك الطاغوت؛ فهذا باطل؛ لأن الوحي لم ينزل بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ "لا نبي بعدي"؛ اللهم إلا أدعياء النبوة أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنزي ومن نهج نهجه من الدجالين، وما أكثر الدجالين الذين شابهوا مسيلمة، وعلى رأسهم بعض طغاة المتصوفة الذين يدعون علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ فهذه التي تسمى صلاة الفاتح، ما أدري الماتح! هذه باطلة، ولم تُتلقى من الوحي، وإنما تُلقيت من شخص مشرك يدّعي أنه هو الإله، ويقول في بعض ألفاظه: "ومن رأيي ومن رأي من رأي دخل الجنة بلا بهتان!!"

الرسول صلى الله عليه وسلم رآه من رآه ولم يدخل الجنة، رآه أبو جهل أليس كذلك؟ ورآه أبو لهب، ورآه أبو طالب، ورآه عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ورآه أبي بن خلف، ورآه أمية بن خلف، ورآه كل الطواغيت؛ فهل دخلوا الجنة لأنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم؟ ها؟ أنتم معي؟ هل دخلوا الجنة لأنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم؟ حاشا لله؛ إنهم من أهل النار، أبو لهب وأبو جهل وأبي بن خلف إلي آخره والوليد بن المغيرة وغيرهم، يأتينا طاغوت بعد ألف ومائتين سنة؛ فيقول: "ومن رأيي ومن رأي من رأي يدخل الجنة بلا بهتان؟!"

ونجد بعض المسلمين يقرون هذا -مساكين- ويدرسون هذا في كتبهم ومعاهدهم الآن! هذا الذي أقوله فيه مبالغة وإلا واقع يا إخوان؟ واقع، وهو مما فرق كلمة المسلمين، تلك الطرق المتصوفة البغيضة المُجانبَة لمنهج أهل السنة والجماعة هي التي فرقت المسلمين وجعلتهم شيعًا وأحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون مما أطمع فيهم أعدائهم.

إذا صلاة الفاتح وحي ولا كلام فارغ؟ كلام لا قيمة له.

لا واسمعوا الطامة الأخرى؛ يقول هذا الطاغية -وأنا لا أريد ذكر اسمه هنا- يقول: "إن من قرأ صلاة الفاتح مرة واحدة فكأنما قرأ القرآن ستمائة ألف مرة، وكل مرة تعدل أربعمائة

غزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكل غزوة بألف زوجة من الحور العين". يعني الذي يقرأ صلاة الفاتح يأخذ كم واحدة من الحور العين؟ ملايين! عملية حسابية لا يمكننا الآن حسابها، ملايين يأخذ؛ فنسأل الله العافية والسلامة من هذا الهراء، الدجل والسفه، وهذا يردده المسلمون، والله يا إخواني في بعض البلاد الإسلامية التي زرتها أنهم يتغنون بما يسمى بصلاة الفاتح الماتح هذه كما يتغنون بالقرآن! بل اسمعوا ما هو أعظم؛ لقيني شاب في بلد ما من بلاد المسلمين؛ فقلت له: لعلك تحفظ القرآن؟ فقال: لا؛ فقلت له: لماذا؟ قال: لأن الشيوخ يقولون لا تحتاجون إلى حفظ القرآن لأن القرآن يُحرق ولا تتحملونه، وإنما تكفيكم صلاة الفاتح! فيه دجل أكثر من هذا؟ القرآن الذي من قرأ حرفاً واحداً منه له عشر حسنات؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ))^{٣٩}.

إذاً هذه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي تسمى صلاة الفاتح أو الماتح لا تصح.

التنبيه الرابع:

التنبيه الرابع أن بعض الناس يصلون عليه وهم في الصلاة إذا سمعوا تلاوة القرآن وهم يصلون وهذا لم يرد، يعني حتى لو قرأت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦] إن كنت خارج الصلاة فصلِّ وسلم عليه، إما إن سمعته وأنت في الصلاة لا تزد في الصلاة شيئاً، الصلاة لا يزد فيها ولا يُنقص. فهما؟

التنبيه الخامس:

بعض الناس في التشهد في الصلاة الإبراهيمية يقول: "اللهم صل على سيدنا ومحمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم" إلى آخره السؤال هنا: هل هذه الصياغة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم؟ أحد الطلبة: لا

^{٣٩} أخرجه البخاري في "التاريخ" (٦٧٩/٢١٦/١).

الشيخ: هو سيدنا عليه الصلاة والسلام وقائدنا وإمامنا وحبينا وسيدنا وسيد الأولين والآخرين عليه الصلاة والسلام، أكثر من الصلاة والسلام عليه؛ ولكن العبادات ما نزيد فيها يا عباد الله، العبادات ما نزيد فيها شيئاً انتبه.

أنا أسألك سؤال: لو أن واحد يتلو القرآن؛ فقال: "سيدنا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم" تقرأه على هذه القراءة؟ أم أنه أدخل في القرآن ما ليس منه؟ أحد الطلبة: أدخل فيه

الشيخ: أنا عندما أقول هذا الكلام هل اعترض على كونه سيدنا؟ لا تفهموني خطأ؛ لأنه أحياناً "وكم من عائب قولاً صحيحاً * وآفته من الفهم السقيم"؛ يقول لك: والله هؤلاء مشايخ المسجد النبوي لا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم بدليل أنهم لا يقولون اللهم صل على سيدنا محمد في التشهد! سبحان الله!

من لم يحب النبي صلى الله عليه وسلم مسلم ولا كافر؟ كافر؛ فإذا اهتمتني أنني لا أحبه أنت كفرتني؛ لأن من أبغض النبي صلى الله عليه وسلم ليس بمسلم حتى لو صلى وصام وعمل جميع الطاعات، إذا كان لا يحب النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل يجب أن يحبه فوق محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة يا عبد الله؛ لكن هذا لا يجعلنا نزيد في هديه ما لم يأمر به عليه الصلاة والسلام؛ فلا نقول في التشهد: "اللهم صل على سيدنا محمد"، وإنما نقول: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت..". كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ هل نحن ننكر سيادته؟ حاشا لله؛ بل يجب أن نعتقد أنه سيد ولد آدم؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرٌ))^{٤٠} سيد الأولين والآخرين، أول من يفتح باب الجنة، أول من تنشق عنه الأرض، أول شافع وأول مُشَفِّع، اللهم لا تحرمننا وإياكم من شفاعته، نسأل الله أن يرزقنا شفاعته.

^{٤٠} رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه. وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١٤٦٨.

بس انتبهوا يا إخوان لا تقول: الشفاعة يا رسول الله، الآن بعد وفاته؛ وإنما قل: "اللهم ارزقني شفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم" ما تأتي عند القبر وتطلب منه الشفاعة؛ هذه بدعة؛ بل إنها شفاعة شركية هي التي كانت تفعلها الجاهلية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، اللهم ارزقنا شفاعة نبيك، اللهم اشمنا بشفاعة نبيك، اللهم لا تحرمنا من شفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم.

فإذاً يا إخواني لا نزيد في الألفاظ الشرعية التوقيفية، لا نزيد فيها ولا ننقص؛ بل نؤديها كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: ((صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي))^{٤١}، وعندما صلى ما قال اللهم صلّ على سيدنا محمد، مع أنه سيدنا؛ لكن قال: "اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد..".

واحد مرة جادلني في هذه المسألة وقال: هو لأنه يتحدث عن نفسه فما يقول: اللهم صلّ على سيدنا محمد في التشهد!

قلت: إذا الصحابة ومن جاء بعدهم الذين نقلوا هذه الصيغة ترى أنهم كلهم على ضلالة وأنت على حق؟!

فانتبهوا إخواني، انتبهوا.

أيضاً: المخالفة السادسة:

في مسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنها تحولت عند بعض المسلمين إلى أغاني؛ أليس كذلك؟ إذا انصرف من الصلاة، سلم الإمام؛ بدلاً من أن يذكر الأذكار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصلوات بدلاً من هذا؛ "اللهم صلّ وسلم على..". إلي آخره، وتحولت إلى أهازيج، والناس ألفوها طرباً، ما ألفوها محبة للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وإنما أثر فيهم الصوت، أثر فيهم الصوت فقط؛ يعني بدلاً من أن يستغفر الله ثلاثاً، ثم يقول: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام

^{٤١} رواه البخاري ومسلم.

إلى آخر الذكر المعروف، بدلاً من هذا يغنون بأصوات وألحان زينها لهم إبليس، ولقد سمعت في بعض مساجد المسلمين أن تلك الأهازيج مصحوبة بالدف والطبول والمزامير! يعني حشفاً وسوء كيلة، بدعة في الطريقة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وزيادةً على هذا تصحبها المعازف والموسيقى والطبول والزمور، وهذا من جهل المسلمين بدينهم فتبنوها يا إخواني، تنبها والتزموا السنة؛ فالخير كل الخير في اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم والتزام سنته واتباع هديه؛ فلا تتحول الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلى أغاني ولا إلى أهازيج ولا إلى طقوس ولا إلى أناشيد.

[المتن]

قال الإمام القحطاني رحمه الله تعالى في نونيته:

«هُوَ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ الَّذِي .. لَا تَعْتَرِيهِ نَوَائِبُ الْحَدَثَانِ»

[الشيخ]

"هُوَ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ الَّذِي .. لَا تَعْتَرِيهِ نَوَائِبُ الْحَدَثَانِ"

اقرأ البيت الذي قبله.

[الطالب]

«صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ خَيْرَ صَلَاتِهِ .. مَا لَاحَ فِي فَلَكَيْهِمَا الْقَمَرَانِ»

[الشيخ]

هنا يذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تحدثنا عنها تفصيلاً، والمقصود بالقمرين هنا: الشمس والقمر؛ فإنه يُقال: القمران؛ كما يُقال لأبي بكر وعمر: العمران، وكما يُقال في المغرب والعشاء: العشاءين، وهكذا، وهذا أمر سائع لغة؛ ثم أخبر أن هذا القرآن العظيم جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله؛ حيث سمعه النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل -عليه السلام-، وجبريل سمعه من الله مباشرة.

اقرأ البيت مرة أخرى.

[الطالب]

«هُوَ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ الَّذِي .. لَا تَعْتَرِيهِ نَوَائِبُ الْحَدَثَانِ»

[الشيخ]

يعني النبي صلى الله عليه وسلم يخبر أنه جاء بالقرآن، وقد جاء بالقرآن من عند الله؛ حيث نزل به الروح الأمين جبريل -عليه السلام- على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم كما أنزل، وقد تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ^{٤٢}؛ فلقد تكفل الله بحفظ كتابه؛ كما تكفل بحفظ سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأتهما وحي من الله؛ فالقرآن وحي، والسنة الصحيحة وحي {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} ^{٤٣} فالقرآن كلام الله الذي جاء به من عند الله بواسطة جبريل -عليه السلام- الذي أوحاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكل صدق وأمانة، حيث تلقاه جبريل عن الله، ولا يُقال إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ؛ كما هو موجود في بعض أسانيد القراءات؛ فإن مما وقع فيه القراء من المخالفات على الرغم من جودة السند وتواتره، فهو لا شك سند قوي ومتواتر؛ لكن بعضهم يؤصل هذا السند إلى اللوح المحفوظ، وكان الواجب أن يقول عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله؛ لأنه كلام الله -سبحانه وتعالى- الذي تكلم به حقيقة بحرف وصوت سُمع منه -سبحانه وتعالى-، سمعه جبريل -عليه السلام- من الرب -جل جلاله-؛ ثم نزل به على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي بلغه للأمة بكل صدق وأمانة وإخلاص؛ فنشهد أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى أتاه اليقين، بلغ ما أمره به ربه؛ فالقرآن منزل من عند الله، وأظن أننا ذكرنا عدة نقاط ينبغي التنبيه لها في فهم أن القرآن كلام الله، ولا بأس أن نعيدها باختصار:

^{٤٢} [الحجر: ٩].^{٤٣} [النجم: ٣-٤].

أولاً: أنه كلام الله الذي تكلم به حقيقة، وليس عبارة عن كلام الله، ولا حكاية لكلام الله، إذ لو قلنا بهذا القول من الذي عبر عنه أو حكى عنه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - دونوا هذه النقاط جيداً، أولاً: أنه كلام الله تعالى الذي تكلم به على الحقيقة.

وثانياً: أن جبريل سمعه من الله مباشرة فهو سمعه من الله الذي أمره بتبليغه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فالقرآن المسموع من الله - عز وجل - هو كلام الله - عز وجل -.

وثالثاً: أن القرآن المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل حيث سمعه منه هو كلام الله.

رابعاً: أنه كلام الله بألفاظه ومعانيه بحروفه وقوالبه ومدلولاته؛ هو كلام الله - سبحانه وتعالى - لفظاً ومعنى، وليس كلامه قائم بالنفس وليس مخلوقاً، هو كلام الله المنزل غير المخلوق بألفاظه ومعانيه.

خامساً: أن القرآن المحفوظ في الصدور هو كلام الله.

وسادساً: أن القرآن المتلو بالألسن هو كلام الله.

وسابعاً: أن القرآن المكتوب في المصاحف هو كلام الله - جلّ وعلا -؛ لأن الكلام يُنسب إلى من قاله ابتداءً، وقد يُنسب إلى من بلغه على سبيل أنه مُبلغ كما في قول الله - سبحانه وتعالى - {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} ^{٤٤}؛ أي: إنه لتبليغ رسول كريم؛ ففي سورة التكويد يُعنى به جبريل عليه السلام {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} ^{٤٥} ما المقصود أنه قوله؟ لأنه هو الذي بلغه، وأنا الآن عندما أقرأ قول الله - عز وجل - {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أنا مبلغ، ولكن الكلام كلام الله - سبحانه وتعالى -.

^{٤٤} [التكويد: ١٩].

^{٤٥} [التكويد: ١٩-٢٠].

وفي سورة الحاقة المقصود نبينا محمد صلى الله عليه وسلم {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ} ^{٤٦}، والمقصود إنه لتبليغ رسول كريم حيث بلغه للأمة، ونحن عندما نقرأ قول لبيد: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" يعلم كل ذي لب وعقل سليم، أن هذا الكلام كلام لبيد بن الأعصم، كلام لبيد بن ربيعة - عفوًا - بن الأعصم يهودي - أخزاه الله -؛ لكن لبيد بن ربيعة الذي أسلم وحسن إسلامه، ولم يقل بعد إسلامه إلا بيتًا واحدًا؛ هو «الحمد لله إذ لم يأتني أجلي .. حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً».

فإذا الكلام إذا نُسب إلى من بلغه؛ فإنه يُنسب إليه على سبيل التبليغ، لا أنه قوله وكلامه؛ فالقرآن جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله بواسطة ملك الوحي جبريل - عليه السلام -.

«مِنْ عِنْدِ الَّذِي .. لَا تَعْتَرِيهِ نَوَائِبُ الْحَدَثَانِ»؛ أي: لا يعتريه ما يعترى المخلوق، لا يعتريه ما يعترى المخلوقين؛ لأنه هو الخالق - سبحانه وتعالى -؛ فالمخلوق ينتابه الجوع والعطش والنوم والموت والهلاك والضعف والمرض وما إلى ذلك؛ فالله - عزَّ وجلَّ - كامل في ذاته، كامل في أسمائه، كامل في صفاته، كامل في أفعاله - سبحانه وتعالى - أي: لا تعتريه نوائب الدهر التي تصيب البشر، من الموت والمرض والجوع والعطش والحاجة والفاقة، وما إلى ذلك مما ينتاب الثقلين الجن والإنس وسائر المخلوقات؛ بل الله - سبحانه وتعالى - منزَّه عن ذلك كله؛ يعني لا يعتريه ما يعترى المخلوقين من الأمور التي تصيبهم؛ لأنه - سبحانه وتعالى - كامل في كل شيء، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} ^{٤٧} فهو - سبحانه وتعالى - القادر على كل شيء، وهو مقدر هذه الأشياء، وهو الذي يُدعى لرفع البلاء ودفعه - سبحانه وتعالى -.

لكن قد يرد هنا إشكال في قوله: «لَا تَعْتَرِيهِ نَوَائِبُ الْحَدَثَانِ»؛ وهو يعني الله - سبحانه وتعالى -، وإن كان هذا الإشكال لا يرد إن وردت هذه اللفظة عن مدرسة سلفية سنية؛ لكن

^{٤٦} [الحاقة: ٣٩-٤٠].

^{٤٧} [البقرة: ٢٥٥].

لو صدر هذا الكلام من متكلم من المتكلمين الذين أعرضوا عن القرآن والسنة واشتغلوا بعلم الكلام؛ هل يعنون به هذا المعنى الذي بيناه أم أنهم يقصدون معنى آخر؟ يقصدون معنى آخر؛ ما هو؟ نفي الصفات الفعلية عن الله -عز وجل-، أحسنت، وكما بين الأخ يعقوب -وفقه الله- أن إذا صدر هذا الكلام من مثل المتكلمين؛ قال: والله منزّه عن الحوادث؛ هي كلمة حق أُريدَ بها باطل، نعم، الله منزّه عن الحوادث، لا تعتريه الحوادث؛ ليس معنى ذلك أنه لا يحدث شيئاً فالله -عز وجل- يفعل ما يشاء، ويختار يتكلم متى شاء، إذا شاء كيف شاء، يجيء متى شاء، إذا شاء، كيف شاء، ينزل متى شاء، إذا شاء، كيف شاء، استوى على عرشه في وقت شاءه - سبحانه وتعالى - يرحم، يغفر، يثيب، يعاقب، ينزل إلى السماء الدنيا، وهكذا، فإذا أطلقت هذه الكلمة، وهي أن الله -عز وجل- منزّه عن الحوادث فهي بالنسبة لأهل السنة مسلّمة؛ لأنهم يعنون أنه منزّه عما يعترى من؟ عما يعترى المخلوقين من الحوادث؛ أما أنه - سبحانه وتعالى - لا يحدث شيئاً ولا يحدث منه شيء؛ هذا ليس بصحيح؛ بل هو يحدث ما شاء متى شاء إذا شاء؛ فخلق الخلق، ورزق الرزق يفعل ما يشاء ويختار؛ فهنا؟ هذه نقطة مهمة يجب أن نتنبه لها؛ لأنك تجد عبارات للمتكلمين يقولون: إن الله ليس محل للحوادث، أو منزّه عن الحوادث، ويعنون بذلك ماذا؟ نفي الصفات الفعلية من الجيء والنزول، والرحمة والرضا والغضب والسخط، وما إلى ذلك من الصفات الفعلية الاختيارية التي يفعلها متى شاء إذا شاء كيف شاء - سبحانه وتعالى -، فبالنسبة إذا صدرت هذه الكلمة عن السلف يعني هذه شبهة بماذا؟ يعني عندك عبارات أحياناً يقولون: تنزيه الله عن التشبيه، نعم، إنه منزّه عن التشبيه؛ لكن ماذا تعني الجهمية بالتنزيه؟ التعطيل.

التعطيل -بارك الله فيك- الجهمية والمعتزلة ومن شاركهم في بعض الأمور؛ مثل: الأشاعرة والماتريدية، لا يقصدون بالتنزيه إلا التعطيل، ولذلك يصفون من يثبت أسماء الله وصفاته يصفونه بالجسم والمشبه، يصفونك بأنك مجسم ومشبه؛ لأنك تثبت أسماء الله وصفاته وهذا -والعياذ بالله- في غاية الخطورة فيه تلبيس؛ كذلك إذا قال المتكلمون إن الله ليس محل

للحوادث أو منزله عن الحوادث، نعم، نتفق معكم إذا قصدتم بذلك التنزيه على منهج السلف، وهو أن الله لا تعتريه الحوادث التي تعترى البشر من النوم و الموت و الجوع والعطش والمصائب، وما إلى ذلك، الله منزّه عن ذلك، أما أن يُقال أنه لا يحدث منه شيء ولا يحدث شيء؛ فهذا باطل؛ فالله يحدث ما شاء، متى شاء، إذا شاء، كيف شاء، يفعل ما يشاء ويختار، يحيي، يفرح، يضحك، يرحم، يغفر، ينزل، يستوي ينزل للسماء الدنيا، يرضى، يغضب، يسخط، يمقت، هذه كلها من الصفات الفعلية الثابتة؛ لكن يجب كسائر الصفات أن تقتصر فيها على ما دل عليه النص من الكتاب أو السنة، التي جاء فيها إثبات الصفات، ولا يجوز أن نزيد فيها لا ننقص ولا نحرف ولا نعطل؛ بل يجب أن نقرأها كما جاءت على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته؛ فهو يرحم لا كرحمتنا، يحيي لا كمحيئنا، يستوي لا كاستوائنا، يرضى ليس كرضى المخلوق، يسخط ليس كسخطنا، يغضب ليس كغضب المخلوق، وهكذا.

فإذا وضعت في ذهنك أنه منزّه عن الحوادث، ولا تعتريه الحوادث على المعنى الصحيح المفهوم عند السلف؛ فهذا هو المطلوب، وهذا واجب، وأما إذا قصد به نفي الصفات الفعلية؛ فهذا ما حكمه؟ باطل، إذا قصد المتكلمون بنفي الحوادث عنه نفي الصفات الفعلية؛ فهذا باطل، وإذا قصد تنزيهه عن الحوادث التي تعترى المخلوقين؛ فهذا حق، والأمر واضح، و"لتعرفنه في لحن القول"؛ يعني الأمر واضح لمن تأمل النصوص وعرفها.

لا تعتريه نوائب الحدثان، جاء في القرآن من عند من لا تعتريه نوائب الحدثان؛ أي: لا تصيبه الحوادث التي تصيب المخلوقين، وأما هو فإنه يفعل ما يشاء ويختار؛ فقد تكلم بالقرآن، وتكلم بالتوراة، وتكلم بالإنجيل، وكلم موسى، وكلم عيسى، وكلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكلم آدم -عليه السلام- ومن شاء أن يكلمه من أنبياءه ورسله، وهو يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء -سبحانه وتعالى- .

ولعلنا الليلة نكتفي بهذا البيت حتى يكتمل الأخوة إن شاء الله في الدروس القادمة ويمكن أن يسأل على مدى دقائق..

من الأعمال الشريرة يعني؟ .. أي يعمل منكراً ويحتج بالقدر؟ أحسنت هذا سؤال مهم جداً.

يسأل الأخ الكريم عن من يعمل العمل المنكر، فإذا بينت له ونصحته؛ قال: هذا شاء الله، وقدره عليّ؛ هذه حجة إبليس {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} ^{٤٨} وحجة المشركين، وقالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، والاحتجاج بالقدر؛ يقول أهل العلم: يجوز في المصائب، ولا يجوز في المعاييب؛ ما معنى هذا الكلام؟ يعني المصائب التي جاءت على الرغم من أنفك، ولا اختيار لك فيها هنا يمكن أن تحتج بالقدر، وتقول قدر الله وما شاء فعل؛ فقدت محبوباً، فاتك شيء من أسباب الرزق بدون تفريط، قدر الله عليك أو على غيرك أمراً لا دخل لك في مباشرة فعله، مرضت ونحو ذلك؛ فهنا تقول قدر الله وما شاء فعل، وتحتج بالقدر؛ وأما فعل القبائح والمعاصي والذنوب وهي التي تسمى بالمعاييب؛ فهذه لا يُحتج بالقدر فيها؛ لأنك فعلت ذلك عن طوعك واختيارك، والله - سبحانه وتعالى - أعطاك عقلاً تزن به الأشياء، وتميز به بينها، وتعرف به الخير من الشر، والحق من الباطل، والغث من السمين، والخبيث من الطيب، الحق أبلغ واضح ليس فيه أي إشكال ولا اعتراض، فلان عندما أقدم على هذه المعصية أقدم بطوعه واختياره، عندما أقدم على هذه الجريمة أقدم بطوعه واختياره؛ ولذلك يُروى عن عمر - رضي الله عنه - أن سارقاً قال له: كيف تقطع يدي وقد سرقت بقدر الله؟ قال: "وقد قطعت يدك بقدر الله".

فحاجه بنقيض قصده؛ أنت سرقت بقدر الله - كما قلت -، ونحن نقطع يدك بقدر الله؛ يقول أحدهم: "إذا احتج القدري بالقدر فاصفحه على وجهه، فإذا قال: لم صفعني قل له: قدر

^{٤٨} [الأعراف: ١٦].

الله أن أصفعك"، طبعاً هذا من باب التمثيل لرد شبهتهم؛ وإلا فالذي ينبغي لك أن تُعلمه، لا أن تصفعه؛ فهمتم؟ هذا يعني هذا يقوله بعض السلف بالنسبة للمكابر والمعاند، ويكون هذا من حاكم أو مسؤول أو ولي الأمر، وأما أنا وأنت فليس لنا أن نفعل ذلك؛ وإنما لنا النصح والتوجيه والإرشاد، بالحكمة والموعظة الحسنة، لا تأخذ هذا الكلام إذا جاءك واحد مسكين يجهل القدر ويحتج بالقدر تصفعه! لا، لكن هذه يذكرها السلف لمن كان له سلطان، يمكن أن يصفعه ليلقنه درساً لن ينساه؛ فالأقدار لا يحتج بها في المعاييب، وإنما يحتج بها في المصائب، نعم، كل شيء يجري بقضاء الله وقدره، ولا يخرج أمر عن مشيئة الله العامة الكونية القدريّة الشاملة؛ لكن مع هذا - يا عبد الله! - لا نحتج بالقدر على المعاييب؛ لأن الله أعطانا اختياراً وعقلاً نفكر به، ونزن به الأشياء، فهمت أخي الكريم؟

فالذي يحتج بالقدر؛ قل له هذا الكلام؛ قل له: أنت إذا تحتج بحجة إبليس؛ أين عقلك الذي أعطاك ربك؟ عطلته ولم تُعمله؟ فإذا ينبغي أن نفهم ذلك جيداً؛ حتى لا نقع في الإفراط والتفريط.

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَحْيُهُ .. بِشَهَادَةِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ»

[الشرح]

هذا استكمال لبيان أنَّ القرآن كلام الله، وأنه وحي الله - عزَّ وجل - الذي أنزله وحيًا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بشهادة جميع الخلق بمن في ذلك الأحرار والرهبان، والأحبار: هم علماء أهل الكتاب، والرهبان: هم عبَّادهم، ذلك أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وما يُتلى عليه من الوحي مقررٌ في التوراة والإنجيل قبل أن تُحرَفَا؛ بل بقي بعد التحريف ما يدل على ذلك؛ فهو تنزيل رب العالمين، {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} ^{٩٩}، نزل به جبريل من عند الله على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا تقرير لعقيدة السلف بأن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه مادام منزلٌ من عند الله، فهو كلام الله - عزَّ وجل -، الذي نزل به جبريل وحيًا على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم للأمة.

وسبق أن ذكرنا أنه لا بد من مراعاة أمور في مسألة الكلام، سبعة أمور أو ثمانية:

الأمر الأول: أنه كلام الله حقيقة، أن القرآن كلام الله حقيقة.

الأمر الثاني: أنه منزل من عند الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، غير مخلوق.

الأمر الثالث: أن جبريل قد سمعه من الله - عزَّ وجل -، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم

مشافهةً من جبريل، وكتب الله له الحفظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والرابع: أن ذلك كان بحرف وصوت، وليس المراد أنه خلقه في الهواء ثم سُمِعَ من الهواء؛ كما تقوله بعض الطوائف.

والخامس: أن القرآن المتلو بالألسن هو كلام الله.

والسادس: أن القرآن المحفوظ في الصدور هو كلام الله.

والسابع: أن القرآن المكتوب في المصاحف هو كلام الله - جل وعلا -.

وأن القرآن المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله - جل وعلا -، منه بدا وإليه يعود، ولذلك قال إنه تنزيلٌ من رب العالمين، نَزَلَ به الروح الأمين.

وقال الناظم - رحمه الله -:

«تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَحْيُهُ .. بِشَهَادَةِ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ»

هو وحْيٌ من رب العالمين، كما أن السنة وحْيٌ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ))^{٥٠}.

قال الله - جل وعلا -: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}^{٥١}.

فيجب أن نؤمن بهذه الوجوه كلها التي خلاصتها أن القرآن كلام الله الذي تكلم به حقيقة على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، وهو غير مخلوق سواء تُليَ بالألسن، أو حُفِظَ في الصدور، أو كُتِبَ في المصاحف؛ فإن ذلك لا يُعَيِّرُ كونه كلام الله - جل وعلا - . نعم.

[المتن]

«وَكَلَامُ رَبِّي لَا يَجِيءُ بِمِثْلِهِ .. أَحَدٌ وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ»

[الشرح]

^{٥٠} رواه أحمد، وصححه الألباني في المشكاة: (١٦٣ و ٤٢٤٧).

^{٥١} [الواقعة: ٧٧-٨٠].

«وَكَلَامُ رَبِّي لَا يَجِيءُ بِمِثْلِهِ .. أَحَدٌ وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ»

كلام رب العالمين لا يمكن أن يأتي بأحد، لا بسورة ولا بعشر سور، بل ولا بآية من مثله؛ قال الله - سبحانه وتعالى - : {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ^{٥٢}.

وقال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ^{٥٣}.

وقال تعالى: {قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} ^{٥٤}.

تحدى الله أفصح الناس، وهم العرب الأقحاح، ومنهم الشعراء والخطباء والبلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا؛ فهو معجزٌ بلفظه ومعناه، تحدى الله به الثقلين؛ فلم يستطيعوا، ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ لماذا؟ لأنه كلام الله - جلّ وعلا-، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} ^{٥٥}. {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} ^{٥٦}.

وكلمات ربي لا تنفذ أبداً، ولذلك لا يمكن أن يأتي أحدٌ بمثلها، {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ^{٥٧} والشاهد أن الثقلين لو اجتمعا ما استطعا أن يأتيآ بآية من مثله، ولا بسورة، ولا بعشر سور، ولا بأي شيء مثله؛ لأنه كلام الله الذي تكلم به حقيقة على الوجه الذي يرضيه، أو على الوجه الذي يليق به - سبحانه وتعالى - . نعم.

^{٥٢} [البقرة: ٢٣].

^{٥٣} [هود: ١٣].

^{٥٤} [الإسراء: ٨٨].

^{٥٥} [النساء: ١٢٢].

^{٥٦} [النساء: ٨٧].

^{٥٧} [الكهف: ١٠٩].

[المتن]

«وَهُوَ الْمَصُونُ مِنَ الْبَاطِلِ كُلِّهَا .. وَمِنَ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَالنَّقْصَانِ»

[الشرح]

«وَهُوَ الْمَصُونُ مِنَ الْبَاطِلِ كُلِّهَا .. وَمِنَ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَالنَّقْصَانِ»

تكفل الله بحفظ هذا القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويرفع من الصدور والمصاحف في آخر الزمان؛ فالله قد صانه وحفظه من الزيادة ومن النقصان ومن التحريف، لا يمكن أن يأتي أحد بشيء يستطيع أن يزيد في القرآن شيئاً، ولا يمكن أن يستطيع أن ينقص منه شيء؛ فإن ذلك واضح لا يمكن أن ينطلي على أحد؛ لأنه كلام الله رب العالمين الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ^{٥٨}.

ولذلك فهو منزلة عن الأباطيل والأقاويل التي لا تليق، أو التي لا تدل على شيء؛ مثل: العبث فهو كلام رب العالمين، تنزيل من حكيم حميد، {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ^{٥٩}.

هو كلامه بلفظه ومعناه؛ ولذلك صانه وحفظه؛ قال الله - عز وجل -: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ^{٦٠}.

فمن ادعى أن القرآن ناقص؛ فهو كافر، ومن زاد فيه؛ فهو كافر، ومن حرّفه عامداً متعمداً بعد بيان الحجة له؛ فهو كافر، ولذلك كذبَ وافترى وخسر الدنيا والآخرة من اعتقد أن أبا بكر أو عمر أو عثمان - رضي الله عنهم أجمعين - قد أحفوا شيئاً من القرآن، مثل سورة كذا وكذا؛ كما تدعيه بعض الطوائف الضالة المارقة، فمن اعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبلغ القرآن؛ فهو كافر، ومن اعتقد أنه بقي منه شيء إلى الآن؛ فهو كافر، ومن اعتقد

^{٥٨} [فصلت: ٤٢].^{٥٩} [فصلت: ٤٢].^{٦٠} [الحجر: ٩].

أن وحيًا ينزل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد كفر، فهو كلام رب العالمين المنزه عن العبث.

وكذلك من اعتقد الزيادة؛ مثل: بعض الطوائف التي ظهرت تنادي بحذف بعض الكلمات؛ مثل: بعض الملاحدة الذين يقولون: يعني لا يلزم أن تقول: قل هو الله أحد، وإنما يكفيك أن تقول: الله أحد، ولا يلزم أن تقول: قل أعوذ برب الفلق، أو قل أعوذ برب الناس، وإنما تقول: أعوذ برب الناس، أعوذ برب الفلق؛ هؤلاء ملاحدة لا يُنظر إلى أقوالهم ولا يلتفت إليهم، فمن ادعى فيه الزيادة أو النقصان؛ فقد كفر.

طيب لو قال لنا قائل: نعم، الزيادة والنقصان ما حصلت؛ لكن التحريف قد حصل، فهناك من حرّف آيات الله وفسرها بهواه، وهناك من فسرّها بإلحاد، وهناك من فسر أسماء الله وصفاته بأنها مجازية، وأن المقصود بعض أسماء مخلوقاته، وهناك من فسر بعض مشاهد يوم القيامة بأن المراد بعض المظاهر الموجودة في الدنيا، فما القول، أو كيف يُقال أنه لم يُحرّف وقد حصل ذلك؟

أقول - والله الحمد والمِنَّة -: لم يُحرّف بحيث يجتمع الناس على تحريفه؛ كما حصل للتوراة والإنجيل؛ كما فعلت اليهود والنصارى، نعم، وجد التحريف من بعض الطوائف تحريف عند الخوارج، تحريف عند الرافضة، تحريف عند الصوفية، تحريف عند الباطنية، تحريف عند الملاحدة، موجود؛ لكن من فضل الله - عزّ وجل - أنه قد حَفِظَ كتابه، وقِيضَ له من يحفظه ويكتبه ويفسره على الوجه الصحيح، وسيظل هذا إلى أن يأذن الله برفعه من الصدور، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، عندما لا يبقى إلا الكفار يُرفع، وهذا من حِفْظِ الله - تبارك وتعالى - لكتابه المبين؛ فلا يمكن أن يُقال إنه بناءً على ما حصل من تحريف من بعض الطوائف الضالة المارقة، أنه قد دخله التحريف الذي دخل التوراة والإنجيل؛ فإنه لا تزال طائفة من الأمة يتلونه حق تلاوته، ويفسرونه حق تفسيره، ويفهمونه الفهم الصحيح، ذلك أنّه منذ أنزل غَضًا

طريقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا، والمسلمون يتدارسون معناه ويحفظونه ويحافظون عليه.

يقول أبو عبد الرحمن السلمي -التابعي المشهور رحمه الله تعالى-: "كان الذين يُقرؤوننا القرآن عثمان بن عفان، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت لا يجاوزون بنا عشر آيات حتى نعلمهن ونعمل بهن، أو نعرف ما فيهن من العلم والعمل؛ قال: "فتعلمنا العلم والعمل جميعاً". ولا شك أن هذا تحقيق لوعده الله - سبحانه وتعالى -؛ {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ^{٦١}؛ فالحمد لله على ذلك. نعم.

[المتن]

«مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ يُبَارِيَ نَظْمَهُ .. وَيَرَاهُ مِثْلَ الشَّعْرِ وَالْهَدْيَانِ»

[الشيخ]: نعم، كمل البيت، مرتبطة.

«فَلَيَأْتِ مِنْهُ بِسُورَةٍ أَوْ آيَةٍ .. فَإِذَا رَأَى النَّظْمَيْنِ يَشْتَبِهَانِ»

فَلْيَنْفَرِدْ بِاسْمِ الْأُلُوْهِةِ وَلْيَكُنْ .. رَبَّ الْبَرِيَّةِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانِي»

^{٦١} [الحجر: ٩].

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله في نوحيته:

«مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ يُبَارِي نَظْمَهُ .. وَيَرَاهُ مِثْلَ الشَّعْرِ وَالْهَدْيَانِ
فَلْيَأْتِ مِنْهُ بِسُورَةٍ أَوْ آيَةٍ .. فَإِذَا رَأَى النَّظْمَيْنِ يَشْتَبِهَانِ
فَلْيَنْفَرِدْ بِاسْمِ الْأُلُوْهِيةِ وَلْيَكُنْ .. رَبَّ الْبَرِيَّةِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانِي»

[الشرح]

هذا الكلام امتداد للأبيات التي أوردها المصنف، أو التي قالها المصنف - رحمه الله - في بيان أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وفي بيان إعجازه، وتحدي العرب وغير العرب به، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله؛ فبين هنا أن من زعم - زوراً وبهتاناً، وظلماً وعدوئاً - بأنه قول شاعر، أو هذيان كاهن، أو قول البشر؛ فلا شك أنه قد كفر؛ كما قال الله - سبحانه وتعالى - في وصف ذلك الذي قال إنه قول البشر؛ حيث بين الحكم عليه في سورة المدثر، عندما زعم وقال: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} ٦٢؛ قال الله - عز وجل -: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} * وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوْ آحَ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} ٦٣.

أخبر أن ماله جهنم، من زعم أنه قول البشر، أو أنه شعر، أو أنه كهانة، أو أنه سحر؛ فقد تُوعِدَ بهذا الوعيد الشديد؛ ثم قال المصنف: إن كان صادقاً فيما يدعي؛ فعليه أن يدعي الألوهية؛ كما ادعى فرعون، وعليه أن يدعي أن بيده أزمة الأمور؛ كما ادعاها مدعوا الألوهية والربوبية، وليدعوا الناس إلى عبادة نفسه، إن كان صادقاً في مدَّعاه.

وهذا الكلام يُقال للتحدي والتعجيز والتهديد، أولاً: عليهم أن يأتوا بآية من مثله، أو سورة، أو عشر سور، وكل هذا محال، لا يمكن أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً،

٦٢ [المدثر: ٢٥].

٦٣ [المدثر: ٢٦-٢٩].

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ^{٦٤}.

وفي الآية الأخرى: {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ} ^{٦٥}؛ يعني: لمن زعم أنه مُفترى؛ فلذلك فإن هذا تحدٍ لهم؛ فعليه أن يدَّعي الألوهية، وعليه أن يدَّعي الربوبية، وعليه أن يدَّعي التصرف في الكون، وعليه أن يأتي بآية مثله، أو بسورة، أو بعشر سور، ولن يستطيع ذلك؛ بل دون ذلك خسر القتاد، وأصعب من خسر القتاد؛ بل لو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ثم بين أيضاً إن كان يدَّعي هذه الدعوى فليقم عليها البيّنات، "والدعوى إن لم تقيموا عليها بيّنات أبناءها أدياء"؛ بل وليقل: سبحاني، بدلاً من سبحان الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -؛ كما قال فرعون: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} ^{٦٦}. {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ^{٦٧}، كما حكى الله ذلك عنه.

وخلاصة الأمر: أن هذه الدعوى دعوى باطلة ببداهة العقول والفطر السليمة، ناهيك عما دل عليها من النصوص من كتاب الله - عزَّ وجل -، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا تحدٍ لجميع الناس؛ بل للثقلين، وتعجيزٌ لهم، وتهديدٌ ووعد؛ فإنه لن يستطيع ذلك.

وقوله: «فَلْيُقِلُّ سُبْحَانِي»، أو فليقل إني إله، أو فليقل إني أفعل كذا وكذا، كل هذا جيء به على سبيل التهكم، والوعيد، والتهديد، والإنكار؛ فهذا سائغٌ في اللغة العربية؛ كما يقول الناس الآن: "إن كنت تستطيع فافعل، إن كنت تستطيع أن تضربني - مثلاً - فافعل"؛ كما يقولون الآن؛ حتى الأولاد الصغار؛ يقولون: افعل إن كنت شاطر، على لهجة الأولاد الصغار، والله المثل الأعلى؛ فالله - سبحانه وتعالى - يُبَيِّنُ لهم بما دلت عليه الآيات من نصوص التهديد

^{٦٤} [البقرة: ٢٣].

^{٦٥} [هود: ١٣].

^{٦٦} [النازعات: ٢٤].

^{٦٧} [القصص: ٣٨].

والوعيد، والتعجيز، والأمر الذي المقصود منه التوبيخ، والإنكار والوعيد الشديد، على من ادّعى هذه الدعوى العريضة، التي لا يمكن لأحد أن يدعيها؛ إلا وباء بالخذلان، والخسران، والوبال.

وسبحان الله! وكأن الشيخ المؤلف عندما قال، أو بيّن هذا التحدي، لم يسمع بمن ادعى أنه يقول للناس قولوا لي: سبحاني!

فإن ابن عربي، ومن سلك سبيله من أصحاب وحدة الوجود؛ كابن الفارض والحلاج، وابن سبعين، والفارابي، وابن سينا، ومن سلك سبيلهم، كلهم يدعون هذه الدعوى، ورؤي هذا عن أبي يزيد البسطامي، وغيره من زعماء الطوائف المنحرفة؛ فإنهم يزعمون أنهم يصلون إلى درجة يبلغون فيها درجة الرب - سبحانه وتعالى -؛ حيث امتزجوا واتحدوا مع الإله! - تعالى الله عما يزعم الظالمون علواً كبيراً -.

فهذا ليس غريباً بين بعض أصحاب الطرق الكثيرة المنحرفة عن الدين؛ أنهم يقولون: سبحاني سبحاني! بل يقول قائلهم: سبحاني سبحاني ما أعظم شاني! هذا يُروى عن طيفور البسطامي، وعن ابن عربي، وعن الحلاج، وعن غيرهم من أئمة الضلال وأتباع إبليس؛ فهذه الآيات تقمع هؤلاء، وترد كيدهم في نحورهم.

أعد نفس الآيات، ثم واصل بعدها.

[المتن]

«مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ يُبَارِيَ نَظْمَهُ .. وَيَرَاهُ مِثْلَ الشَّعْرِ وَالْهَدْيَانِ
فَلْيَأْتِ مِنْهُ بِسُورَةٍ أَوْ آيَةٍ .. فَإِذَا رَأَى النَّظْمَيْنِ يَشْتَبِهَانِ
فَلْيَنْفِرْ بِاسْمِ الْأُلُوْهِيةِ وَلْيَكُنْ .. رَبَّ الْبَرِيَّةِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانِي»

[الشرح]

يعني إذا زعم أن كلام الباري، ونظم هؤلاء الشعراء، أو الخطباء، أو الفصحاء، أو السحرة، أو الكهنة، أو نحو ذلك، إذا رأى أي توافق أو تشابه أو تماثل؛ فعليه أن يدعي الألوهية، وعليه أن يدعي الربوبية، وعليه أن يسبِّح نفسه بدلاً من أن يسبح الله - سبحانه وتعالى -؛ وكل ذلك لن يكون، ولذلك فإنه لا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة.

«فَإِذَا تَنَاقَضَ نَظْمُهُ فَلْيَلْبِسْ .. ثَوْبَ النَّقِيصَةِ صَاغِرًا بِهِوَانٍ»

فَلْيَلْبِسْ: تقف عليها هكذا،

«فَإِذَا تَنَاقَضَ نَظْمُهُ فَلْيَلْبِسْ»: - بالنون المخففة؛ حتى لا ينكسر البيت -

ثَوْبَ النَّقِيصَةِ صَاغِرًا بِهِوَانٍ»

يعني إذا علم تناقض نظمه مع كلام رب العالمين، وشعره ونثره، ولو قاله أفصح الفصحاء، إذا رأى أن النظمين لا يلتقيان، والنظم هنا فيه تَجَوُّزٌ؛ وإلا فالنظم غير النظم، فإذا رأى أنهما لا يلتقيان - أي: القرآن والشعر، أو القرآن والكهانة، أو القرآن والسحر، أو القرآن وكلام البلغاء والفصحاء - إذا أيقن أنهما لا يلتقيان؛ فإن عليه أن يلبس ثوب النقيصة والفضيحة والعار، وهو صغيرٌ حقيرٌ محقرٌ؛ لأنه لبس ثوب الخزي ببطلان دعواه هذه، وهي باطلة ابتداءً؛ يعني باطلة ابتداءً، لا يحتاج الأمر إلى أية وقفات. نعم. تفضل.

[المتن]

«فَإِذَا تَنَاقَضَ نَظْمُهُ فَلْيَلْبِسْ .. ثَوْبَ النَّقِيصَةِ صَاغِرًا بِهِوَانٍ»

أَوْ فَلْيَقِرَّ بِأَنَّهُ تَنْزِيلُ مَنْ .. سَمَاهُ فِي نَصِّ الْكِتَابِ مَثَانِي»

[الشرح]

إما أن ييؤ بالخزي والخسران والخسارة؛ وإلا فعليه أن يعترف أنه كلام رب العالمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو بين أمرين: إما أن ييؤ بالخزي والخسارة والخسران والهوان، وإما أن يعترف بأنه كلام رب العالمين، المنزّه، المنزل من عند الله بواسطة

جبريل على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي سماه المثاني، {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} ^{٦٨}.

والمثاني بمعنى: أنه يؤيد بعضه بعضاً، ويشبه بعضه بعضاً في تأييد الأحكام التي جاء بها، والتوحيد والعقيدة، {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} ^{٦٩}، وفي الآية الأخرى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} ^{٧٠}.

فإذاً الله الذي سماه بهذا الاسم، ويُقال أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة، بعض المفسرين يقول: أنها سورة الفاتحة، وآخرون يقولون: أن المقصود أنه يؤيد بعضه بعضاً، ويُبين بعضه بعضاً، ويوضح بعضه بعضاً، ولا تعارض بين الأمرين، فاعترف يا من تنكر إذا بؤت بالخزي والخسران، وعلمت أنه ليس كلام البشر، ولا يشبه شيئاً من قول البشر؛ فعليك أن تعترف بأنه كلام الله، الذي منه بدا وإليه يعود، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، نعم.

[المتن]

«لَا رَيْبَ فِيهِ بِأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ .. وَبِدَايَةُ التَّنْزِيلِ فِي رَمَضَانَ»

[الشرح]

«لَا رَيْبَ فِيهِ بِأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ .. وَبِدَايَةُ التَّنْزِيلِ فِي رَمَضَانَ»

لَا رَيْبَ: لاشك أنه تنزيل رب العالمين، ومن شك في ذلك فقد كفر؛ لأنه كلام رب العالمين، الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ليكون للعالمين نذيراً، وبدأ نزوله في رمضان، يقصد نزوله، ليس نزول الوحي أول مرة، وإنما بدأ نزول القرآن من الله -عز وجل- عندما تكلم به؛ فإنه أنزله في رمضان.

^{٦٨} [الحجر: ٨٧].

^{٦٩} [الحجر: ٨٧].

^{٧٠} [الزمر: ٢٣].

ومسألة أنه أنزله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، هذا محل نظر، من حيث الثبوت؛ لكن نؤمن بأنه نزل في رمضان؛ كما قال الله - عز وجل - : {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} ^{٧١}.

نؤمن بأن بداية نزوله في رمضان، وأن جبريل كان يدارسه النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان، وأن رمضان هو شهر القرآن، فيؤمن العبد بذلك، وأنه منزل من عند الله، وأن بداية التنزيل كان في هذا الشهر العظيم، في شهر رمضان المبارك، نؤمن بذلك، ونقف عند هذا الحد، أما ما يرويه البعض من الأسانيد التي تنتهي إلى اللوح المحفوظ، ولم ينسبوه إلى الله - جل وعلا - وأنه تكلم به، فهذه الأقاويل أقاويل باطلة، ولا تصح؛ بل الواجب أن نؤمن بأن الله قد تكلم به حقيقة، كونه أنزله إلى السماء الدنيا أو غيرها؛ هذا نكل علمه إلى الله - عز وجل - إذ لم يرد في ذلك أحاديث صحيحة؛ ولكن نؤمن بأنه نزل في رمضان. نعم، تفضل.

[المتن]

«اللَّهُ فَصَّلَهُ وَأَحْكَمَ آيَهُ .. وَتَلَاهُ تَنْزِيلاً بِلَا أَلْحَانٍ»

[الشرح]

«اللَّهُ فَصَّلَهُ وَأَحْكَمَ آيَهُ .. وَتَلَاهُ تَنْزِيلاً بِلَا أَلْحَانٍ»

الله الذي فصل آياته؛ قال الله - جل وعلا - : {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} ^{٧٢}.

وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} ^{٧٣}.

وقال - تبارك وتعالى - : {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} ^{٧٤}.

^{٧١} [البقرة: ١٨٥].

^{٧٢} [هود: ١].

^{٧٣} [الزخرف: ٣].

وقال - تبارك وتعالى - : {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} ^{٧٥}.

وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} ^{٧٦}.

فالله - عزَّ وجل - هو الذي فصل آياته، ورتبها على هذا الترتيب الذي نتلوا به الآن، وتلاه بمعنى: أنه تكلم به، بحرف وصوت سمعه جبريل من الله - عزَّ وجل -، ومن زعم أنه لم يتكلم به؛ فقد حكم عليه بالعجز والخرس - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -؛ ثم هو يكذب نصوص القرآن التي تقول بأن القرآن كلام الله - جلَّ وعلا -؛ فلذلك هو الذي أنزله، هو الذي أحكمه، هو الذي فصله، هو الذي بين حلاله وحرامه، ومحكمه ومتشابه؛ فعلينا أن نؤمن بأنه كلام الله المنزل غير المخلوق. نعم.

[المتن]

«هُوَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ وَخِطَابُهُ .. بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَبَيَانٍ»

[الشرح]

«هُوَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ وَخِطَابُهُ .. بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَبَيَانٍ»

لماذا الشيخ يؤكد على هذه الألفاظ؟ لماذا؟ ما السبب؟

قَوْلُهُ، كَلَامُهُ، خِطَابُهُ، ثم قوله: «بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَبَيَانٍ»؛ لماذا هذا التفصيل؟

رداً على من يؤول كلام الله - جلَّ وعلا - سواء القائلون بأنه مخلوق، أو أنه خلق في الهواء، أو أن الله خلقه قديماً منذ الأزل، أو أنه المعنى القائم بالنفس، فهو يؤكد قوله؛ كما قال الله - سبحانه وتعالى - في غير ما آية - : {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} ^{٧٧}، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} ^{٧٨}، {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} ^{٧٩}.

^{٧٤} [آل عمران: ٧].

^{٧٥} [الزمر: ٢٨].

^{٧٦} [الرحمن: ١-٤].

^{٧٧} [يس: ٥٨].

^{٧٨} [النساء: ١٢٢].

وأما الأدلة على الكلام؛ فمنها:

قول الله - تبارك وتعالى -: {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} ^{٨٠}. وقول الله - عز وجل -: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ^{٨١}.

لكن بالنسبة للقرآن؛ {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ^{٨٢}.

وبيانه؛ {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} ^{٨٣}.

القرآن فيه بيان للحلال والحرام، والتوحيد من الشرك، والخبيث من الطيب؛

بِفَصَاحَةٍ: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} ^{٨٤}.

{لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} ^{٨٥}،

وغير ذلك من الآيات التي تدل على أنه فصيح، وأنه بليغ، وأنه بيان؛ فالله - تبارك وتعالى - أنزله بعلمه؛ ولذلك كان أفصح الكلام وأبينه، وأبلغه، ومن زعم خلاف ذلك؛ فقد أعظم على الله الفرية. نعم.

[المتن]

«هُوَ حُكْمُهُ هُوَ عِلْمُهُ هُوَ نُورُهُ .. وَصِرَاطُهُ الْهَادِي إِلَى الرِّضْوَانِ»

[الشرح]

^{٧٩} [مریم: ٣٤].

^{٨٠} [التوبة: ٦].

^{٨١} [النساء: ١٤٦].

^{٨٢} [الكهف: ١٠٩].

^{٨٣} [الرحمن: ١-٤].

^{٨٤} [الزخرف: ٣].

^{٨٥} [النحل: ١٠٣].

هُوَ حُكْمُهُ: لأن القرآن حكم الله، {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} ^{٨٦}؛ أي: ما أنزل في الكتاب.

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوفُونَ} ^{٨٧}.

فالقرآن حكم الله -عز وجل- بين عبادہ، فيه تفصيل الشرائع، فيه بيان التوحيد، والحلال، والأحكام الشرعية المفصلة، **هُوَ حُكْمُهُ**، {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} ^{٨٨} وأيضاً، **هُوَ حُكْمُهُ**، وماذا؟

هُوَ عِلْمُهُ: أنزله إليك، أنزله بعلمه؛ فالقرآن علم من الله -عز وجل- أوحى به إلى عبده؛ ولذلك أول ما نزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ^{٨٩}.

فالقرآن علم من الله، أوحى به إلى أمينه ورسوله ونبيه ومصطفاه؛ ليلبغه للأمة؛ فهو علم من علوم الله -عز وجل- التي نفع الله بها عباده، وأفضل ما يتعلم كتاب الله -عز وجل-، وأول ما يبدأ به تعلم كتاب الله، ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)) ^{٩٠}، ((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)) ^{٩١}؛ جعلني الله وإياكم من أولئك.

هُوَ حُكْمُهُ، هُوَ عِلْمُهُ، هُوَ؟

^{٨٦} [المتحنة: ١٠].

^{٨٧} [المائدة: ٥٠].

^{٨٨} [المتحنة: ١٠].

^{٨٩} [العلق: ١-٥].

^{٩٠} والبخارى (٤/١٩١٩، رقم ٤٧٣٩).

^{٩١} رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٥٥٠٩.

هُوَ نُورُهُ: القرآن أيضًا نور؛ يضيء للأمة طريقها؛ إن استُخدم هذا النور، {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} ^{٩٢}؛ فالقرآن نور يضيء للناس الطريق، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والعلم نور))، وأفضل العلم هو القرآن، يعني أخبر أن العلم نور، وأفضل هذا العلم هو القرآن؛ {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} ^{٩٣}؛ يعني: القرآن، هو نوره. نعم.

[الطالب]

«وَصِرَاطُهُ الْهَادِي إِلَى الرِّضْوَانِ»

[الشيخ]

«وَصِرَاطُهُ الْهَادِي إِلَى الرِّضْوَانِ»

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} ^{٩٤}. فالقرآن فيه هداية الجميع، فيه بيان من قبلنا، وهداية من بعدنا؛ كما قال الله - عز وجل - لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالقرآن: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} ^{٩٥} {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} ^{٩٦}. {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ^{٩٧}.

فإذا القرآن صراط؛ أي: طريق أيضًا، من سلكه، وسار على نهجه، وطبقه، واتبع سبيله؛ فاز في الدنيا والآخرة، ومن ابتغى الهدى من غيره؛ أضله الله، ومن بُعد عنه؛ أبعد الله، فعلينا

^{٩٢} [النور: ٤٠].

^{٩٣} [النساء: ١٧٤].

^{٩٤} [النساء: ١٠٥].

^{٩٥} [الشورى: ٢٥ - ٥٣].

^{٩٦} [الأنعام: ١٥٣].

^{٩٧} [الفاتحة: ٦ - ٧].

أن نعي به تلاوةً ودراسةً وتعلماً وتعليماً وفهماً وتدبراً؛ حتى نطبق هذه المعاني التي أشار إليها المؤلف - رحمه الله تعالى - .

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«جَمَعَ الْعُلُومَ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا ... فِيهِ يَصُولُ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي»

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«جَمَعَ الْعُلُومَ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا .. فِيهِ يَصُولُ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي»

فاعل جمع، ضمير مستتر يعود على القرآن الكريم؛ فإنه جمع جميع العلوم التي يحتاج إليها المسلمون في أمر دينه، إما بالتفصيل أو بالإجمال؛ ثم السنة وضحت وبيّنت وفصلت، وشرع الله بها أحكاماً لم تأتي في القرآن إلا مجملة داخل قواعد كلية لا بد من التسليم بها؛ بل هي نصوص؛ كما في قول الله - جلّ وعلا-: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} ^{٩٨}.

إذا المقصود بالعلوم التي حواها القرآن؛ علوم العقائد والأحكام والآداب والأخلاق، بالإضافة إلى ما فيها من ذكر قصص الأنبياء، وأخذ العبرة والعظة مما حل بالأمم السابقة؛ ولذلك قال: «جَمَعَ الْعُلُومَ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا».

وقوله فيها: «وَبِهَا يَصُولُ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي» يستدل بها العالم الرباني الذي لا يتجاوز الكتاب والسنة فيما يحكم به، وفيما يقول، وفيما يعمل، هذا هو العالم الرباني الذي رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وامتلأ هدي الكتاب والسنة قولاً وعملاً واعتقاداً ظاهراً وباطناً؛ هذا هو العالم الرباني الذي يعمل بالقرآن، يعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، يُحل حلاله، ويحرّم حرامه، ويقف عند حدوده؛ فيصول به في بيان الحق، والصدع

به، والرد على أعداء الحق، هذا هو العالم الرباني الذي اتخذ القرآن والسنة منهجاً له في وروده وصدوره، في عسره ويسره، في منشطه ومكرهه، في جميع أحواله، يقف عند النصوص الشرعية، لا يتجاوزها لرأي فلان أو فلتان؛ وإنما يقف عند حدود الشرع التي جاءت وبينت في الكتاب والسنة، بما يصول، وبما يجول، وبما يحكم، وبما يحلل، وبما يحرم، وبما يؤمن، وبما يوحد الله، وبما يتعد عن الشرك، وبما يصل بين الناس، وبما يؤدي حقوق الله -عز وجل- وحقوق عباده. نعم.

[المتن]

«قَصَصْ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ قِصَّةً .. رَبِّي فَأَحْسَنَ آيَمًا إِحْسَانٍ»

[الشرح]

«قَصَصْ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ قِصَّةً .. رَبِّي فَأَحْسَنَ آيَمًا إِحْسَانٍ»

القصص {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}؛^{٩٩} فالمقصود بالقصص ليس مجرد القصص قصص الأنبياء؛ وإنما المراد هذا الكتاب المتلوه، الذي فيه أحكام وآداب، وقبل ذلك عقيدة وتوحيد، بالإضافة إلى قصص الأنبياء وذكر ما حل بالأمم السابقة؛ فأتقن ذلك - سبحانه وتعالى - في كتابه المبين بطريقة لا يمكن أن تُجارى ولا أن تُبارى؛ ولذلك أحسنها وأتقنها فالله -عز وجل- الذي قص على عبده أحسن القصص، وهو القرآن ليس المراد يا عبد الله!



[وأنصحك يا صاحب الجوال! الذي فيه موسيقى أن تتقي الله، في بيت الله، في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^{٩٩} [يوسف: ٣].

♦ عَقَّبَ الشيخ -حفظه الله- هذا التعقيب بعد أن رنَّ الهاتف الجوال لأحد الموجودين في المسجد!

أولاً: أغلقه إلا عند الضرورة، وثانياً: يا أخي! غير هذه الموسيقى، واجعله على النعمات الأخرى التي ليس فيها تلوين ولا تلحين. فاتقي الله لا تتعرض للإثم بأشياء بسيطة حلها بيدك].

نعود إلى كلام المصنف - رحمه الله - فالقرآن سماه الله قصصاً؛ لأن الله قصه على جبريل؛ أي: تلاه عليه، وجبريل قصه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قصه على الأمة؛ فالقصص المقصود هنا المتلو التلاوة، ويتضمن القصص التي هي قصص الأنبياء و المرسلين، فأحسنه - تبارك وتعالى - أيما إحسان؛ أي: أتقنه في نظمه، وفي إعجازه، وفي أحكامه العادلة، وفي ألفاظه ومعانيه نعم.

[المتن]

«وَأَبَانَ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ... وَنَهَى عَنِ الْآثَامِ وَالْعِصْيَانِ»

[الشرح]

«وَأَبَانَ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ .. وَنَهَى عَنِ الْآثَامِ وَالْعِصْيَانِ»؛ وضع الله في هذا الكتاب المبين -الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد- الحلال من الحرام؛ ولذلك لا يجوز لمسلم أن يحلل ولا أن يحرم إلا وفق الكتاب والسنة، فلا يهرف أحد بما لا يعرف، {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} ^{١٠٠}، لا يجوز أن تحلل ولا أن تحرم إلا بنص شرعي، {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} ^{١٠١}.

وكذلك سائر ما حرم الله في كتابه، وما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في أول سورة المائدة؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله، ولا يجوز

^{١٠٠} [النحل: ١١٦].

^{١٠١} [الأنعام: ١٤٥].

لمسلم أن يحلل باجتهاده، فهؤلاء الأفاكون الذين يحلون الربا، ويحلون التمثيليات ويحلون المسرحيات، ويحلون الغناء، ويحلون الموسيقى، ويحلون اختلاط الرجال بالنساء، ويحلون التصوير لغير ضرورة؛ سيقفون بين يدي الله فيما تحملوا من فتوى بغير دليل، وكذلك الذين يحرّمون ما أحل الله؛ كالذين يحرّمون على الأمة ما أحل لها من الطيبات؛ {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} ^{١٠٢} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} ^{١٠٣}. فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله.

كما أبان في هذا الكتاب العزيز معالم الذنوب والآثام والعصيان؛ ليجتنبها المؤمن الذي وفقه الله للوقوف عند حدوده، والعمل بكتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والقاعدة عند أهل العلم، أن الأصل في الأشياء الإباحة؛ حتى يرد دليل التحريم؛ ولذلك من فضل الله علينا أن المحرمات أشياء معدودة، إذا قورنت بما أحل الله - سبحانه و تعالى - ولذلك قال: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا} ^{١٠٤} ثم ذكر ما استثنى بذلك؛ فمن هذا النص يتضح أن الأصل في الأشياء؛ من ملبوسات ومركوبات ومطعومات ومشروبات، الأصل فيها الإباحة حتى يرد دليل التحريم، ودليل التحريم لابد أن يكون نصاً من كتاب الله - عز وجل -، أو من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مما جاءت به الأحاديث الصحيحة الثابتة سنداً وممتناً؛ فلذلك ينبغي للمسلم أن يتعلم؛ حتى يعرف الحلال من الحرام، والخبيث من الطيب، والحق من الباطل؛ فيقف عند حدود الله - سبحانه و تعالى - نعم. تفضل.

[المتن]

«مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ قَوْلِهِ .. فَقَدْ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ»

[الشرح]

^{١٠٢} [الأعراف: ٣٢].

^{١٠٣} [المائدة: ٨٧].

^{١٠٤} [الأنعام: ١٤٥].

«مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ قَوْلِهِ .. فَقَدْ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ»

ما وجه وصف الذين يقولون إن القرآن مخلوق، ما وجه تشبيههم بعباد الأوثان؟
- من المعلوم أيها الإخوة-؛ أولاً: من هم القائلون؟ لابد أن الفرقة القائلة؛ ثم بعد ذلك نعود للرد عليهم، وبيان أنهم يشبهون عبدة الأوثان.

القائلون بخلق القرآن: الجهمية، والمعتزلة، وبخاصة المعتزلة؛ أما الجهمية فهم ينفون جميع الأسماء والصفات؛ لكن المعتزلة الذين يثبتون أسماء جوفاء لا معاني لها، هم الذين قالوا واشتهر عنهم، القول بأن القرآن مخلوق، وأول من تبني ذلك واصل بن عطاء، ثم تتلمذ عليه تلميذه عمر بن عبيد، ثم بن أبي دؤاد، وبشر المريسي، ومن نهج نهجهم من دعاة الضلال، ولهم شبه لعلنا نتعرض لبعضها في دروس لاحقة، أو ما تيسر في هذه الليلة.

وهؤلاء قالوا: إن القرآن مخلوق، كلام الله الذي خلقه، نعم، نحن نقول كلام الله؛ لكن كلام الله الذي تكلم به، يقولون: لا، كلام الله الذي خلقه، كما خلق الأشياء كلها -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-. طيب، لماذا -يا معتزلة!- قلتم إن القرآن الذي هو كلام الله، لماذا قلتم إنه مخلوق؟ قال هؤلاء المساكين: لو أننا أثبتنا صفة الكلام، للزم أن يكون الله يتكلم بلسان وشفقتين، ولهات وبلعوم، ومزامير صوتية، وحنجرة وقصبة، وهذه من لوازم البشر، والله منزلة عن ذلك، وهذه شبهتهم في كل صفة نفوها، زعمًا منهم أنهم لو أثبتوا تلك الصفات للزم منها مشابهة المخلوقين، تعال يا مسكين! يا معتزلي! أنت -أولاً- وقعت في التشبيه الذي فررت منه، فوقعت فيه ابتداءً كيف وقع فيه ابتداءً؟ لماذا؟

نحن نريد أحياناً -يعني- بعض الشيء من الحوار أو الإجابة من الأخوة؛ حتى تكون أرسخ في الأذهان، لماذا قلنا أنهم شبهوا؟ أليسوا قد فعلوا ذلك فراراً من التشبيه؟ فقالوا: إن القرآن مخلوق فراراً من التشبيه. طيب، لماذا قلنا أنهم وقعوا في التشبيه ابتداءً؟ لتصورهم لا يوجد كلام إلا كلام المخلوقين. فإذا أثبتنا لله كلاماً أشبه المخلوق! فهم أول ما وقعوا فيه هو الأمر الذي أرادوا الفرار منه! لكنهم مساكين وقعوا فيه، فوقعوا في نفس الأمر الذي فروا منه؛

حيث لم يفهموا مما أثبت الله لنفسه إلا ما يليق بالمخلوق! إذا هم في البداية أصبحوا مشبهة، وهم أرادوا أن يردوا على حد زعمهم على المشبهة؛ لأن المشبهة عندهم هم أهل السنة الذين يثبتون الصفات، فلما فهموا هذا الفهم الساقط؛ وهو أنه لا يوجد كلام إلا للمخلوقين، ولا استواء إلا للمخلوقين، ولا مجيء إلا للمخلوقين، ولا نزول إلا للمخلوقين؛ لجؤوا إلى التعطيل؛ فقالوا: إن الله لا يتكلم! ولما ألزمهم من ألزمهم بأن الله قد أثبت أنه يتكلم؛ قالوا: نعم، هو كلام الله؛ لكن كلام الله الذي خلقه.

لا، دعنا من الكلام النفسي هذا، بعد ذلك نتحاور مع الأشاعرة؛ لكن نحن نشير إلى كلام المصنف: «مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ قَوْلِهِ .. فَقَدْ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ»

أنا أريد أن أبين هذا الوجه، كيف يا عبد الله؟! هو قال: إن القرآن مخلوق، لم يتكلم به الله، وسُمِّيَ كلام الله مجازاً. طيب، هذا القرآن الذي زعموا أنه مخلوق؛ قلت: إنهم وقعوا في الأمر الذي فروا منه، فانتقلوا إلى التعطيل، لما انتقلوا إلى التعطيل وعلموا أن الصفات لا بد لها من معاني؛ قالوا نقول إن القرآن مخلوق، خلقه الله كما خلق الأشياء كلها. طيب، ما دليلكم يا معتزلة؟!

لا نستطيع أن نسرد جميع شبههم ونرد عليها في مثل هذه الدروس؛ لكن سنكتفي بذكر شبهتين أو ثلاثة يتعلقون بها، وأرجو أن تنتبهوا معي جيداً؛ لأننا ربما بعد ذلك نختم الدروس قبل الحج بناءً على قرب الاختبارات، ورغبة بعض الأخوة أن نؤجل شرح هذه القصيدة إلى ما بعد الامتحانات، ونظراً لقرب الحج ولحاجتنا للكلام عن الحج؛ لكن الليلة نُبَيِّنُ بعض ما يتعلق بهذا البيت.

أولاً: استدلوا بآية زعموا أنها تدل على مدعاهم؛ وهي قول الله -عزَّ وجلَّ-: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} ^{١٠٥}، وجه استدلالهم أن "كل" تفيد العموم، وكذلك "شيء" تفيد العموم؛ فيدخل القرآن في عموم "كل"، وفي عموم "شيء"، فهنا المشبهة؟

^{١٠٥} [الزمر: ٦٢].

طيب الرد عليها أن يُقال لهم:

أولاً: من سبقكم إلى هذا التفسير؟ فالمقصود أن السلف -رحمهم الله- فهموا من هذه الآية أن الله خالق كل شيء مخلوق، ولا يدخل في ذلك أسماء الله وصفاته، هذا أمر؛ فالأمر مبتدع القول في حد ذاته مبتدع، وتفسير الآية: الله خالق كل شيء مخلوق.

وثانياً: أن "كل" لا تفيد العموم بإطلاق؛ إلا إذا اقتضى السياق ذلك؛ فهي تُقيّد بحسب ما يقتضيه السياق والمقام؛ يدل لذلك ما حكاه الله عن ملكة سبأ بلقيس في قول الله -عزّ وجلّ-: **{وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}**^{١٠٦} هل المقصود أن هذه الملكة لم تفتها شاردة ولا واردة؟ لا؛ وإنما المراد أنها أوتيت من كل شيء تعارف عليه الناس أنه يكون عند الملوك أمثالها؛ فتبين أن كل لا تفيد العموم بإطلاق؛ وإنما بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، عندنا دليل آخر في قول الله -عزّ وجلّ- في الأحقاف: **{تُدْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}**^{١٠٧}، هل الريح دمرت الجبال؟ هل دمرت الأرض؟ هل دمرت الأنهار والبحار؟ هل دمرت المساكن؟

لا؛ وإنما المراد أنها تدمر كل شيء قابل للتدمير؛ مثل بعض المخلوقات؛ كالحوانات وبعض الأشجار، والبشر الذين كتب الله عليهم العذاب؛ وإلا فحتى هذه الأشياء لم يُدمر كل شيء؛ وإنما دُمّر من قدر الله عليه أن يناله هذا العذاب؛ **{كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}**^{١٠٨}؛ فأصبح المعنى تدمر كل شيء قابل للتدمير. يتضح من هذا أن استدلالهم بالآية باطل، وأن المراد أن الله -عزّ وجلّ- خالق كل شيء مخلوق، ولا يدخل تحت ذلك أسماء الله وصفاته، فهمنا بطلان هذه الشبهة؟

^{١٠٦} [النمل: ٢٣].

^{١٠٧} [الأحقاف: ٢٥].

^{١٠٨} [الحاقة: ٧-٨].

طيب، ننتقل إلى شبهة أخرى نختتم بها شبههم؛ قالوا: الله - تبارك وتعالى - يقول: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} ^{١٠٩} سبحان الله! لماذا؟ قالوا: لأن جعل هنا؛ بمعنى: خلق؛ فتكون جعلناه - والمقصود القرآن -؛ بمعنى: خلقناه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.

والجواب: أنه بالرجوع إلى فهم السلف الصالح، ثم فهم أهل اللغة العرب الأقحاح الفصحاء؛ نجد أن هذا المعنى، أو أن هذا الكلام، بعيد كل البعد عن الصواب والحق؛ ذلك أن جعل لها معنيان. صحيح أنها قد تكون بمعنى خلق؛ لكنها أحياناً تكون بمعنى: صير، فإذا كانت بمعنى صير؛ نصبت مفعولين، وإذا كانت بمعنى خلق نصبت مفعولاً واحداً. فإذا كانت بمعنى صير؛ فهذا هو معنى الآية: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} ^{١١٠}؛ أي: صيرناه قرآناً عربياً؛ يعني تكلم به الله قرآناً عربياً، أنزله الله قرآناً عربياً؛ وبهذا جعل التي بمعنى صير تنصب مفعولين، وإذا كانت بمعنى خلق، ولا تدخل في هذا الباب؛ فإنها تنصب مفعولاً واحداً كما في قول الله - سبحانه و تعالى -: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} ^{١١١}، ما معنى هذا؟ وخلق الظلمات والنور، فستان بين الأمرين؛ ولذلك لا شبهة لهم في هذه الآية الكريمة.

ولهم شبه كثيرة لا نجد ضرورة لاستقصائها، ومن أحب أن يستقصيها فليرجع إلى كتب السلف، وعلى رأسها الجزء الخامس والسادس من مجموع الفتاوى، وشرح العقيدة الطحاوية؛ ففيها بيان مفصل لشبههم والرد عليها.

ثمَّ الله - عزَّ وجلَّ - فرق بين الخلق و الأمر، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} ^{١١٢} الأمر ما أمر به بكلامه، بقرآنه، بالتوراة، بالإنجيل؛ ففرق بين الخلق والأمر؛ الأمر المتضمن لكلامه، والخلق هو ما أوجده - سبحانه وتعالى -، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ^{١١٣} نعود إلى مسألة. نعم، أعد البيت.

^{١٠٩} [الزخرف: ٣].

^{١١٠} [الزخرف: ٣].

^{١١١} [الأنعام: ١].

^{١١٢} [الأعراف: ٥٤].

^{١١٣} [الأعراف: ٥٤].

«مَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ قَوْلِهِ .. فَقَدْ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ» كيف استحَلَّ عبادة

الأوثان؟ وضحت ذلك السنة؛ فيما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان بعض أهل العلم يرى وقفه فقط؛ لكن وقفه بطريق صحيح لا مطعن فيه، وحتى الرفع الصحيح أنه يرتقي إلى درجة الصحيح لغيره؛ وهو: ((الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)).^{١١٤}

القدرية هم القائلون بخلق القرآن، وهم المعتزلة، كيف سموا مجوس هذه الأمة؟ يعني هذا تناقض عندهم! العجيب أنهم يقولون في الوقت الذي يقولون: إن القرآن مخلوق، يخرجون المخلوقات عن أن تكون داخلة في قول الله - عز وجل -: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}!^{١١٥} كيف؟! عندما زعموا أن أفعال العباد، ليست مخلوقة لله؛ فأخرجوها من عموم كل في قول الله - سبحانه وتعالى -: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}!^{١١٦}؛ يعني تناقضات عجيبة! وهكذا {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}!^{١١٧}

جعلوا القرآن أدخلوه في عموم "كل"، وزعموا أن أفعال العباد لا تدخل في عموم "كل"، مع أن زعمهم هذا معارض ليس لهذا الدليل فقط؛ وإنما هو معارض للنص وهو قول الله - سبحانه وتعالى -: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}!^{١١٨}؛ لكن نسأل الله العافية، الشبه إذا انطلت على أحد، ودخلت في سويداء قلبه؛ فإنه لم يعد يفهم الحق من الباطل،

«يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مُحِنتِهِ .. حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ»

مرة أخرى. انتبهوا معي، نعود إلى الآية التي زعموا أن القرآن داخل فيها: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}!^{١١٩}. هنا، عندما يقولوا أن الله خالق كل شيء؛ أدخلوا فيه القرآن، بينما أخرجوا

^{١١٤} عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُهُمْ)). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِي.

^{١١٥} [الزمر: ٦٢].

^{١١٦} [الزمر: ٦٢].

^{١١٧} [النساء: ٨٢].

^{١١٨} [الصافات: ٩٦].

^{١١٩} [الزمر: ٦٢].

أفعال العباد من أن تكون مخلوقة لله؛ فقالوا: الله خالق العبد، والعبد خالق فعله؛ لأن الله - عندهم - لا يخلق أفعال العباد؛ لأنه لو خلقها ثم عذبهم عليها كان ظالماً لهم! - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - ونسي هؤلاء المساكين أن الملك كله لله، بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، وهو يتصرف في ملكه، يفعل ما يشاء ويختار، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فتناقضوا بهذا وزعموا أن الله لم يخلق أفعال العباد؛ من هنا سموا مجوس هذه الأمة، وهذا هو معنى قول المصنف أنهم استحلوا عبادة الأصنام والأوثان.

من هم عبدة الأصنام والأوثان؟ المجوس، كم عبد المجوس؟ خالقين؛ ولذلك سمو بالثانوية، عندهم خالقان خالق الخير وهو النور، خالق الشر وهو الظلمة؛ يقولون الخالق ربان: رب الخير هو النور، ورب الشر هو الظلمة، - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -؛ ولذلك سمو مجوساً، القدريّة سمو مجوس هذه الأمة؛ لأنهم كما أن المجوس أثبتوا خالقين؛ فإن القدريّة والمعتزلة؛ القائلين بأن القرآن مخلوق، والقائلين بأن الله لم يخلق أفعال العباد؛ إنما أثبتوا خالقين: الله يخلق العبد، والعبد يخلق فعله، من هنا أشبهوا المجوس؛ فسموا مجوس هذه الأمة.

هذا ما يتعلق بشبهتهم؛ ولذلك «فَقَدْ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ»؛ لأنه عبد خالقين، كما أن المجوس عبدت خالقين، عبدت القدريّة الله، وعبدت معه غيره؛ حيث نسبت خلق العبد إلى الله، ونسبت خلق فعل العبد إلى غير الله، إلى البشر؛ فكذلك المجوس الذين أثبتوا خالقين؛ فقولهم: خالق الخير وهو النور، وخالق الشر وهو الظلمة. من هنا سميت القدريّة مجوس هذه الأمة، وهذا هو المقصود بقول المصنف: «فَقَدْ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ»؛ لأنه إذا زعم أن شيئاً يخرج عن خلق الله فقد عبد الوثن.

هم يقولون يسمونه كلام الله؛ لكن يقولون عنه إنه مخلوق، وإن الله لم يتكلم به حقيقة إنما خلقه وسماه كلامه.

سائل (.....)

هذا من باب أولى

سائل (.....)

لا، هو دليل عليهم قصدك دليل عليهم؟ الأدلة عليهم لا تعد ولا تحصى، القرآن والسنة كلها أدلة عليهم، التعبير بالصنع لم يكن موجوداً عند السلف الأوائل أو التعبير بالصانع؛ لكن بعد أن انتشر علم الكلام قد يعبر به السلف في معرض الرد عن الدهرية، أو في معرض الرد على المنكرين لصفات الله - سبحانه وتعالى -، وخاصة الدهرية الذين ينكرون أن يكون الله هو المتصرف في الكون، ويجعلون أحداً يتصرف معه، فقد يعبرون بالصانع على سبيل الإخبار وهو مرادف لأنه هو الذي أوجد الأشياء وخلقها من العدم، مرادف للخالق، يعبرون بالصانع ويريدون به الخالق، وكما قلت عندما نأتي نعد الأسماء لا نعد الصانع من أسماء الله الحسنى؛ لكن في معرض الإخبار، أو في معرض بيان الحق؛ قد يتنزل مع الخصم في بعض العبارات؛ مثل التعبير بالصانع والقديم وواجب الوجود ونحو ذلك. نعم.

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«مَنْ قَالَ فِيهِ عِبَارَةٌ وَحِكَايَةٌ .. فَعَدَا يُجَرَّعُ مِنْ حَمِيمٍ أَنْ»

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

قال المصنف - رحمه الله -: «مَنْ قَالَ فِيهِ عِبَارَةٌ وَحِكَايَةٌ .. فَعَدَا يُجَرَّعُ مِنْ حَمِيمٍ أَنْ».

يعني: الشيخ - رحمه الله - بأن من حرَّف القرآن، واعتقد أنه ليس كلام الله؛ فهو على خطرٍ إن تعمد ذلك، وقام عليه الدليل؛ فهو متوعد بهذا الوعيد الشديد؛ وهو شرب الماء الآن الحميم الشديد الحرارة، الذي يشوي الوجوه؛ كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْثِبُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ والعياذ بالله، وهذا شأن الكُفَّار المعارضين والمعاندين، ومن أولئك من تعمد تحريف كلام الله - عزَّ وجلَّ -؛ فأوَّل كلامه بأنه مخلوق، أو زعم أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله.

وهذا الأمر يحتاج إلى شيء من التفصيل. انتبهوا معي جيداً؛ لئلاً يفهم الكلام خطأ؛ لأن من وجدت عنده شبهة تأويل من عامة المسلمين ولم يتضح له الدليل؛ فلا ينطبق عليه هذا الوعيد الذي ذكر الشيخ؛ ولكن هذا ينطبق في حق من تعمد بعد أن قامت عليه الحجة، وبعد أن وُضِّحَ له الدليل فأصر، قال ولو قام هذا الدليل؛ فإنه يعتقد إن القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله.

أمّا من لم تقم عليه الحجة، ومن لم يقم عليه الدليل، وقُلْدَ الآباء والأجداد في هذه العقيدة؛ فلا ينطبق عليه هذا الوعيد؛ لأنه لا يكون كافراً حينئذٍ؛ وإنما هو من مبتدعة المسلمين من المسلمين، الذين وُجِدَتْ عندهم هذه البدع فهمنا هذا الأمر؟

يعني الشيخ - رحمه الله -؛ لأنه في أول ظهور مذهب التأويل، وكان جديداً عليه؛ ولذلك شدَّ على هؤلاء، كما شد السلف على الجهمية المعاندة، وأطلقوا عليهم الكفر ففعلاً؛ لأنهم قريبو عهد بالنبوة، والأدلة عليهم قائمة، والحجة واضحة؛ ولذلك أَلَفَ الإمام عثمان بن سعيد الداري كتابه المعروف: (رد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد فيما افتري على الله من التوحيد).

أما لو وجدنا أحداً من الأشاعرة والمائريديّة يتبنون هذا الأمر، ويقولون: القرآن عبارة وحكاية عن كلام الله؛ فإننا لا نعامله بهذه المعاملة؛ وإنما نحاول أولاً أن نُبَيِّنَ له القول الحق بدليله، وأن نُبَيِّنَ له أن هذه الشبهة باطلة، فإذا أصرَّ أحدٌ على الرغم من بيان الدليل له، وقال: لو سمعت أَلَفَ دليل فأنا لن أحيّد على هذا الأمر؛ فهذا هو الذي ينطبق عليه مثل هذا الوعيد، وعليه أن يتجرَّع العذاب جزاء تركه لآيات الله، ولكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتباعه أقوال البشر، واتباعه فلسفة اليونان ومنطقهم، وأدران الفلسفة وأوضار المنطق.

لذلك يا إخوان ينبغي أن نفهم هذه القضية جيداً: الشيخ - رحمه الله - شدَّ على الأشاعرة؛ لأنهم أول ما ظهرُوا في ذلك الوقت، وكان أمراً غير معروف، مع أنه مذهب الكُلابيّة، وليس مذهب أبي الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى -؛ وإنما هو مذهب محمد بن كُلاب، ونسب إلى الأشعري؛ لأنه مرَّ به أن تبناه في طوره الثاني، مع أنه تركه وعاد إلى منهج السلف الصالح - رحمه الله تعالى -.

فمن زعم أن القرآن عبارة عن كلام الله أو حكاية عن كلام الله وأُقيم عليه الدليل، ولم يقبله، وأقيمت عليه الحجة فلم يقبلها، وأصر على هذا الكلام؛ فلا شك في كفره، وأنه ينطبق عليه هذا الوعيد، وأنه متوعّد بالحميم الآن؛ وهو: الماء الحار الشديد الغليان، الذي هو كالمهل

يشوي الوجوه، إذا هو كذَّبَ وعاند، ولم يؤمن بالآيات؛ يقول: أنا لا أقبل الآيات؛ وإنما كذَّبَ وعاند وقال القرآن مخلوق، أو قال إن القرآن ليس كلام الله -عزَّ وجلَّ-؛ فهذا شأنه شأن المشركين الذين أنكروا أن يكون القرآن كلام الله.

فلابدَّ من مراعاة هذا التفصيل والتنبيه له؛ حتى لا نتسرع في تكفير مسلم؛ يعني بعض الناس قد يأخذ مثلاً هذا البيت ويقول إذن هم كفار؛ نقول له: لا، تنبّه. إذا كان الشخص ممن انقدحت في ذهنه الشبهة ولم يفهم الدليل؛ فهذا لعلَّ له عذراً؛ ولكنه مبتدع.

أما من أقيم عليه الدليل، وقال: لا أريد هذا الدليل، أنا أرفضه، وعاند وكابر ولم يقبل هدى الله، وأصر على التحريف والتأويل، على الرغم من ظهور الحجة وبيانها وقيام الدليل؛ فمثل هذا لا يعذر ولا شك مثل هذا غير معذور.

أما من وقع في هذا التأويل لشبهة انقدحت في ذهنه، وهو لم يفهم الدليل ولم تقم عليه الحجة بطريقة يفهمها؛ فمثل هذا لا شك أو نرجو أن يكون معذوراً عند الله -عزَّ وجلَّ- ويترك أمره إلى ربه.

وأما من ينطبق عليه هذا البيت؛ وهو التوعد بالحميم والآل والماء الحار الذي هو من جهنم ومنه الصديد والغسَّاق وما إلى ذلك؛ فمثل هذا ينطبق على هؤلاء الذين لم تُقم عليهم الحجة ولم يفهموها. نعم.

لماذا؟ لأننا نقول لمن قال أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله: تعالى يا مسكين! من الذي عبر عن الله؟ من الذي حكاه عن الله؟ هل الله عاجز عن التعبير -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-؟ ولذلك فإنه ينبغي أن يعتقد المسلم أن القرآن كلام الله الذي تكلم به حقيقة؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء، ولا يُقال أن كلامه هو المعنى القائم بالنفس، ولا يُقال إن كلامه مخلوق، ولا يُقال أنه عبارة أو حكاية عن كلام الله، ولا يُقال أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلماً، كما تقول الكرامية، ولا يُقال أنه تكلم بكل هذه الأمور مرة واحدة، ثم لم يعد بعد ذلك متكلماً، ولا يُقال إنها حروف وأصوات خلقها الله في الهواء،

وسمعتها الناس من الهواء - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-؛ بل هو كلام الله - عز وجل - الذي تكلم به، وسمعه منه جبريل، وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمته. نعم، تفضل.

[المتن]

«مَنْ قَالَ إِنَّ حُرُوفَهُ مَخْلُوقَةٌ .. فَالْعَنَهُ ثُمَّ اهْجُرْهُ كُلَّ أَوَانٍ»

[الشرح]

«مَنْ قَالَ إِنَّ حُرُوفَهُ مَخْلُوقَةٌ .. فَالْعَنَهُ ثُمَّ اهْجُرْهُ كُلَّ أَوَانٍ»

الذين زعموا أن حروف القرآن مخلوقة، هم طوائف؛ منهم: المعتزلة الذين صرحوا بأن القرآن مخلوق، ومنهم آخرون؛ الذين قالوا: إن الله خلق الكلام في الهواء، فسمع جبريل حروف القرآن من الهواء؛ فبلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكلا الطائفتين قد ضلنا سواء السبيل، أو عن سواء السبيل، واتبعوا منطق اليونان وفلسفة الرومان؛ ولذلك جميع كتبهم التي ألفت في هذا الباب تجدها تخلوا من قال الله أو قال رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالذي زعم أن حروف القرآن مخلوقة، خلقها الله كما خلق الأشياء؛ فهذا زعم باطل، وقد بينّا بطلان حججهم في الدرس الماضي أليس كذلك؟ سواء في قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^{١٢٠}، أو في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^{١٢١} أو نحو ذلك، فمن زعم أن القرآن مخلوق؛ فهو كافر، وهذا بشكل إجمالي، وبشكل عام.

فنحن نلعن الجهمية، ونلعن المعتزلة، ونلعن الطوائف المبتدعة؛ لأن الله لعنهم، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنهم؛ ولكن الشخص المعين من هؤلاء لا يجوز لعنه، والشيخ عندما يقول: «فَالْعَنَهُ كُلَّ أَوَانٍ»؛ أي: في جميع الأوقات العنه؛ لأن اللعن هو: الطرد والإبعاد من

^{١٢٠} [الرعد: ١٦].

^{١٢١} [الزخرف: ٣].

رحمة الله - جلّ وعلا-؛ يعني لعن من يقول بهذا الأمر بشكل عام، ولا يعني ذلك لعن المعين؛ بل إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قنت شهراً يلعن رَعْلًا وَذَكَوَان، الذين قتلوا القرّاء^{١٢٢}؛ عاتبه ربه - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^{١٢٣}؛ فكفّ النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنهم، وفعلاً بعضهم قد أسلم بعد ذلك؛ لأن الخواتيم بيد الله - سبحانه وتعالى-؛ ولذلك لعن المعين لا ينبغي.

نحن نلعن مثلاً أكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه؛ لكن يأتيك شخص معين قد وقع في الربا وهو مسلم، تقول له تعال يا ملعون؟ هل هذا يجوز؟ لا يجوز فلعلّ الله أن يتوب عليه في المستقبل؛ لكن تقول: لعن الله أكل الربا؛ وتعني جميع من يصرّ على ذلك نعم، لعن الله أكل الربا.

يقول عليه الصلاة والسلام: ((لَعَنَ اللَّهُ الْمُصَوِّرِينَ))^{١٢٤}، تأتي الآن إلى مصور معين تقول تعال يا ملعون؟ لا.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَةَ، وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحَسَنِ))^{١٢٥} تأتي وتقول لها تعالي يا ملعونة؟ لا، هذا لا ينطبق على لعن المعين. الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدَّثًا، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ))^{١٢٦}، ويقول عليه الصلاة والسلام: ((الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ غَيْرِ إِلَى ثَوْرٍ فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدَّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))^{١٢٧} نلعن الطائفة؛ لكن تأتي إلى شخص تقول: تعال يا

^{١٢٢} عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَنَتَ شَهْرًا يَلْعَنُ رَعْلًا وَذَكَوَانًا وَعُصَيَّةَ عَصَا اللَّهِ وَرَسُولَهُ. أخرجه البخاري ومسلم.

^{١٢٣} [آل عمران: ١٢٨].

^{١٢٤} أخرجه: البخاري ١١٠/٣-١١١ (٢٢٣٨) من حديث أبي حنيفة.

^{١٢٥} البخاري (٢٢١٨/٥) رقم ٥٥٩٨، ومسلم (١٦٧٧/٣) رقم ٢١٢٤.

^{١٢٦} رواه مسلم: ٣٦٥٨.

^{١٢٧} أخرجه: البخاري (٦٦١/٢)، ومسلم (١٧٧١)، ومسلم (١١٤٧/٢)، رقم (١٣٧٠).

فلان! أنت ملعون، لأنه وقع في بعض الأحداث؟ لا، هذا لا ينبغي؛ لأننا لا نعلم الخواتيم، ولا نعلم العواقب؛ ثم إن هذا ليس من الحكمة، إذا أردت أن تنصح أحداً تقول له تعال يا أخي! أنت مسلم - جزاك الله خيراً -، وتعلم قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله المصورين)). فاترك التصوير.

وأنت مسلم، تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله تقيم الصلاة وتأتي الزكاة، فلماذا تأخذ الفوائد الربوية البنكية؟ لأن أكل الربا ما حكمه؟ ملعون؛ لكن لا تأتي فتقول: تعال يا ملعون! فإذا قال لك: لماذا تلعني؟ تقول: لأن الله لعن أكل الربا، أنت بهذا ماذا؟ أولاً: أنت تنفره من دعوته.

وثانياً: أنت لا تعلم عن خاتمته؛ ولذلك الذي عليه التحقيق من كلام أهل العلم: أنه لا يجوز لعن المعين.

طيب، فلذلك كلام الشيخ هنا مقيّد بالطائفة التي تقع في هذا الأمر، لا بالأفراد، هذا مقيد بالطائفة التي تقول أنه عبارة عن كلام الله، وأنه مخلوق؛ لكن لما نأتي للأفراد نتوقف ونترث؛ إلا من علمنا بيقين أنه مات على الكفر؛ مثل: أبي جهل وغيره، وفرعون، وهامان، وقارون، وأبي بن خلف، نحو ذلك؛ هؤلاء نلعنهم ولا كرامة، وعتبة وشيبة بن ربيعة، هؤلاء ملعونون.

فنتنبّه أن هذا اللعن لا نطبقه على الأفراد؛ وإنما نطبقه على من يفعل ذلك على الطائفة التي تفعل هذا الأمر، ولا نعمّمه على الأفراد؛ لأن الأفراد أولاً: نحن لا نعلم خواتمهم.

وثانياً: أنه ليس من الحكمة أن تلعن الأفراد المعينين.

والأمر الثالث: التحقيق في منهج السلف عدم لعن المعين. نعم، تفضل.

[المتن]

«لَا تَلْقَ مُبْتَدِعًا وَلَا مُتَزَنِدًا .. إِلَّا بِعَبْسَةِ مَالِكِ الْعَضْبَانِ»

[الشرح]

«لَا تَلْقَ مُبْتَدِعًا وَلَا مُتَزَنِدًا .. إِلَّا بِعَبْسَةِ مَالِكِ الْعَضْبَانِ» المبتدع هو الذي اتخذ البدعة منهجاً له؛ كالانتماء إلى الطوائف المنحرفة عن الدين، وتبني مناهجها ولو كانوا مسلمين، فإنه ينبغي أن تهجره، وأن تبتعد عنه، وأن لا تؤاكله، ولا تشاربه.

وأما من عنده شيء من البدع ولم تكن البدع منهجاً له؛ فالأولى عدم الهجران؛ لأن ذلك يسلمه للمبتدعة المغرقين، أو لأعداء الإسلام. فإذا كان ممن وقع في بعض الأخطاء أو التأويلات أو البدع ولم تكن تلك البدع منهجاً له يتبناه وينازع عن أهله؛ فلا ينطبق عليه هذا الأمر وهو الهجران والاكفهرار في وجهه، والبعد عنه، وتجنبه وعدم مخالطته.

إذن المسألة فيها تفصيل، أما المتزندق فهذا يُهجر قولاً واحداً، المتزندق هو المنسلخ من الدين، من الذين يستحلون ما حرم الله، وينكرون بعض ما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو تاركي الصلاة، أو نحو ذلك.

المبتدع ولو لم يكن متزندقاً إذا كانت البدعة منهجه وطابعه ومنهج حياته، فابتعد عنه؛ لئلا تكثر سواده، ولئلا تتأثر أو تتأذى ببدعته؛ قال غير واحد من السلف: "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تساكنوهم".

عندما جاء بعض المبتدعة إلى محمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - قالوا: يا أبا بكر! نريد أن نقرأ عليك آية من كتاب الله؛ قال: لا، ولا آية، قالوا: فحديث من أحاديث رسول الله؛ قال لهم: ولا حديث، وإما أن تخرجوا أو أخرج؛ فقال له بعض الجالسين: يا أبا بكر! هلاً سمعت منهم شيئاً من القرآن أو السنة؟ قال: أخشى أن أسمع شيئاً من بدعهم فتقرّ في قلبي" أو كما قال - رحمه الله - . يخشى حتى على نفسه.

والإمام مالك عندما جاءه مبتدع؛ قال: الرحمن على العرش استوى فكيف استوى؟ قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ثم أمر بإخراجه من المجلس.

وآثار السلف في هذا الباب كثيرة، وهذا ينطبق على المبتدعة، الذين هم مؤصلون في البدع. أما الذين وجدت عندهم بعض الأخطاء البدعية، وهي ليست منهجاً لهم؛ فينبغي الترفق معهم والحكمة، لعلهم يستفيدون ويرجعون. أما من أصرّ ورفض سماع الكتاب والسنة وأصرّ على بدعه؛ فهذا يُترك ويُهجّر.

ثم أيضاً يراعى في هذا الهجر المصالح والمفاسد؛ فإن كان هجره قد يوقعه فيما هو أعظم أو يتكثر به سواد أعداء أهل السنة؛ فينبغي عدم الهجر؛ لئلا يتضرر به المسلمون، وإن كان الهجر يؤثر فيه ويكون سبباً في هدايته؛ فإن الأولى هجرانه؛ لعله يرعوي.

ولا أدلّ عن هذا من مسألتين:

المسألة الأولى: قصة كعب بن مالك ورفيقه فإن ما بدر منه لم يكن نفاقاً ولا جحداً ولا عناداً ولا شيئاً من ذلك؛ وإنما هو التسويف، وكان يتمنى كل واحدٍ منهم أنه ذهب بعد أن فات الأوان؛ لكن حصل شيء من التسويف والكسل الذي ندموا عليه - رضي الله عنهم وأرضاهم -، هؤلاء الثلاثة الذين قبلَ الله توبتهم، وأمرهم لم يكن مثل شأن بعض أهل البدع، ومع ذلك فهجروا؛ لأن هنا أولاً: فيه نفع لهم، وفيه تمحيصٌ لهم، وكان سبباً في أن من الله عليهم بالتوبة.

لكن الرجل الذي حصلت منه بعض الأخطاء وكان مراراً يُؤتى به ويُجلد في الخمر، وكان يُضحكُ النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ((لَا تَلْعَنُوهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ))^{١٢٨}؛

^{١٢٨} أخرجه أبو يعلى (١٦١/١ ، رقم ١٧٦) ، والضياء (١٨٤/١ ، رقم ٩٢).

وقال: ((لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَىٰ أَحْيَاكُمْ))^{١٢٩} هل معنى ذلك أنه يؤوي أهل المعاصي؟ لا، حاشا لله؛ ولكن يعامل كل حالة بما يناسبها.

وأيضاً مثل هذا: تركه للمنافقين؛ لئلاً يعود أذاهم على المسلمين من ناحية، ولئلا يتذرع بذلك أعداء الإسلام؛ فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، مع أنه يعرفهم واحداً واحداً، ومع ذلك كان يُداريهم، وفرقٌ بين المداراة وبين المداينة.

المداينة: التنازل عن الحق مع وضوحه وظهوره، وأما المداراة: فهو ترك ما فعله أولى من تركه، ولو لوقت. ((لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حُدْنَاءُ عَهْدٍ بِكَفَرٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، وَلَأَعَدْتُهَا عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِسْمَاعِيلِ)) هكذا يقول صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك ينبغي لطلاب العلم أن يفهموا هذه القضية، بعض طلاب العلم إذا أخطأ أخوه أو زميله، وقع في شيء وربما أنه كان متأولاً أو ناسياً أو جاهلاً؛ قال له: أنا سأهجرك، أنت كرايسسي، أنت مهجور، لا أسلم عليك، لماذا تمشي مع فلان؟! ولماذا تمشي مع علان؟!

وقد وجدنا هذا من صغار الطلبة -وللأسف-، الذين يهرفون بما لا يعرفون، وهذا خطأ، ارجع إلى المشايخ، إلى كبار العلماء يُفتونك في الهجر من عدمه، فقد تقتضي المصلحة عدم الهجر أحياناً، وقد تقتضي الهجر في مسألة أقل منها إذا كان يُؤمل أن تكون سبباً في هداية المهجور. فمسألة الهجر ينظر إليها من زاوية وقاعدة: مراعاة المصالح والمفاسد، ما ينظر إليها من رأيك أو رأيي أنا الخاص وعواطفنا، لا، يا عبد الله! ولذلك كلام الشيخ هنا كلام مقيد بهجره ثم العنه ثم .. هكذا، كلُّ هذا مقيّد بالجمع بين أقاويل السلف، وقبل ذلك بجمع نصوص الكتاب والسنة.

أنا أسألكم سؤالاً: أيهما أعظم جرماً: كعب بن مالك ورفقته -رضي الله عنهم وأرضاهم- أم المنافقين؟ هل هناك مقارنة؟ لا، المنافقون ما شأنهم كفار أو مسلمون؟ كفار، ومع هذا داراهم النبي صلى الله عليه وسلم، والمداراة ليست مداينة ولا موالاة، لا تعتبر مداينة

^{١٢٩} أخرجه: البخاري (٦٧٧٧)

ولا موالاة؛ وإنما تأخير أحياناً ما حقه التقديم لمصلحة تعود على الإسلام والمسلمين، فالسكوت على المنافقين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ليس مDAHنة ولا مجاملة ولا موالاة؛ وإنما بينت لكم الأمرين؛ وهما: أولاً: اكتفاء شرهم وأذاهم، وكذلك ثانياً: لئلا يُقال أن محمد يقتل أصحابه، فيُراعى الوضع الذي يعيشه المسلمون ويُنظر له بعين الاعتبار؛ لذلك ينبغي لبعض صغار طلاب العلم الذين تأثروا ببعض مناهج الحداثة من حيث لا يشعرون، والحمد لله أن هذا الفكر قد ضُغف - إن شاء الله تعالى - بذهاب الحداثة وزمرته؛ لكن مع ذلك قد يوجد تصور عند بعض الناس؛ وهو التسرع في الهجر! فلان أنا ما أسلم عليه ليه؟ لأنه يمشي مع فلان الحزبي. طيب، فلان حزبي أنا معك؛ لكن هلا سألت أحاك لماذا؟ لعله مشى معه يدعوه، هل رأيته يشاركه في بدعته؟ هل رأيته يمارس طقوسه؟ هل رأيته يقع في ما يقع فيه؟

طيب، إذا زرت أنا بعض المراكز التي فيها ما فيها من الدخن، وبخاصة في خارج هذه البلاد توجد مراكز إسلامية فيها دخن ودخن، وأمور تعرف منها وتنكر كثيراً، المسلمون في وضع يحتاجون إلى شيء من المداراة؛ لكن لا تظن يا عبد الله! أن المداراة هي التنازل عن المبادئ! علينا أن نفهم منهج السلف، فرق بين المداراة وبين أن يأتي شخصٌ يذوب مع المبتدعة ويطلب معهم ويرقص معهم ويمارس معهم طقوسهم، وبين شخصٍ قد يذهب إلى فلان ويدعوه إلى الله، قد يُهدي إليه شيئاً من المال؛ إلا إذا وُجدَ احتمال أن هذا المال يعود بالشرب عليه وعلى المسلمين؛ لا، والله لا يجوز هذا

فعلينا أن نفرق بين المداراة، وبين المداينة والموالاة، كما بين الثرى والثرياء، لا يدخل في هذا المعاملة وحسن الخلق مع الناس؛ حتى مع الكفار، والمعاملة الدنيوية، الرسول صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونٌ عند يهودي، وعلي رضي الله عنه كان يمتح الدلاء لليهودية ستة عشر دلوًا، كل دلوٍ بتمرّة.

تنبهوا لهذه الأمور يا إخوان! يجب أن ننظر إلى الشريعة على ضوء مجموع النصوص، لا نمسك بجانب نص على حساب إسقاط نص آخر، كما قد يفهمه البعض.

فالمهجران والبعد عن المبتدعة وبغضهم والتولي عنهم ينبغي إذا كانوا مغرقين مؤصلين في البدع، ودعاة إلى بدعهم، وكانت المصلحة تقتضي ذلك. وأما إذا لم تقتضي المصلحة ذلك؛ فلا بأس من لقاء من تقتضي المصلحة منهم ذلك، بشرط: عدم الذوبان في طقوسهم، وعدم تكثير سوادهم، وعدم الخروج معهم والسير معهم في الذهاب إلى بدعهم التي يمارسونها. أرجو أن تكون هذه النقطة واضحة.

طيب، أما قوله: ينبغي أن تغضب عليه غضب مالك، مالك خازن النار الذي هو مكفهر دائماً ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾^{١٣٠} غاضب لا يعرف الرحمة أبداً، فهو يقول: عليك أن تكره أصحاب البدع، وأن تكفهر في وجوههم، وأن تغضب عليهم غضب مالك خازن النار؛ ولكن هذا يخضع إلى التفصيل الذي بيّناه.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقني وإياكم لما يحب ويرضى.

^{١٣٠} [الزخرف: ٧٧].

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله - تعالى في نونيته:

«وَالْوَقْفُ فِي الْقُرْآنِ خُبْتُ بَاطِلٌ .. وَخِدَاعُ كُلِّ مُذَبَذَبٍ حَيْرَانٌ»

[الشرح]

مازال الشيخ - رحمه الله تعالى - يتكلم عن مسألة القرآن، وأنه كلام الله - عز وجل -، أقول: أن الشيخ - رحمه الله تعالى - تكلم في أبيات تقدمت كثيرة عن موقف المسلم من القرآن، وأنه يجب أن يعتقد أنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وقد تكلم به حقيقة، وأوحى به إلى جبريل، تكلم به حقيقةً وسمعه جبريل بحرف وصوت، وسمعه جبريل من النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم بلغه للأمة؛ فالمكتوب في المصاحف، والمحفوظ في الصدور والمقروء بالألسن هو كلام الله - عز وجل -، وهذا قد تقدم تفصيله فيما مضى.

ومازال الشيخ - رحمه الله تعالى - يحذر من مخالفة هذا المعتقد، ويشير إلى بعض الفرق التي خالفت ذلك، وقد تكلمنا على بعضها فيما مضى، واليوم هو يتكلم عن الواقفة؛ وهي فرقة من المعطلة يرون التوقف في الأسماء والصفات؛ يقولون: نحن نسكت، لا نقول لها معنى، ولا ليس لها معنى، لا نقول ظاهرها مراد، ولا ظاهرها غير مراد، نتوقف في ذلك كله؛ وهذا هو التعطيل بعينه؛ إذ الواقفة من أخطر المعطلة، وكأن القرآن لا يعدو أن يكون ألغازاً وأحاجي لم تُتعبّد بفهمه، وما معنى حينئذٍ - لو سلمنا جدلاً بهذا المذهب الفاسد - ما المقصود بقول الله - عز وجل -: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} ١٣١

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} ١٣٢،
 {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ١٣٣ ما المقصود بذلك؟

إن لم تكن متعبدين بتلاوته وفهم معناه؛ يقول التابعي الجليل أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله تعالى- وقلت لكم غير مرة، فرقوا بينه وبين شبيه له في التسمية، مع الفرق في المذهب؛ فأبو عبد الرحمن السلمي، التابعي المشهور، غير أبي عبد الرحمن السلمي الصوفي الهالك في القرن الرابع؛ لكن أبو عبد الرحمن السلمي تابعي في القرن الأول، تابعي عاصر الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ يقول أبو عبد الرحمن السلمي التابعي -رحمه الله تعالى- يقول: "كان الذين يُقرؤون القرآن عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، لا يجاوزون بنا عشر آيات؛ حتى نتعلم ما فيهن من العلم والعمل" يقول: "فتعلمنا العلم والعمل جميعاً".

إذا الوقف في القرآن بحيث لا يُعتقد بأنه كلام الله الذي تكلم به حقيقة، أو لا يؤمن الشخص بمعاني أسماء الله وصفاته على الوجه الذي يرضيه -سبحانه وتعالى-، هذا الوقف هو عين التعطيل؛ ولذلك وصفه بالخبث، ووصفه بأنه باطل، ووصفه بأنه من الحيرة والشك -نعوذ بالله من الشك والحيرة-، وهكذا شأن أهل الكلام مصيرهم دائماً إلى الشك والحيرة؛ لأنهم انشغلوا بعلم الكلام عن هدي القرآن، والسنة.

«نَهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ .. وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ

وَأُرَوَّاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جِسْمُونَا .. وَأَكْثَرُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالٌ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمْرِنَا .. سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا»

هكذا يقول الشهرستاني -رحمه الله- في وصف نهاية الذين يشتغلون بعلم الكلام والمنطق، ويتركون كتاب الله وسنة رسوله وراءهم ظهرياً.

ويقول الآخر:

١٣٢ [النساء: ٨٢].

١٣٣ [ص: ٢٩].

«لعمري لقد طفت المعاهد كلها .. وصيرت طرفي بين تلك المعالم
 فلم أرى إلا واضعاً كف حائر .. على ذقنا أو قارعا سن نادم»
 يعني: وانتهى بهم الأمر على حيرة، ومنهم من يقول: ها أنا أموت على عقيدة العجائز،
 أو يقول: "أموت على عقيدة أُمي، أو أموت على عقيدة عجائز نيسابور، ومن جرّب مثل
 تجربتي عرف مثل معرفتي"، وهكذا نجد أن علماء الكلام أو أهل الكلام وصل بهم الأمر إلى
 هذه الحيرة ومنها الوقف، التوقف في الفهم، لماذا؟ يقول لك: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
 اسْتَوَى} ^{١٣٤} ما تقول في استوى؟ يقول لك: لا أدري، استوى ما أدري! ليس لها معنى! أو الله
 أعلم لا نقول لها معنى ولا ليس لها معنى، نقول له: طيب هل القرآن كلام الله؟ يقول لك: لا
 أقول ذلك، ولا أنفي، أتوقف! أسكت! هل هذا صحيح؟ بل هذا هو التعطيل بعينه، ولا يجوز
 المصير إليه.

[المتن]

«قُلْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامٌ إِلَهِنَا .. وَاعْجَلْ وَلَا تَكُ فِي الْإِجَابَةِ وَاِنِي»

[الشرح]

«قُلْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامٌ إِلَهِنَا .. وَاعْجَلْ وَلَا تَكُ فِي الْإِجَابَةِ وَاِنِي»

يعني: يجب أن تعتقد ولا تتوقف، كما تتوقف المعطلة، يجب أن تقول أن القرآن كلام الله
 غير مخلوق، وأن تصرح بذلك عاجلاً غير آجل دون تَوَانٍ، ودون تأخر؛ والمقصود بالواني؛
 أي: غير متأخر، لا تكن متأخراً في الإجابة، متى ما سألت عن القرآن؛ قل: هو كلام الله -
 تبارك و تعالى - غير مخلوق، ولا تتردد في الإجابة، ولا تكن متشككاً أو متردداً؛ بل قلها بيقين
 وصدق وأمانة وإخلاص، بأن القرآن كلام الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم،
 تكلم به حقيقة، وسمعه منه جبريل، وألقاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغه الرسول

^{١٣٤} [طه: ٥].

صلى الله عليه وسلم للأمة، المحفوظ في الصدور، المكتوب في المصاحف، المقروء بالألسن هو كلام الله - سبحانه و تعالى -، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؛ فقل: إنه كلام الله غير مخلوق، ولا تتردد في ذلك، وإياك أن ينتابك في ذلك شك أو حيرة أو تردد؛ لأن هذا من شأن أهل الكلام، الذين تركوا كتاب الله وراءهم ظهرًا، واشتغلوا بعلم الفلاسفة سُقراط وبقرات، وغيرهم من الفلاسفة الملاحدة. نعم.

[المتن]

«أَهْلُ الشَّرِيعَةِ أَيْقَنُوا بِنُزُولِهِ .. وَالْقَائِلُونَ بِخَلْقِهِ شُكْلَانِ»

[الشرح]

«أَهْلُ الشَّرِيعَةِ أَيْقَنُوا بِنُزُولِهِ .. وَالْقَائِلُونَ بِخَلْقِهِ شُكْلَانِ»

أهل الشريعة؛ أي: المؤمنون الخُصَّ، الوقَّافون عند كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، الذين لا يتجاوزون القرآن والحديث فيما يجب لله، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه؛ بل يقفون عند حدود النصوص؛ فالعلم عندهم: قال الله قال رسوله مع فهم الصحابة والسلف الصالح لهذا القول؛ أي أعني: لقول الله - عزَّ وجلَّ -، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهم موقنون غير متشككين بأي وجه من وجوه الشك بأنه كلام رب العالمين الذي منه بدأ وإليه يعود، وأنه غير مخلوق.

وبعد أن بين أن هذه عقيدة السلف الصالح التي يجب أن يعتقدها كل مسلم ولا يحيد عنها قيدُ أُملة؛ وهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق، الذي تكلم به حقيقة. نعم، بعد ذلك أخذ يبين مواقف الناس من ذلك؛ أي: من القول في أنه ليس كلام الله، انقسموا إلى قسمين؛ بل إلى أقسام؛ لكن الشيخ يريد أن يذكر أولئك الذين صرحوا بالخلق بدعوى خلق القرآن، والذين قالوا ألفاظًا أخرى، ومردها يعود إلى القول بخلق القرآن؛ كأصحابهم الذين صرحوا، وسيفصلُ ذلك الآن - إن شاء الله - . نعم.

[المتن]

«وَتَجَنَّبِ اللَّفْظَيْنِ إِنَّ كِلَيْهِمَا .. وَمَقَالُ جَهْمٍ عِنْدَنَا سَيِّانٌ»

[الشرح]

عليك أخي المسلم، المستقيم على الجادة، الوقاف على السنة، غير المتجاوز للقرآن والحديث، أن تقف عند ذلك وأن لا تتجاوز القرآن والحديث، الذين قررا أن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وإن الكلام الذي قالته بعض الفرق المتأخرة لا فرق بينه وبين كلام جهنم بن صفوان، الذي صرح بخلق القرآن، سواءً القائلين بأنه خلقه في الهواء فسمع من الهواء، أو القائلين بأنه المعنى القائم بالنفس، أو القائلين بأنه خلقه مرة واحدة ثم لم يعد بعد ذلك يتكلم، أو نحو ذلك من الأقاويل؛ فكلها لا فرق بينها وبين عقيدة جهنم بن صفوان، الذي صرح بالقول بخلق القرآن. وسبق أن فصلت لكم ذلك في دروس ماضية.

فالذين يقولون أنه المعنى القائم بالنفس، أو الذين يتوقفون، أو الذين يصرحون بأنه خلقه في الهواء، أو نحو ذلك؛ هم وجهم سيّان، شقيقان. إذ الكلُّ منهم يؤول به الأمر إلى القول بخلق القرآن؛ ولذلك كل من خرج عن منهج السلف يمكن أن يوصف بأنه جهميّ، أو عنده على الأقل تجهم، أو عنده شيء من مذهب الجهمية، وهذا الذي حدا ببعض السلف أن يقولوا عن بعض المؤولة أنهم جهمية، أو إنه جهمي جلد؛ يعنون أنه وقع في بعض ما وقع فيه جهنم، وإن لم يتبنى مذهب جهنم من كل وجه؛ فلا فرق بين من يقول إن القرآن مخلوق، ويصرح بذلك وبين من يقول إن القرآن هو كلام الله النفسي، والذي عبّر عنه جبريل أو غيره؛ هذا كله يؤول إلى القول بخلق القرآن. نعم.

[المتن]

«يَا أَيُّهَا السُّنِّيُّ خُذْ بِوَصِيَّتِي .. وَاخْصُصْ بِذَلِكَ جُمْلَةَ الْإِخْوَانِ»

[الشرح]

«يَا أَيُّهَا السُّنِّيُّ» هنا ينادي ويدعو إخوانه أهل السنة والجماعة، والمسلم له الشرف بأن يُقال له سُنِّيٌّ، وأن يُقال له سلفيٌّ، وأن يُقال له أنه من أتباع السلف، أو أنه من أهل السنة والجماعة، أو أنه من الجماعة، أو من أهل السنة، أو نحو ذلك من الألفاظ، التي ربما ضاقت بها بعض الأحزاب ذرعاً؛ فعليك أن تثبت، ولا يعينك نعيق الناعقين، وضجيج الضاجين، وصياح الصائحين، السنّة ما وافق الحق ولو كنت وحدك، فالزم السنة.

يقول: يا أيها السُّنِّيُّ! الزم السنة، عليك بطريق السنة إذ أنه طريق الجنة، وانصح باتباع ذلك الطريق، كل من لقيته أو عرفته أو استطعت الوصول إليه من إخوانك في الله الذين يسرون على هذا المنهج؛ ولذلك أمرنا أو طلب منا أن نبين ذلك لكل الإخوان السائرين على هذا المنهج، المنتمين إلى هذا المنهج السلفي السني، ولا يعينك من يتبرم أو يتخوف من هذا اللقب، ولا ننظر إلى من قد يتلقب به وهو لا يمثله؛ فالعبرة بالحقائق لا ببعض البهرجة.

فهنا الشيخ - رحمه الله - يوجه - الشيخ القحطاني - يوجه المسلمين أهل السنة إلى الأخذ بهذا المعتقد، والعرض عليه بالنواجز؛ وهو أن القرآن كلام الله - عزّ وجلّ - وأن يتعد عن الطوائف، التي تخالف هذا المنهج، بغض النظر عن مسمياتها أو ألقابها، أو دعاويها التي تدعيها. «وَكُلُّ يَدْعِي وَصْلاً لِلَّيْلِ .. وَ لَيْلٍ لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَلِكَ» فنحن ننظر إلى الدليل على صدق تلك الدعوى، والدعوى إن لم تقيموا عليها بيّناتٍ أبنائها أدعياء. نعم.

[المتن]

«وَاقْبَلْ وَصِيَّةَ مُشْفِقٍ مُتَوَدِّدٍ .. وَاسْمَعْ بِفَهْمٍ حَاضِرٍ يَقْظَانِ»

[الشرح]

يوصي أخاه السني السلفي، أن يقبل وصية أخ لك في الله، مشفق عليك يجب لك ما يحب لنفسه، ويكره لك ما يكره لنفسه، وقد وصف نفسه بأنه يقظان، وأنه متنبه لما يجري ولما يقول ولما يقرر للتأصيل لمنهج السلف، والرد على منهج الخلف.

ولو قال قائل: أليس هذا من مدح النفس، ومدح النفس ممنوع ومحرم؟ أقول: لا يا عبد الله! ليس هذا من مدح النفس، وإن هذا نظير قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ))^{١٣٥}، ونظير قول الله - عز وجل - حكاية عن يوسف - عليه السلام - {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}^{١٣٦} ونظير قول حسان - رضي الله عنه - عندما هجا الكفار بقوله: «لساني صارم لا عيب فيه .. وبحري لا تكدره الدلاء» عندما قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((اهجهم وروح القدس معك))^{١٣٧}؛ فالمقصود يا عبد الله! أن كون الذي يجيد أمراً من الأمور، أو حتى صنعة من الصنائع، أو علماً من العلوم يُبين للناس الذين يحتاجون إلى أمثاله أنه خبير بذلك العلم، لا رياء ولا سمعة ولا تفاخراً؛ وإنما من باب أنه يقول لهم أنا على يقين مما أقول لكم، وأنا متيقن مما أقول لكم، وأنا على خبرة وعلى دراية مما أقرره لكم بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة التي هي كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا حرج في مثل هذا إذا لم يرد به رياء ولا سمعة.

^{١٣٥} متفق عليه.

^{١٣٦} [يوسف: ٥٥].

^{١٣٧} قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَسَّانَ بْنِ قَابَتٍ: «اهْجِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ» رواه أحمد، وصححه الألباني.

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«كُنْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا مُتَوَسِّطًا .. عَدْلًا بَلَا نَقْصٍ وَلَا رُجْحَانٍ»

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. وَبَعْدُ:

يُبَيِّنُ الشَّيْخُ - رحمه الله تعالى - أن على المرء المسلم أن يتوسط في الأمور كلها دونما زيادة أو نقصان، فخير الأمور أوسطها، وقد وصف الله - تبارك وتعالى - هذه الأمة بالوسطية؛ فقال سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} ^{١٣٨}؛ قال أهل العلم: {وَسَطًا}؛ أي: عدلاً خیاراً، وهذا هو شأن التوسط، فهم وسط بين الأمم: بين تفريط اليهود وإفراط النصارى؛ ولذلك أمرنا الله - تعالى - أن نسلك هذا السبيل الوسط؛ لقوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ^{١٣٩}؛ أي: الطريق المستقيم، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط غير طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود، ولا طريق الضالين، وهم النصارى؛ لأن اليهود ضلوا على

^{١٣٨} [البقرة: ١٤٣].

^{١٣٩} [الفاتحة: ٦ - ٧].

علم فصاروا من المغضوب عليهم، والنصارى ضلوا على جهل؛ فصاروا ضالين؛ لأن بولس الذي هو شاول اليهودي حرّف لهم دين المسيح؛ فاتبعوه، بعد نحو ثلاثة عقود من رفع المسيح -عليه السلام-؛ لذلك امرنا الله بالتوسط.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -أمرًا إيانا بالوسطية- قال: ((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا))^{١٤٠} وقال: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا -أي اسلكوا الطريق الوسط- وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ))^{١٤١}؛ أي: في العبادة، فالْغَدْوَةُ: أول النهار، وَالرَّوْحَةُ: آخر النهار، والدَّلْجَةُ: ظلمة الليل؛ يعني اجتهدوا في العبادة أول النهار وآخره، ولا تنسوا أن تجعلوا لكم وردًا في ظلمة الليل، حينما تخلوا بنفسك مع ربك، الذي يراك حين تقوم، وتقلّبك في الساجدين.

ويقول الله - سبحانه وتعالى - مبينًا وسطية هذه الأمة: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}^{١٤٢}، وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا، ثم خطّ عن يمينه وعن شماله خطوطًا؛ فقال: ((هذا سبيل الله، وتلك هي السبل، وعلى كل سبيل شيطان يدع إليه)).^{١٤٣}

كما أن الأمة وسط بين الأمم؛ فإن أهل السنة وسط بين الفرق الضالة المنحرفة التي ظهرت بين المسلمين، ففي باب أسماء الله وصفاته، وسط بين الجهمية المعطلة وبين الكرامية المُشَبَّهَة، وفي باب الوعد والوعيد وسط بين الخوارج الغالية والمعتزلة، وبين المرجئة المفرطة المستحجلة للمحرمات، وفي باب أسماء الإيمان والدين وسط أيضًا بين الخوارج والمعتزلة، وبين

^{١٤٠} متفق عليه.

^{١٤١} أخرجه البخاري (١ / ٧٨ - ٧٩).

^{١٤٢} [الأنعام: ١٥٣].

^{١٤٣} عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ؛ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا؛ ثُمَّ قَالَ: ((هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ))؛ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: ((هَذِهِ سُبُلٌ)) - قَالَ يَزِيدُ - مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)). ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} رواه أحمد والنسائي والدارمي. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح.

المرجئة. وفي باب الصحابة والخلفاء وسطاً أيضاً بين الخوارج وبين النواصب، وفي أهل البيت وسطاً أيضاً بين الخوارج وبين الرافضة، وهكذا فإن الأمة وسط بين الأمم وإن أهل السنة وسط بين سائر الفرق التي ظهرت في الإسلام؛ ولذلك بينَ هنا أن عليك أن تسلك الطريق الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وأن تباعد عن كل ما يخالفه بعلوٍ أو تقصير بزيادة أو نقصان وهو الذي أراد بـ: «وَلَا رُجْحَانِ»؛ أي: دون زيادة ولا نقصان.

[المتن]

«وَأَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَاحِدٌ .. مُتَنَزَّةٌ عَنْ ثَالِثٍ أَوْ ثَانٍ»

[الشرح]

يُوجِّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن يَعْلَمُوا عِلْمَ يَقِينٍ، لَا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ وَلَا مَرِيةٌ، بِأَنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَاحِدٌ: وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ، وَاحِدٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَاحِدٌ فِي أَعْمَالِهِ، وَاحِدٌ فِي أَلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا التَّنْبِيهَ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ثَبَتَتْ بِاسْتِقْرَاءِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ.

«وَأَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَاحِدٌ .. مُتَنَزَّةٌ عَنْ ثَالِثٍ أَوْ ثَانٍ»؛ لِأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لَا شَرِيكَ لَهُ: لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَعْمَالِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَأَلُوهِيَّتِهِ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تَشْمَلُ مَعْنَى التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ: أَنَّ نَوْْمَنَ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَأَنَّ نَثَبْتَ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، الَّتِي أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ أَوْ أَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ نَفَرَدَهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِالْعِبَادَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: «مُتَنَزَّةٌ عَنْ ثَالِثٍ أَوْ ثَانٍ».

«مُتَنَزَّةٌ عَنْ ثَالِثٍ»: رَدًّا عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، أَوْ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مَرْكَبٌ مِنَ الْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ: الْأَبِ، وَالْإِبْنِ، وَرُوحِ الْقُدُسِ. كَمَا فِيهِ رَدُّ

على اليهود الذين قالوا عزيز ابن الله، والنصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله، والثانوية من المجوس ومن نهج نهجهم، الذين قالوا إن للخلق خالقين: النور خالق الخير، والظلمة تخلق الشر، -تعالى الله عما يقول المشركون والظالمون علواً كبيراً-.

ولذلك فالله -تبارك وتعالى- منزّه عن أن يكون له ثانٍ أو ثالث؛ لقوله -سبحانه وتعالى-: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} ^{١٤٤} {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} ^{١٤٥} {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} ^{١٤٦}؛ إذن يجب إفراده -تبارك وتعالى- بكل ما تحمله كلمة التوحيد والإفراد من معنى، في الربوبية، والألوهية، بالأسماء والصفات.

[المتن]

«الْأَوَّلُ الْمُبْدِي بِغَيْرِ بَدَايَةٍ .. وَالْآخِرُ الْمُنْفِي وَلَيْسَ بِفَانٍ»

[الشرح]

«الْأَوَّلُ الْمُبْدِي بِغَيْرِ بَدَايَةٍ .. وَالْآخِرُ الْمُنْفِي وَلَيْسَ بِفَانٍ»

ثبت في القرآن اسم الأول والآخر، في قول الله -سبحانه وتعالى-: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ^{١٤٧}.

فهو الأول الذي ليس لأوليته لبدايته، والآخر الذي لآخريته انتهاء؛ ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال، في

^{١٤٤} [المائدة: ٧٣].

^{١٤٥} [المائدة: ٧٢].

^{١٤٦} [الأنبياء: ٢٢].

^{١٤٧} [الحديد: ٣].

الدعاء الذي يقال عند النوم: ((اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر))^{١٤٨}، هذا يُقال عند النوم من أدعية النوم الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرسول فسّر المقصود بالأوليّة والآخريّة، وهذا هو الذي عناه المصنف بقوله: هو «الأوّل المُبْدِي بِغَيْرِ بَدَايَةٍ»، الأول الذي بدأ الخلق وليست له بداية، هو خلق الخلق وقادرٌ على إعادته، وليس لأوليّته ابتداء؛ ولذلك قال: «بِغَيْرِ بَدَايَةٍ» بالنسبة له هو، يخترع على غير مثال سابق، يخلق من العدم إلى الوجود، يخلق بكلمة: "كُنْ فيكون" {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}^{١٤٩}؛ ثم قال: «وَالْآخِرُ الْمُفْنِي»؛ الذي يُفني الناس؛ أي: يميتهم بعد أن أحياهم: {قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}^{١٥٠}؛ ولذلك قال: «الْمُفْنِي وَلَيْسَ بِفَانٍ»: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}^{١٥١}.

«وَلَيْسَ بِفَانٍ» لا يمكن أن يفنى؛ قال الإمام الطحاوي - رحمه الله -: "لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد"، وهكذا عبارات السلف تجدونها متقاربة؛ يعني: يوضح بعضها بعض، فمثلاً لو نظرت إلى قول الشيخ هنا - رحمه الله -: «المُبْدِي بِغَيْرِ بَدَايَةٍ» «الْمُفْنِي وَلَيْسَ بِفَانٍ»؛ لوجدتها ترجع إلى قول الله - عزّ وجل - : {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}، وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ)) كلام السلف عليه

^{١٤٨} عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ: ((اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ أَقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ)). رواه أحمد: ٩٢٤٧.

^{١٤٩} [يس: ٨٢].

^{١٥٠} [الحاثية: ٢٦].

^{١٥١} [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

نور؛ لأنه يستند إلى نصوص الكتاب والسنة، وكلام الخلف عليه ظلمة؛ لأنه يستند إلى أضرار الفلسفة وأدران المنطق، التي تعلقوا بها وتركوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ورائهم ظهرياً، وهذا سبب فُرْقَتِهِمْ، وَبُعْدِهِمْ عن الله، يبحثون عن سبب الخلاص، وهو موجود.

«وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ .. قُرْبُ الْحَبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ وُصُولُ
كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا .. وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولٌ»

[المتن]

«وَكَلَامُهُ صِفَةٌ لَهُ وَجَلَالَةٌ .. مِنْهُ بَلَا أَمَدٍ وَلَا حِدْثَانٍ»

[الشرح]

«وَكَلَامُهُ صِفَةٌ لَهُ وَجَلَالَةٌ .. مِنْهُ بَلَا أَمَدٍ وَلَا حِدْثَانٍ»

أي: إن الكلام صفة لله -جل وعلا- يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء. والناس انقسموا في الكلام إلى أكثر من مائة فرقة أشهرها ثلاث أو أربع فرق؛ لأنه بعض الفرق متشابهة؛ وإلا فقد وصل القول في معنى كلام الله تعالى إلى أكثر من مائة فرقة، وهكذا لما بُعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وقعوا في هذا التباين -والعياذ بالله-. أشهرها أربعة:

القول الأول: قول السلف؛ وهو أن الله -عز وجل- يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، بصوت وحرف مسموع، وأنه كلم و يكلم وسيكلم. قال الله -عز وجل-: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ^{١٥٢}، وقال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ

^{١٥٢} [النساء: ١٦٤].

كَلَامَ اللَّهِ^{١٥٣}، وقال تعالى: {لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ}^{١٥٤}، وقال تعالى أيضًا: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}^{١٥٥}، ويقول الرسول الله صلى الله عليه و سلم: ((إذا قضى الله الأمر في السماء تكلم بالوحي أخذت الملائكة رجفة - أو قال رعدة-)).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من حديث خولة بنت حكيم:- ((من قال حينما ينزل منزلاً: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك))^{١٥٦}، وثبت أن الله كلم آدم -عليه السلام-، وكلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكلم نبي الله موسى، وكلم من شاء من أنبيائه، وتكلم بالقرآن، وتكلم بالتوراة، وتكلم بالإنجيل، وتكلم بالزبور؛ فهو يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وأن كلامه غير مخلوق، وهذا مذهب السلف أهل السنة والجماعة.

والمذهب الثاني: مذهب المعتزلة؛ وهو أن كلام الله مخلوق، وأن الله يخلق الكلام ثم يُسمع على خلاف بينهم: هل يُسمع من الهواء أو يُسمع من أي مكان؟ فقالوا -على سبيل المثال:- لما كلم الله موسى خلق الله الكلام في الشجرة، وبعد أن خلق الكلام؛ سمع موسى الكلام من الشجرة -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-، واستدلوا بقوله: {ثُودِي مِنَ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}^{١٥٧}، وهذا كلام فارغ، ولا يستلزم أن يكون الجهة التي سمع منها الكلام هي التي فيها الكلام، أو صدر منها الكلام؛ فالعبرة بالمتكلم لا بجهة الكلام؛ فلو سمعت زيداً يتكلم من خلال شرفة وأنت لا تراه؛ فتقول: هذا كلام الشرفة أم كلام زيد؟ كلام زيد، والله المثل الأعلى؛ فكذلك هنا. أنا لا أدري على هؤلاء المغفلين! الله يقول لهم:

^{١٥٣} [التوبة: ٦].^{١٥٤} [الكهف: ٢٧].^{١٥٥} [الكهف: ١٠٩].^{١٥٦} أخرجه مسلم (٧٦/٨).^{١٥٧} [الفصص: ٣٠].

{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ^{١٥٨}؛ ثم يقولون: لا إن الله لا يتكلم؛ ولكن الشجرة هي التي تكلمت، أو خلق الكلام في الشجرة. سبحان الله! العجيب أن الآية هنا مؤكدة بعدة تأكيدات:

أولاً: "كَلَّمَ" الفعل المضاعف يفيد التأكيد.

ثانياً: أكد بالمصدر المؤكد لفعله، وهو قوله: "تَكْلِيمًا".

ثالثاً: الفاعل، وكذلك المفعول كل منهما اسم ظاهر، فأني عاقل يدرك أن الله هو المتكلم وموسى هو المُكَلَّم، ومع هذا حتى هذه الآية ما سلمت من التحريف. فقد سُمِعَ بشر المريسي يقول: -وأظنه يخاطب أبا عمرو بن العلاء -رحمه الله- أحد القراء-؛ قال له: "ما رأيك لو قرأنا هكذا "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" -تعالى الله عن هذا علواً كبيراً-. طبعاً ما في قراءة بهذا الوضع أبداً؛ لكن مع ذلك تنزل معه أبو عمرو العلاء -رحمه الله- قال له: هب أني سلمت لك بهذه القراءة، وإن كانت غير مسلمة؛ لأنها غير صحيحة، فما كنت تقول في قول الله -عزَّ وجلَّ-: {وَكَلَّمَ رَبُّهُ} ^{١٥٩}؛ فُبْهَتَ المعتزلي؛ لأن {وَكَلَّمَ رَبُّهُ} الفعل قد أخذ مفعوله؛ وهو الضمير؛ فتعيَّن أن يكون الرب هو المتكلم، فلا يمكن أن يُقال فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ؛ لأن الهاء لا يمكن أن تكون من ضمائر الرفع؛ بل هي من ضمائر النصب؛ فُبْهَتَ المعتزل؛ قال: "هب أني سلَّمتُ لك بهذه القراءة، فما كنت تقول في قوله: {وَكَلَّمَ رَبُّهُ}؛ فُبْهَتَ الذي كفر.

المؤكد الرابع: أَنَّهُ لا يخطر، لم يقل بهذا المعنى أحد ممن يُعتدُّ به من أهل اللغة العربية؛ فصارت الجملة تفيد الكلام الحقيقي أم الكلام المعنوي النفسي أو الخلق؟ إنما تفيد الكلام الحقيقي، لما أقول لك: زيد كلمك اليوم تقول له: "نعم كلمني" أو "كلمني تكليماً"، هل يخطر ببالك أنه كلمك بواسطة؟ هل يخطر ببال أحد أنه كلمه بواسطة؟ أبداً؛ وإنما يتبادر إلى الذهن مباشرة الكلام الحقيقي: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} ^{١٦٠}.

ولهم شبه الوقت يطول في..؛ ولكن نحن نذكر مذهبهم باختصار، وزعمهم أن القرآن مخلوق سبق أن رددنا عليه في أبيات سابقة.

^{١٥٨} [النساء: ١٦٤].

^{١٥٩} [الأعراف: ١٤٣].

^{١٦٠} [النساء: ١٦٤].

الشيخ: اقرأ البيت مرة أخرى؛ لأن هنا تنبيه.

«وَكَلَامُهُ صِفَةٌ لَهُ وَجَلَالَةٌ .. مِنْهُ بَلَاءٌ أَمَدٌ وَلَا حَدِّثَانٍ»

هذا لنا عليه تعليق بعد قليل؛ لكن

الفرقة الثالثة: فرقة الأشاعرة والمائريديّة؛ وهم متفقون على أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وسبق أن ناقشنا أدلتهم في دروس سابقة عبر آيات تقدمت أشارت إلى هذا المعنى، وزعموا أن القرآن التوراة والإنجيل عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه.

الفرقة الرابعة: -وسنقف عندها- الكَرَامِيَّة؛ وهي التي زعمت أن الله تكلم بجميع الكلام مرة واحدة ثم لم يعد متكلمًا بعد ذلك. تكلم مرة واحدة بكل ما أراد؛ ثم لم يعد متكلمًا بعد ذلك. هذه بعض أقوال الذين انحرفوا في مسألة الكلام.

وأما الشيخ يُبَيِّن أن الكلام صفة لله وجلالة له؛ قوله: "وَجَلَالَةٌ" إشارة أن المتكلم أجل وأعظم من غير المتكلم، الذي يقدر على الكلام أعظم أم العاجز عن الكلام؟ الذي يقدر على الكلام أعظم؛ فلذلك وصفه بعدم الكلام صفة ذم ولا صفة مدح؟ صفة ذم، والاتصاف بالكلام صفة مدح، لا يوصف بعدم الكلام لغة إلا الأخرس الذي سلب القدرة على الكلام.

انتبهوا؛ لأن هذه القضايا هي التي تدرس في أغلب المعاهد الإسلامية والجامعات الإسلامية إلا ما رحم الله في جامعات هذه المملكة، الذي يُدْرَس في الأزهر وفي غير الأزهر هو الكلام الذي تسمعون أن الكلام؛ هو المعنى القائم بالنفس، وجميع المعاهد في هذه خارج المملكة، لاسيما المعاهد الحكومية الدينية؛ كلها تدرس هذا المذهب، كلها إن ذهبت إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، تجدهم كلهم يقررون أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس،

وبعضهم يصرح بأن الكلام مخلوق؛ ولذلك قال: «صِفَةُ لَهُ وَجَلَالَةٌ» صفة الكلام صفة كمال وجلال لله - جلّ وعلا-، والوصف بعدم الكلام صفة نقص.

أما قول المصنف: «مِنْهُ بِلَا أَمَدٍ وَلَا حَدِّثَانٍ»؛ فهذا يحتاج لشيء من التوضيح، ولعلّ المصنف - رحمه الله تعالى - يقصد بهذا أن الكلام غير مخلوق، وأما كلام الرب - سبحانه وتعالى - فقد يكون في أمد؛ اللهم إلا إن كان المصنف يعني أنه قادر على الكلام أبداً وأزلاً، ونحن نلتمس له العذر في هذه العبارة؛ لأنه يصرح دائماً ببيان عقيدة أهل السنة والجماعة؛ فلا يحمل على أنه أراد "بغير أمد" أن الله لم يتكلم بوقت معين؛ فالله يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء؛ ولكنه لعله يعني بغير أمد ينتهي فيه هذا الكلام؛ يعني أن صفة الكلام صفة ذاتية له باعتبار وفعلية باعتبار آخر.

وكذلك قوله: «وَلَا حَدِّثَانٍ» لعله يعني بذلك أنه غير حادث؛ يعني: غير مخلوق. لا يمكن أن يلتبس غير هذا المعنى من كلام الشيخ، لماذا؟ قد يقول القائل: أنت حملت كلام الشيخ ما لم يحتمل؟ لأنه قرّر قبل ذلك أن كلام الله غير مخلوق. فهمنا؟ لأنه سبق أن قرر في أبيات كثيرة تقدمت أن كلام الله صفة حقيقية له غير مخلوق، ولما قرر هذه القاعدة؛ علمنا أنه لا يعني بقوله: «بِلَا أَمَدٍ» أنه لا يتكلم في وقت معين، وأنه لا يعني بـ: «وَلَا حَدِّثَانٍ»؛ أن كلام الله غير حادث في وقت معين.

يفسر هذا ما قرره السلف من أن الكلام كلام الرب - سبحانه وتعالى - صفة ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار، ما الفرق بين الصفة الذاتية والفعلية؟

الجواب: الصفة الذاتية هي الملازمة للموصوف أبداً وأزلاً، والصفة الفعلية التي تصدر منه في وقت معين، مفهوم؟

فهنا صفة الكلام صفة ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار آخر كيف؟

صفة ذاتية باعتبار قدرة الله على التكلم أبداً وأزلاً، بلا ابتداءً وبلا انتهاءً، بهذا الاعتبار هي صفة ذاتية، وصفة فعلية باعتبار ما تكلم به في أوقات معينة؛ لأنه يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء؛ فقد كلم آدم في وقت معين، وكلم موسى في وقت معين، وكلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في وقت معين، ويكلم المؤمنين يوم القيامة في وقت معين؛ كل ذلك متعلق بمشيئته وإرادته - سبحانه وتعالى - فهو بهذا الاعتبار صفة فعلية، وباعتبار اتصافه بالكلام أبداً وأزلاً بهذا الاعتبار صفة ذاتية.

ولذلك يقولون الكلام قد تجد عبارة: "الكلام قديم النوع حادث الآحاد"، يتكلم بهذا تنزلاً مع الخصم. قديم النوع؛ أي: بالصفة ذاتية بلا ابتداءً وبلا انتهاءً، حادث الآحاد؛ يعني: أفراد الكلام يقع كما شاء في أوقات معينة؛ فهو بهذا الاعتبار حادث؛ وهو المراد بقول الله - عز وجل -: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ} ^{١٦١} مُحَدَّثٌ؛ أي: مُنْزَلٌ في وقت معين، أنزله الله وتكلم به في وقت معين؛ وليس المراد بمحدث أي المخلوق.

فيجب أن نتنبه لهذا البيت؛ لأن قد يكون فيه ملتبس لبعض الناس؛ قالوا: أن الشيخ يقرر بأن كلام الله مخلوق، أبداً، الشيخ باعتبار ما قرر سابقاً لا يعني هذا القصد، ولا يمكن أن يخطر بباله مثل ذلك؛ وإنما يعني أن الله - سبحانه وتعالى - يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وأنه بهذا الاعتبار يمكن أن يعتبر حادثاً وليس مخلوقاً، ويسمى حادثاً بهذا الاعتبار، فلم ينفي الحدث هنا؛ «وَلَا حِدْثَانٍ»؛ أي: لا نقول أنه مخلوق، «بِلَا أَمَدٍ» لا نقول إن الله - عز وجل - ينتهي كلامه عند وقت معين، أو يبدأ عند وقت معين؛ فلذلك دائماً إذا وجدتم عبارة للسلف توهم غير المراد؛ فاجمعوا بينها وبين عبارته الأخرى. إذا كان يقرر الحق في هذه المسألة؛ فلا تحمل كلامه على غير الحق. أما إذا كان من المؤولة فمعلوم ماذا يقصد؛ لذلك لو قال هذا الشطر معترلي؛ لعرفنا ماذا يقصد «بِلَا أَمَدٍ وَلَا حِدْثَانٍ»؛ أي: يقصد أن كلام الله لم يكن صفة فعلية؛

^{١٦١} [الأنبياء: ٢].

لأنه قاله أحدٌ من المؤولة؛ لقلنا أنه ينفي الصفات الفعلية؛ لكن عندما يقوله سُنِّي سلفيٍّ - مثل الشيخ - نحمله على ما قرره من قاعدةٍ سلفاً؛ حتى لا يفهم أحدٌ تناقضاً في كلامه.

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«رُكْنُ الدِّيَانَةِ أَنْ تُصَدَّقَ بِالْقَضَا .. لَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ بِلَا أَرْكَانٍ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«رُكْنُ الدِّيَانَةِ أَنْ تُصَدَّقَ بِالْقَضَا .. لَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ بِلَا أَرْكَانٍ»

القضاء والقدر؛ القدر: ما قَدَّرَهُ الله -تبارك وتعالى- وكتبه على البشر قبل خلق السموات والأرض؛ والقضاء تنفيذ أو نفوذ ذلك القدر؛ فالإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة، لا يصحُّ الإيمان إلا به، فلو آمن بالأركان الخمسة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يؤمن بالقدر؛ فلا إيمان له؛ لأنه ركن؛ والركن هو جانب الشيء الأقوى، هذا هو معناه اللغوي.

ومعناه الاصطلاحي: هو ما يلزم من وجوده وجود، ومن عدمه العدم؛ يعني إذا انتهى الركن وسقط؛ سقط البناء.

«والبيتُ لا يُبْنَى إلا له عَمَدٌ .. وَلَا عِمَادٌ إِذَا لَمْ تُرْسَى أَوْتَادُ»؛ كما يقول الأفوه الأوديُّ الشاعر المعروف، «البيتُ لا يُبْنَى إلا له عَمَدٌ .. وَلَا عِمَادٌ إِذَا لَمْ تُرْسَى أَوْتَادُ»، وقبل هذا وذاك يقول الله -عزَّ وجلَّ-: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ

مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} ^{١٦٢}، فلا بدَّ من تحقيق هذه الأركان؛ ومنها: الإيمان بالقضاء والقدر؛ ولذلك جاء في الصحيحين من حديث جبريل - عليه السلام -، وقصة مجيئه إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي يرويه الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم، جاء فيه: ((قَالَ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؛ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) ^{١٦٣}.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن الإيمان بأربعة أمور؛ وهي التي يسميها العلماء المراتب؛ مراتب القدر.

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الشامل؛ علمه الأبدي الأزلي؛ فإنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، علم الأشياء قبل كونها؛ وهذه المرتبة قلَّ من يخالف فيها؛ إلا الدهريَّة القُدَامِي، ومن شايعهم من الماديين المعاصرين؛ والمزدتيين واللينيين الاستاليين الماركسيين؛ الذين يقولون لا إله والحياة مادة، وسبقهم إخوانهم الدهريون الذين يقولون: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر؛ فهؤلاء قَلَّةٌ؛ فالعلم؛ علم الله الأبدي الأزلي القديم أمرٌ مركوز في الفطر.

والثاني: الكتابة والتقدير، كتب الله مقادير الأشياء أو جميع الأشياء قبل خلق السموات والأرض؛ كما قال الله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ^{١٦٤}.

وقال الله - عزَّ وجلَّ -: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} ^{١٦٥}.

^{١٦٢} [التوبة: ١٠٩].

^{١٦٣} رواه البخاري ومسلم.

^{١٦٤} [الحديد: ٢٢].

^{١٦٥} [الرعد: ٣٩].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) وقال في حديث آخر: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ؛ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ؛ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؛ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ))^{١٦٦}.

المرتبة الثالثة: المشيئة؛ هو اعتقاد العبد بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، مشيئة الله النافذة؛ قال الله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}^{١٦٧}؛ وقال تعالى: {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}^{١٦٨}، وقال تعالى: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}^{١٦٩}؛ فالمشيئة العامة النافذة؛ وهو أن كل شيء لا يخرج عن مشيئة الله، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}^{١٧٠}، {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}^{١٧١}؛ فالله -تبارك وتعالى- يفعل ما يشاء ويختار.

والمرتبة الرابعة: الخلق وفق تلك المشيئة، وفق ذلك القدر، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا}^{١٧٢}، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}^{١٧٣}، {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}^{١٧٤}، {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}^{١٧٥}.

فالخلق يجري وفق تلك المشيئة، ووفق ذلك القدر، ووفق تلك الكتابة، ووفق ذلك العلم، وكما نبّه المصنف أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، لا يتم الإيمان إلا به؛

^{١٦٦} رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني.

^{١٦٧} [التكوير: ٢٩].

^{١٦٨} [هود: ١٠٧].

^{١٦٩} [الفصص: ٦٨].

^{١٧٠} [التكوير: ٢٩].

^{١٧١} [الأنعام: ٣٩].

^{١٧٢} [الفرقان: ٢].

^{١٧٣} [الرعد: ١٦].

^{١٧٤} [القمر: ٤٩].

^{١٧٥} [القمر: ٥٠].

ولذلك سمى النبي صلى الله عليه وسلم منكري القدر مجوس هذه الأمة؛ وقال: ((إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ))^{١٧٦}. جنائزهم.

ما وجه تشبيههم بالمجوس؟

لأنهم أثبتوا خالقين؛ قالوا: الله خالق العبد، والعبد خالق الفعل، والمجوس أثبتوا خالقين النور والظلمة، النور تخلق الخير، والظلمة تخلق الشر من هذا الوجه، أشبهوا المجوس. {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}^{١٧٧}؛ فردَّ الله عليهم بأنه خالق كل شيء.

ولذلك نرى عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- لما أخبر عن ظهور معبد الجهني وغيلان الدمشقي وغيرهما من القدرية؛ قال: إذا لقيتهم فأخبرهم أن ابن عمر بريء منهم؛ ثم ذكر الحديث؛ حديث الإيمان بالقدر، وقال ابن عباس -رضي الله عنه- عن غيلان ومعبد: "لئن ظفرت به لأدقن أنفه" ثم أخبر عبد الله بن عمر أنهم لو أنفقوا مثل أحد ذهباً ما تُقبِلَ منهم؛ حتى يؤمنوا بالقدر.

فالحلاصة أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الدين، وسيأتي مزيد بيان لمواقف الفرق من القدر -إن شاء الله تعالى-. نعم.

[المتن]

«اللَّهُ قَدْ عَلِمَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَا .. وَهُمَا وَمَنْزِلَتَاهُمَا ضِدَّانِ»

[الشرح]

^{١٧٦} قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ)) رواه أبو داود عن ابن عمر -رضي الله عنهما. وحسنه الألباني.
^{١٧٧} [الرعد: ١٦].

«اللَّهُ قَدْ عَلِمَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَا .. وَهُمَا وَمَنْزِلَتَاهُمَا ضِدَّانِ» السعادة لأهل الإيمان ومنزلتهم الجنة، والشقاوة لأهل الكفر ومنزلتهم النار، يشير الشيخ هنا إلى العلم؛ علم الله الكامل؛ وهي المرتبة الأولى من مراتب القدر التي أشرنا إليها؛ فالله عالمٌ بأن هذا شقي وهذا سعيد قبل أن يخلق السموات والأرض، وقدَّر للنار أهلاً وللجنة أهلاً، وعلم ما هم عاملون؛ فيجب الإيمان بذلك والتسليم له والإذعان له، {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ١٧٨.

«وَهُمَا وَمَنْزِلَتَاهُمَا ضِدَّانِ» «هُمَا» أي: الشقاوة والسعادة، «مَنْزِلَتَاهُمَا» أي: الجنة والنار؛ فالسعادة ضد الشقاء، والجنة ضد النار؛ ولذلك أخبر أنهما «ضِدَّانِ» والضدان لا يجتمعان.

فإذن لا بدَّ من الإيمان بذلك، وأن الله كتب الشقاوة والسعادة على جميع البشر، وعلم ما هم عاملون إلى يوم القيامة؛ كما جاء ذلك في النصوص الصحيحة الصريحة، وإذا ولد العبد أو إذا بلغ أربعة أشهر، أُرسل إليه ملك فكتب أربعة أشياء: رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، يكتب هذه الكلمات الأربع ذلك الملك؛ وهي مكتوبة في الأزل في القدر العام؛ ولكن هذا قدر آخر، قلم آخر يجري بما هو كائن في هذه الحياة غير القلم الذي كُتبت به الأشياء قديماً، فما من نفس منفوسة إلا قد علم الله أجلها وسعادتها أو شقاوتها ورزقها.

طيب، لو قال قائل من المتحذلقة: مادام ذلك قد كتب وعلم فما فائدة العمل؟ ولماذا نعمل؟ إبليس قد يأتي للإنسان ويقول له ذلك الكلام؛ يمكن أن يحتج -مع أنه ليس له حجة على الله- لو أنه يعلم ما قُدِّر له، أما وأن القدر سر الله في خلقه؛ فإن الواجب على العبد العمل، وكلُّ مُيسر لما خلق له، وقد أعطاه الله عقلاً واختياراً يميّز به بين الأشياء، ويعرف به الخير من الشر، والخبيث من الطيب، والطريق المستقيم من الطريق المعوج، فإذا عصى عصى

على بصيرة، وإذا أطاع أطاع على بصيرة، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ^{١٧٩}؛ ولذلك فإن القدر سر الله في خلقه. فعلى المسلم أن يكون قويَّ الإيمان بالقدر، وكثرة الخوض فيه تؤدي إلى المزالق التي لا تحمد عقباها؛ يقول بعض السلف: "نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ثم نظرت فتحيرت، ثم نظرت فوجدت أكثر الناس إيمانًا به أقلهم خوضًا فيه، وأكثرهم شكًا فيه أكثرهم خوضًا فيه". مهما فكرت سيعود البصر خاسئًا وهو حسير؛ لكن المؤمن الذي ينشرح صدره بالإيمان إذا وسوس له الشيطان؛ قال: آمنتُ بالله؛ ثم أقلع، الشيطان قد يوسوس للإنسان حتى يقول له من خلق الله؛ كما جاء ذلك في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك الصحابة على فضلهم ذكروا أنهم قد يجدون في أنفسهم شيء يقولون: يا رسول الله! إنا نجد في أنفسنا ما لا نستطيع أن نتكلم به؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ذَلِكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ)) ^{١٨٠}، ما هو محض الإيمان؟ كونك تستعظم أن تتكلم به وترتعد فرائصك لو أن نفسك حدثتك بالكلام به؛ فتقول: آمنتُ بالله، وتعود إلى الله -عزَّ وجلَّ- وتتوكل عليه، وتكلُّ أمورك إليه، وتقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ فإن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء؛ لذلك خصوصًا في باب القدر قد تجد وسوسة كثيرة، سبب ضلال من ضل أنهم سطروا الوسوسة، تكلموا بها وكتبوها، كل ما توسوس به أفكارهم من زبالة يكتبونه أو ينطقون به، من هنا وقعوا في الخطور، الصحابة يقولون نحن نجد في أنفسنا ما لا نستطيع أن نتكلم به؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ذَلِكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ))، كونك تستعظم أن تتكلم به وترتعد فرائصك ويرجف قلبك ويرتعد جسمك وتقول: آمنت بالله وتعود إلى الله -عزَّ وجلَّ- وترتبط به، هنا يتجلى الإيمان الصحيح بالقدر، آمنت بالله، تكف عن الخوض وعن التفكير الذي يطيش بك هنا وهناك؛ وتقول: آمنت بالله، وتقف عند هذا الحد، وأكثر ما ضلَّ الناس قديمًا وحديثًا: بـ "لَمْ وَكَيْفَ" بعض

^{١٧٩} [فصلت: ٤٦].

^{١٨٠} عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْوَسْوَسَةِ؛ قَالَ: ((تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ)). رواه مسلم: ١٨٩.

الناس يسأل لم لم لم...؛ حتى يقع -والعياذ بالله- في الشرك فيقع في عقيدة أهل الكلام؛ الذين يقولون: أول واجب على المكلف النظر أو الشك -والعياذ بالله-.

لذلك بعض الكُتَّاب وقعوا في بلاوي ظنوا أنهم قد اهتدوا وهم انتقلوا من شك إلى شك، أحدهم له كتاب اسمه: (الرحلة من الشك إلى اليقين) وهي الرحلة من الشك إلى الوسوسة؛ ولذلك هو يقرر في برنامجه الإذاعي أو التلفزيوني، يقرر وحدة الوجود ويقول: إن كل شيء في الوجود هو الله؛ فرحل من الشك عقيدة الشيوعية إلى عقيدة ابن عربي اللعين عقيدة أصحاب وحدة الوجود؛ فهي رحلة من شك إلى شك {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} ^{١٨١}؛ لأنهم جعلوا الإسلام فكر، ودائمًا يتحدث بعض الكتاب يقول: الفكر الإسلامي، أو المفكر الإسلامي، أو فكر الإسلام؛ الإسلام ليس فكرًا، الفكر زبالة الأذهان، الإسلام وحيٌ ودين سماوي: كتاب وسنة؛ ليس فكرًا.

كانت هناك مادة تدرس في بعض المعاهد تحت عنوان: (الفكر الإسلامي) أي فكر يا أخي!؟ الإسلام ليس فكرًا، الفكر هو الذي يكون وليدة عقل تَوَلَّدَ عن عقل، وبعضهم يقول: الفكرة الإسلامية، كأن الإسلام فكرة فُكِّرَ بها واحد من الناس وجاء بها! لا يجوز أن نقول فكر إسلامي، ولا الفكرة الإسلامية؛ الإسلام ليس فكرًا، الإسلام وحيٌ إلهي، قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم، كلمة الفكر الإسلامي ترى^١ جاءنا من الغرب ويردد بعض الذين يدرسونها مكافحة التبشير، وهم يرسون الآن الرد على التبشير، والرد على الغزو الفكري، وتجد في كتبهم الفكر الإسلامي! وفكر الإسلام! هذا جهل الإسلام ليس فكرًا يا عبد الله! الإسلام وحيٌ إلهي متمثل في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. نعم.

[المتن]

^{١٨١} [النساء: ٤٨].

«لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ لِنَفْسِهِ .. رُشْدًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى خِذْلَانٍ»

[الشرح]

«لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ لِنَفْسِهِ .. رُشْدًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى خِذْلَانٍ» هذا متعلق بالمسألة السابقة؛ وهي والإيمان بالقضاء والقدر؛ وهو أننا جميعاً ملكٌ لله - عزَّ وجلَّ -، والله - عزَّ وجلَّ - يفعل في ملكه ما يشاء لا رادَّ لقضائه، ولا معقَّبَ لحكمه؛ فالمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله الله، والقويُّ من قوَّاه الله، والضعيف من أضعفه الله، وهذا لا يتعارض مع كون المسلم يجتهد في فعل الأسباب التي تقويه وتبعده عن الضعف و((الْمُسْلِمُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُسْلِمِ الضَّعِيفِ فِي كُلِّ خَيْرٍ))^{١٨٢}، الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ فَيَحْتَضِبَ خَيْرٌ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))^{١٨٣}؛ لكن المقصود يا عبد الله! أننا جميعاً ملكٌ لله والله - عزَّ وجلَّ - يتصرف في ملكه {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}^{١٨٤}، يوم القيامة يأتي على الأولين والآخرين والجميع كأن على رؤوسهم الطير؛ فيقول: لمن الملك اليوم؟ بعد أن يموت الجميع فلا محيب يقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}^{١٨٥}، فنحن وما نملك ملكٌ لله، والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء، فلا تحزن إذا فاتك شيء من لعاة الدنيا وأمورها، ولا تفرح إذا أعطاك شيء منها، وأعلم أن الذي أغناك اليوم قادرٌ على أن يفقرك غداً، والذي أفقرك اليوم قادر أن يغنيك غداً، وربما كان

^{١٨٢} عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ)) رواه مسلم: ٤٨١٦.

^{١٨٣} عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَضِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ)) أخرجه البخاري: ١٣٧٧.

^{١٨٤} [آل عمران: ٢٦].

^{١٨٥} [غافر: ١٦].

صلاحك في الفقر، من الناس من يكون صلاحه في الفقر وآخر يكون صلاحه في الغنى، والله -تبارك وتعالى- يؤتي ملكه من يشاء، فلا تحزن إذا فاتك شيء، ولا تفرح إذا أعطاك شيء {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} ^{١٨٦} {لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} ^{١٨٧}.

فالمسلم عليه أن يرضى بقضاء الله وقدره، وأتينا جميعاً ملك الله، والله يتصرف في ملكه حيث يشاء، له ما أخذ وله ما أعطى، لا تعترض على حكم الله إذا قدر الله عليك أو فقدت من تحب، أو فقدت أحد أقاربك، أو فقدت شيئاً من مالك بطبيعة الإنسان يتأثر؛ لكن المهم أن يرضى ويسلم بقضاء الله وقدره، ويصبر إن الله مع الصابرين {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ^{١٨٨}.

^{١٨٦} [القصص: ٧٦].

^{١٨٧} [الحديد: ٢٣].

^{١٨٨} [البقرة: ١٥٦].

شرح نُونيَّة القطَّانيِّ

لفضيلة الشيخ الدكتور:

صَالِحُ بْنُ سَعْدِ السُّحَيْمِيِّ

موجّه الدعاة بفرع وزارة الشؤون الإسلامية
بالمدينة النبوية، والمُدَرِّس بالمسجد النبويِّ

الأشرطة العشرة الثالثة

[الشريط الحادي والعشرون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونته:

«سُبْحَانَ مَنْ يُجْرِي الْأُمُورَ بِحِكْمَةٍ .. فِي الْخَلْقِ بِالْأَرْزَاقِ وَالْجِرْمَانِ»

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

ما زَالَ المصنَّفُ -رحمه الله تعالى- يُواصل الكلام عن مسألة الأقدار والحكمة الإلهية المتعلقة بذلك، فهو ما زال ولا يزال يُجري الأمور على مقتضى حكمته النافذة؛ يقدِّر الآجال ويقدِّر الأرزاق، ويقدِّر الشقاوة والسعادة وفق ما قدره في الأزل، يجريها وفق ما قدرها في الأزل، وفق ما قدرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعلمها قبل ذلك بلا ابتداء.

فهو يُجري الرزق والخلق والأجل والعطاء والمنع، والرزق والحرمان، كلُّ ذلك يجري عنده لحكمة بالغة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾¹

فهو أولاً: لا يُسأل عما يفعل سبحانه وتعالى.

وثانياً: ما فعل شيئاً إلا لحكمة، وليس من اللازم حتى نعبد الله أن نعرف الحكمة في الأمر المعين، ويكفي أننا نعلم أننا خلقنا لعبادته مع إيماننا أن كلَّ شيء خلقه -سبحانه وتعالى- لحكمة بالغة، فلا يسعنا حينئذ إلا الامتثال.

وبناءً على ذلك فإنَّ من رزقه الله غنى وسعة رزق، فليحمد الله على ذلك وليشكره بأداء حقوق تلك النعم؛ من الإنفاق في وجوه الخير، وأداء الزكاة ونحو ذلك، وأن يصبر إذا ابتلي بضيق بقلة ذات اليد أو شظف العيش أو ضيق الرزق فليرضى بقضاء الله وقدره، وليعلم أنه لن

¹ [الرعد: 8].

يموت؛ حتى يستكمل رزقه وأجله في هذه الحياة، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾²، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾³.

فإذا أيقن المسلم بذلك، رَضِيَ وسَلَّمَ للقضاء وانقاد، ورضي بما قَسَمَ الله له؛ بل يُسَلِّم ويرضى ولا يكن ممن قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾⁴.

كم من فقير مكتوب من أهل الجنة! وكم من غني باذخ يعيش في غلاء وفي أبهته وهو مكتوب من أهل الشقاء! وقد يوجد الغني الشاكر والفقير الصابر، ولا نرى جدوى للخوض في أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟ فالكل قد وفقه الله -تبارك وتعالى- للخير؛ ولذلك عندما جاء بعض فقراء الصحابة إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا: ((يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور))؛ يعني: أهل الأموال الكثيرة ذهبوا بالأجر ((يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم))، قال صلى الله عليه وسلم: ((أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟ إن في كل تكبيرة صدقة، في كل تحميدة صدقة، في كل تهليلة صدقة، والأمر بالمعروف صدقة، والنهي عن المنكر صدقة)) إلى آخر الحديث فلما فعلوا ذلك فعل الأغنياء مثلهم؛ قالوا: ((يا رسول الله! رأونا نفعل هذا ففعلوا مثلنا))؛ قال: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)).

فإذا علمت أن الرزق بيد الله، والله خير الرازقين، لا رازق لمن منع ولا مانع لما قدر، إذا أيقنت بذلك سلّمت من آفات كثيرة؛ ومنها: القلق وضيق النفس الذي ينتاب من لم يتحلوا بالصبر عند البلاء والشكر عند النعماء، فإن عنوان السعادة التي يجب أن يتحلى بها المؤمن أنه إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، هذا هو شأن المؤمن الحق المحسن الذي بلغ درجة الإحسان إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، جعلني الله وإياكم منهم. نعم، تفضل.

² [الأعراف: 34].³ [هود: 6].⁴ [الفجر: 15-16].

[المتن]

«نَفَذْتُ مَشِيئَتَهُ بِسَابِقِ عِلْمِهِ .. فِي خَلْقِهِ عَدْلًا بِلَا عُدْوَانٍ»

[الشرح]

«نَفَذْتُ مَشِيئَتَهُ بِسَابِقِ عِلْمِهِ»؛ بمعنى: أن الدرجة الثالثة من مراتب القدر؛ هي: المشيئة بحدوث ما قدّره - سبحانه وتعالى - في الأزل وعلمه قبل أن يُقدّرَه وقبل أن يكتبه، هو قدره في سابق علمه كما ذكر الشيخ وكما دل على ذلك القرآن والسنة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾⁵ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾⁶.

فكلُّ شيءٍ يجري بقضاء الله وقدره، فإذا آمنت بالعلم ثم آمنت بالقدر؛ لزمك أن تؤمن بالدرجة الثالثة؛ وهي المشيئة التي تجري وفق ذلك القدر السابق في علم الله - سبحانه وتعالى -، فإنه بكل شيءٍ عليم، علمٌ أزليٌّ أبديٌّ لا يعتريه نقص بحالٍ من الأحوال.

ولذلك فإن كل ما يجري إنما يجري بما كان في علم الله، وما قدّره الله في الأزل، وما كتبه في اللوح المحفوظ من المصائب من الفقر، من الغنى، من الحياة، من الموت، من الولادة، من فقد المحبوب مما إلى ذلك، كلُّ ذلك يجري بقضاء الله وقدره وفضله سواء كان في ذلك الشقاوة أو السعادة، فما يجري من المشيئة إنما هو عدل الله - تبارك وتعالى -، والله - عزَّ وجلَّ - لا يفعل إلا عدلاً، ولا يخلق إلا بالعدل، ولم يُقدّر إلا العدل؛ إذ أنه هو الحكم العدل سبحانه، لا يمكن أن يُوصف بغير ذلك؛ ولذلك قال إن تلك الأقدار وتلك المشيئة تجري عدلاً منه بلا عدوان بلا ظلم؛ لأن ضد العدل هو الظلم والله - سبحانه وتعالى - منزّه عن الظلم؛ بل هو الحكم العدل الذي يعدل في الأمور كلها لا يظلم مثقال ذرة البتّة.

فإذا علمنا أنه حكمٌ عدلٌ وأنه منزّه عن الظلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾⁷ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁸ وما إلى ذلك؛ علمنا أن كل ما يجري وكل ما يقدر الله -

⁵ [القمر: 149].⁶ [الفرقان: 2].⁷ [فصلت: 46].

سبحانه وتعالى- هو عدل وحكمة بالغة حتى لو بدا لنا في ظاهره شر فإنه شر نسبي؛ ولذلك لا يُنسب الشر إلى الله -سبحانه وتعالى-؛ فيقال: ((والشر ليس إليك، والخير كله بيدك)) ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾⁹ فمشيئة الله النافذة تجري وفق عدله وحكمته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، يخلق ما يشاء، يرحم من يشاء فضلاً منه ومِنَّةً، ويُعَذِّبُ من يشاء عدلاً منه وقسطاً. نعم.

[المتن]

«وَالْكُلُّ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مُسَطَّرٌ .. مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نُقْصَانٍ»

[الشرح]

«وَالْكُلُّ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مُسَطَّرٌ .. مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نُقْصَانٍ»

أَمُّ الْكِتَابِ: هو اللوح المحفوظ؛ كما يقول الله -عزَّ وجل-: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾¹⁰، فقد أودع في أَمِّ الْكِتَابِ مقادير كل الأشياء، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾¹¹، وكما قال تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾¹²، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾¹³.

فلذلك فإن كل ما يجري إنما يجري وفق ما سطره الله -عزَّ وجل- في أَمِّ الْكِتَابِ؛ خلق الجنة وخلق لها أهلاً ويسر أهلها لليسرى، وخلق النار وخلق لها أهلاً ويسرهم للعرسى، خلق

⁸ [النحل: 118].⁹ [النساء: 79].¹⁰ [الرعد: 39].¹¹ [الأنعام: 38].¹² [الإسراء: 58].¹³ [الحديد: 22].

كل شيء، وما دام الأمر كذلك فنحن -أيها العبيد- مطالبون بأن نُدْعِن وأن نَسَلِّم لقضاء الله وقدره، وأن نرضى بما قسم الله -تبارك وتعالى- لنا. نعم.

[المتن]

«فَاقْصِدْ هُدَيْتَ وَلَا تَكُنْ مُتَغَالِيًا إِنَّ الْقُدُورَ تَفُورُ بِالْغَلْيَانِ»

[الشرح]

«فَاقْصِدْ هُدَيْتَ»؛ أي: الزم الطريق الوسط الذي لا اعوجاج فيه، في كل شيء، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾¹⁴.

والقسط: هو العدل والطريق الوسط، القسط هو العدل والطريق الذي لا اعوجاج فيه ولا أمّتا؛ والمقصود أن المسلم يجب عليه أن يسلك صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فقد ضُرب لذلك مثلاً عربياً في الخروج عن القصد لمن كان مُغَالِيًا، فكل شيء بلغ الحد انتهى؛ ولهذا نُهينَا عن الغلو في كل شيء؛ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾¹⁵.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرمي الجمرة بمثل حصي الخذف ((بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو))، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: ((إن هذا الدين يُسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدلجة))، يقول عليه الصلاة والسلام: ((يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا))، ويقول عليه الصلاة والسلام: ((هلك المتنعون))؛ أي: الغلاة المتجاوزون لحدود الله، في أي شيء، الغلو حتى في الدين لا يجوز. رأى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً ضاحياً في الشمس فسأل عن حاله قالوا: إنه نذر أن يصوم ضاحياً؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مُرُوهُ فَلْيَسْتَظِلْ وَلْيَقْعِدْ وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ)).

¹⁴ [لقمان: 19].

¹⁵ [النساء: 171].

فالغلو في كل شيء ممنوع، كما أن التفريط ممنوع، والمسلم دائماً يسير في الطريق الوسط بعيداً عن غلو الغلاة وإفراطهم، وعن تفريط العصاة وتقصيرهم، فلذلك حذر هنا من الغلو وبين ذلك المثل العربي في أن القدور تفور بالغليان؛ يعني تأتيها نار هادئة ثم لم تلبث أن تصل إلى درجة الغليان، فإذا وصلت إلى درجة الغليان ربما تنفجر وتخرج عن وضعها الطبيعي، وهكذا من يغلو في دين الله ومن يغلو في أي شيء، ومن منهج أهل السنة والجماعة أنهم وسط بين إفراط المفرطين الغلاة الجهلة، وبين تفريط المفرطين العصاة أو الفجرة أو الفسقة.

سائل: يا شيخ وجه الشبه؟

الشيخ: وجه الشبه أن الإنسان إذا زاد في الأمر عن حده انقلب إلى ضده؛ مثلاً: لو أن إنساناً زاد صلاة سادسة، أو ابتدع صلاة معينة في شهر ربيع الأول، أو في أي شهر آخر لم يشرعها الله ولا رسوله هذا ما حكمه؟ غلو وزيادة، والزيادة مردودة؛ لأنها بدعة، ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)).

فالواجب أن تُرد أي زيادة في الدين، وأن تقتصر على ما جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ففي ذلك الخير كل الخير، وفي الخروج عن ذلك خروج عن دائرة الهدى، وخروج عن سبيل المؤمنين من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

[الشريط الثاني والعشرون]

[المتن]

«دِنْ بِالشَّرِيعَةِ وَالْكِتَابِ كُلَيْهِمَا .. فَكِلَاهُمَا لِلدِّينِ وَاسِطَتَانِ»

[الشرح]

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

يقول -رحمه الله تعالى-:

«دِنْ بِالشَّرِيعَةِ وَالْكِتَابِ كُلَيْهِمَا .. فَكِلَاهُمَا لِلدِّينِ وَاسِطَتَانِ»

دِنْ: فعل أمر؛ بمعنى يجب أن تدن لله -تبارك وتعالى- باتباع الكتاب والسنة، من دان يدين؛ أي: ذل وخضع وامتلأ وانقاد؛ والمقصود بالشرعية هنا: "السنة"، والكتاب: "القرآن".

«فَكِلَاهُمَا لِلدِّينِ وَاسِطَتَانِ»؛ أي: لا يُعرف الدين، ولا يؤخذ الدين، ولا تستنبط الأحكام، ولا تفهم العقيدة، ولا الأحكام ولا الأخلاق ولا الآداب ولا العبادات إلا من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنهما وحي من الله -عزَّ وجلَّ- والدين لا يؤخذ إلا من الوحي، والوحي كتاب وسنة ((إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ))¹⁶؛ فكلاهما وحي؛ وحي مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، ووحي يُعْمَلُ بِهِ وإن لم يُتَعَبَّدْ بتلاوته، وهو ما صح من الأحاديث عن رسول الهدى صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك بيَّن أنهما واسطتان للدين؛ أي: إنهما أساس الدين الذي يقوم عليه ويرتكز عليه بناؤه، ولا يصح أن يؤخذ الدين من غيرهما؛ أي: من غير الكتاب

¹⁶ رواه أحمد، وصححه الألباني في المشكاة (163 و 4247).

والسنة. فإذا دنت بهما -يا عبد الله!- وتذلت لأحكامهما، ووطنت نفسك لأمر الله وأمر رسوله، الذين ثبتا في الكتاب والسنة؛ فهذا هو الدين، وهذا هو الشرع، وهذا هو الإسلام ((إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي))¹⁷.

[المتن]

«وَكَذَا الشَّرِيعَةُ وَالْكِتَابُ كِلَاهُمَا .. بِجَمِيعِ مَا تَأْتِيهِ مُحْتَظَانِ»

[الشرح]

أيضاً بيّن في هذا البيت: أن الكتاب والسنة محتفظان بجميع مسائل الدين قولاً وعملاً واعتقاداً، ومن فضل الله -عزّ وجلّ- على هذه الأمة أن حفظ لها الكتاب والسنة خلافاً لما حصل من التحريف في كتب الأمم السابقة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾¹⁸، فجميع العلوم الدينية التي يحتاج إليها العبد؛ من أمور العبادة والعقيدة والحلال والحرام والمعاملات والأخلاق والآداب والأحكام العادلة، وما يسمى بالأحوال الشخصية في هذا الزمان: كل ذلك شاملٌ له كتاب الله -عزّ وجلّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله -عزّ وجلّ- أكمل لنا الدين قبل أن ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى؛ قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾¹⁹.

فمن ابتغى الهدى من غير هذا الطريق؛ فقد خسر خسراناً مبيئاً، ومن سلك هذا الطريق؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، فلنعضّ عليهما بالنواجذ، ولنجتهد في بناء جميع أمور ديننا عليهما، وبناءً

¹⁷ رواه الحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع: 2937.

¹⁸ [الحجر: 9].

¹⁹ [المائدة: 3].

عليه فإن ما خرج عن هدي الكتاب والسنة لا يعدو أن يكون بدعة من البدع التي أحدثها الناس، ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ))²⁰. نعم.

[المتن]

«وَلِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظَانِ لِكُلِّ مَا .. يَقَعُ الْجَزَاءُ عَلَيْهِ مَخْلُوقَانِ»

[الشرح]

«وَلِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظَانِ لِكُلِّ مَا .. يَقَعُ الْجَزَاءُ عَلَيْهِ مَخْلُوقَانِ»

يشير بهذا البيت إلى وجوب الإيمان بالملكين؛ وهم الكرام الكاتبون، الذين قال الله فيهم: ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾²¹ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾²²؛ الملكان: أحدهما عن اليمين يكتب الحسنات، والآخر عن الشمال يكتب السيئات، ولا يفارقان العبد حتى يلقي ربه؛ فيجب الإيمان بهما وهما: الحافظان، والكاتبان: أربع من الملائكة؛ كاتبان عن اليمين وعن الشمال، والحافظان من الأمام ومن الخلف؛ لكن الذي يعنيه الشيخ هنا هم الذين يكتبون الأعمال؛ لأنه أشار إلى ذلك بأنهما يحصيان على العبد ما يفعله وما يقوله، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

ولذلك فإن الواجب على العبد الإيمان بذلك حق الإيمان، وإن لم نرهم، وإن لم نرى الحافظين أو الكاتبين فإننا متعبدون بالإيمان بماذا؟ بالغيب فنحن لا نرى الروح التي تتردد بين جوانحنا وبين جنيننا، ولا نرى بعض المخلوقات مثل الجن والملائكة؛ لأن الله -عز وجل-

²⁰ متفق عليه.

²¹ [الانفطار: 11].

²² [ق: 16 - 18].

أراد أن لا نراهم؛ إلا من أراد الله رؤيته في بعض الحالات كما رُئيَ جبريل عليه السلام على صورته، ورُئيَ أيضاً وهو في صورة رجل يتنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي.

إذن المهم علينا أن نؤمن بالحافظين والكرام الكاتبين، والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، لو لم يؤمن بهم العبد وآمن بجميع الأمور الأخرى؛ لا يصح إيمانه قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾²³ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عندما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين الذي يرويه عمر - رضي الله عنه - وجاء فيه: ((أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))²⁴ فلو لم يحصل الإيمان بهذه الأركان الستة فلا إيمان.

هؤلاء الملائكة يحفظون العبد من بين يديه ومن خلفه، كما يكتبان عليه عن يمينه وعن شماله، فيجب الإيمان بهم وبجميع الملائكة ما عرفنا منهم تفصيلاً ومن لم نعرف إجمالاً، والذي ورد ذكره هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك خازن النار ومنكر ونكير اللذان يسألان العبد عن عمله بعد موته، ومن عداهم نؤمن به وإن لم نعرف اسمه، فلا يشترط في الإيمان معرفة الاسم بل يجب الإيمان بهم إجمالاً، من سمى الله منهم ومن لم يسمي؛ لأننا مأمورون بالإيمان بالغيب ومخلوقون لذلك، فيجب الإيمان بهم أجمعين من سمى ومن لم يسمي. نعم.

وهما مخلوقان ليس آلهة؛ لأن هناك من يعبد الملائكة، وليسوا بنات الله كما يقوله الكفرة والملاحدة والمشركون، فإن الله - عز وجل - لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً. نعم.

[المتن]

²³ [البقرة: 285].

²⁴ رواه مسلم (36/1 ، رقم 8).

«أَمْرًا بِكُتُبِ كَلَامِهِ وَفَعَالِهِ .. وَهُمَا لِأَمْرِ اللَّهِ مُؤْتَمِرَانِ»

[الشرح]

«أَمْرًا بِكُتُبِ كَلَامِهِ وَفَعَالِهِ .. وَهُمَا لِأَمْرِ اللَّهِ مُؤْتَمِرَانِ» ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾²⁵ والله -تبارك وتعالى- قادر على أن يحصي ذلك وليس بحاجة إلى هؤلاء الملائكة؛ ولكن كل ذلك من دلائل قدرته وإقامة الحجة على خلقه؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فهم يكتبون ما يأمرهم الله به، ويتركون ما لم يؤمروا به، لا يزيدون ولا ينقصون، أمناء على بني آدم وعلى ما يصدر منهم، لا يبالغون ولا يزيدون قيد أمثلة؛ بل يكتبون القول أو الفعل كما صدر من صاحبه ويتقيدان بأمر الرب -سبحانه وتعالى- : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾²⁶؛ يعني: لا يتقدمون بين يديه ولا يزيدون على ما أمرهم الله -تبارك وتعالى- به، ولا يتجاوزون ما حد الله -تبارك وتعالى- لهم؛ لأنهم عباد مكرمون يفعلون ما يأمرهم بهم رب العزة والجلال. نعم.



²⁵ [التحریم: 6].

²⁶ [الأنبياء: 27].

□ حدث سقط في بيتين وهما: «وَاللَّهُ صِدْقٌ وَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ ... مِمَّا يُعَايِنُ شَخْصَهُ الْعَيْنَانِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَنْ تُحَدِّدَ صِفَاتُهُ ... أَوْ أَنْ يُقَاسَ بِجُمْلَةِ الْأَعْيَانِ»

[الشريط الثالث والعشرون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«وَحَيَاتُنَا فِي الْقَبْرِ بَعْدَ مَمَاتِنَا .. حَقٌّ وَيَسْأَلُنَا بِهِ الْمَلَكَانِ»

[الشرح]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

«وَحَيَاتُنَا فِي الْقَبْرِ بَعْدَ مَمَاتِنَا .. حَقٌّ وَيَسْأَلُنَا بِهِ الْمَلَكَانِ» والظاهر أنها حق، وليست حقا؛ لأنها خبر لحياتنا؛ والمقصود: أن الله - سبحانه وتعالى - قدَّر على الإنسان أنه كان ميتا ثم يحييه ثم يميتة ثم يحييه، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾²⁷ فالإنسان تمر به أطوار في هذه الحياة ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾²⁸. فإنه كان ميتا قبل أن يُخلَق وتنفخ فيه الروح، ثم يحييه الله - تبارك وتعالى - بعد ذلك الحياة الدنيا، بعد نفخ الروح فيه، بعد أن يبلغ أربعة أشهر في بطن أمه، ثم بعد ذلك يكون الموت الذي هو حياة في الواقع؛ حياة في البرزخ من نوع خاص، ثم بعد ذلك الحياة الأخروية الأبدية، التي لا نهاية لها؛ لذلك فإن الواجب على المسلم أن يؤمن بهذه الحياة، أن يؤمن بأن تلك الحياة التي تعقب الموت؛ هي تعلق الروح ببدن الميت بكيفية وصفة لا يعلمها إلا الله - عزَّ وجلَّ -؛ لأن الروح لا تفنى بإذن الله - تبارك وتعالى - إذ أن لها في البدن خمس تعلقات:

1. التعلق الأول: قبل نفخها في الجسد، والله أعلم بمكانها في ذلك الوقت.

²⁷ [طه: 55].

²⁸ [الجنَّة: 26].

2. وتعلّق بالبدن في أثناء الحمل وقبل الولادة؛ أي: بعد نفخ الروح بعد مضي أربعة أشهر، وقبل أن يولد الطفل.

3. والتعلّق الثالث: تعلقها بالبدن في الحياة الدنيا، وهي الحياة التي يحيى بها البشر الآن.

4. والرابع: تعلقها بالبدن في البرزخ؛ حيث قد تعاد إليه وبخاصة بعد دفنه مباشرة، ويُسأل، كما سنبينه وهو الذي يشير إليه هنا.

5. وتعلّق أبديّ سرمديّ؛ وهو تعلقها بالبدن بعد البعث؛ وهذا تعلّق لا ينتهي سواء كان الشخص من أهل الجنة، أو من أهل النار ((يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت))، كما هو معلوم من قصة ذبح الموت على هيئة كبش بين الجنة والنار كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

فإنه ثبت في الصحاح فيما يتعلق بدليل ما يشير إليه المصنّف هنا من الحياة بعد الموت وتعلق الروح وسؤال الملكين، من أدلة ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الموت وخروج الروح، من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ العبد إذا كان في إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة، إن كان من أهل السعادة فإنه يأتيه ملك الموت عند رأسه وتقف على مسافة منه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فإن كان من أهل السعادة؛ فإن الملك يسأل تلك الروح؛ فتخرج أو تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء، أو كما تُسل الشعرة من العجين، ثم تخطفها منه ملائكة الرحمة، ولا تبقى في يده طرفة عين فيجعل في كف من الجنة وفي حنوط من الجنة، ثم تصعد به الملائكة وتُفتّح له أبواب السماء، وكلما مر بسماء قال لهم ملائكتها: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقال: فلان بن فلان بأحسن أسمائه في الدنيا ثم يعيدها الله -تبارك وتعالى- إلى جسدها فتعود إلى صاحبها فيأتيه ملكان فيجلسانه ويسألانه من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيجيب: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي أثناء ذلك أو قبله يأتيه عمله في هيئة رجل جميل المنظر حسن الوجه طيب الريح فيقول له: من أنت؟ فإن وجهك الذي يأتي بالخير؛ فيقول: أنا عمك الصالح أتيت

أؤنسك في قبرك، ثم يُفتح له باب من الجنة ويأتيه من رَوْحها ويريحانها إلى قيام الساعة؛ فيقول: يا ربِّي أقم الساعة؛ لأنه يعلم أن ما ينتظره خير.

ثم الله أعلم بمستقر الأرواح بعد ذلك كل ما ورد في الأمر: "أن نسمة المؤمن طائر يروح ويغدو في الجنة، وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر؛ تروح وتغدو في الجنة، ونسمة المؤمنين جميعاً طير يروح ويعلق في شجر الجنة".

وأما ما عدا ذلك من الأقاويل فإنه لا يُلتفت إليها من أن مستقر أرواح المؤمنين بئر زمزم، وأرواح الكفار بئر برغوث ونحو ذلك، أو أرواح المؤمنين في كذا وأرواح الكفار في كذا، كلُّ هذا لا دليل عليه؛ وإنما هو تحرُّص؛ وإنما كل ما ورد في وضع الروح أثناء البرزخ أن نسمة المؤمن أين؟ طائر يعلق في شجر الجنة، وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر تروح وتغدو في الجنة.

أمّا إن كان من أهل الشقاء - والعياذ بالله - فإنّه - كما ذكرنا في أول الحديث إلى أن - ذكر أنه تتفرق روحه في جسده لا تريد الخروج؛ لأنها تعاین العذاب - والعياذ بالله -؛ فيأتي ملك الموت فينتزعها كما يُنزع السّفود من الصوفِ المبلول، تفكروا في العود الذي له شعب متعرجة، وقد التف عليه صوف مبلول هل يخرج من ذلك بسهولة؟ لا، فكَذلك أرواح الأشقياء، ثم تخطفها منه ملائكة العذاب فيجعلونها في مسوح من النار، ثم إذا مرت بأهل السماء في ريح ننتة؛ قالوا ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقال: فلان بن فلان بأخبت أسمائه في الدنيا، ثم تُطرح روحه طرحاً من السماء، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾²⁹، ثم يأتيه الملكان فيقعدانه بعد أن تعاد روحه إلى جسده؛ فيُسأل تلك الأسئلة من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيقول: "هاه، هاه، لا أدري، كنت أقول مثلما يقول الناس" ولو

²⁹ [الحج: 31].

كان يعرف ذلك في الدنيا -والعياذ بالله-؛ فيقال: لا دريت، ولا تليت، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ثم يضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه، ما عدا الثقلين الجن والإنس، ثم يُرى مقعده من الجنة؛ فيقال: ((انظر ذلك المقعد من الجنة أبدلك الله به هذا المقعد من النار؛ فيفتح له باب من النار يأتيه من حرّها وسمومها إلى يوم القيامة؛ فيقول: رب لا تقم الساعة))؛ لأنه يعلم أن ما ينتظره أعظم من ذلك وأشد.

هذا هو حال حياة البرزخ؛ إما نعيم وروح وريحان ونعيم إلى يوم القيامة، ثم يتواصل بعد ذلك في نعيم أعظم، وإما سموم وحر من حر جهنم إلى أن ينتقل إلى ما هو أعظم في النار يوم القيامة.

ولذلك قال الله -عز وجل- في حق آل فرعون ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾³⁰. وهذا فيه دلالة أو فيما تقدم دلالة على وجوب الإيمان بنعيم القبر وعذابه، خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة والعقلانيين المعاصرين؛ حيث أنكر ذلك في هذا الزمان بعض أتباع المعتزلة، ويمثلهم في الآونة القريبة أحد أطباء البقر في بعض البلاد الإسلامية، الذي لا تخصص له في الشريعة؛ فألف مجلدين ينكر فيهما عذاب القبر ونيعمه؛ فيقال له: ((رحم الله امرئ عرف قدر نفسه)) ألا تبقى بين الأبقار تمرضها بدلاً من أن تتطفل على العلوم الشرعية وعلى عقيدة الإسلام تخربها؟ ولا نقصد بهذا أن نعيب هذا العلم النافع للأمة؛ ولكن يُعاب ذلك الشخص الذي يتجاوز ما يعلم إلى ما لا يعلم، «إذا لم تستطع شيئاً فدعه .. وجاوزه إلى ما تستطيع»

وهؤلاء العقلانيون الذين ينكرون بعض أشراف الساعة ونيعم القبر وعذابه، وبعض المغيبات لا يلتفت إلى أقولهم؛ فلهم سلف هم المعتزلة وأهل الكلام ممن يُحكّمون العقل في الشرع،

³⁰ [غافر: 46].

ويقدمون العقل على النقل، ويخضعون النصوص الشرعية لعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

شاهدنا من هذا أن معنى كلام الشيخ أن للجسم حياة برزخية، لا تُقاس بحياة الدنيا ونواميسها وأوضاعها الدنيوية؛ وإنما هي حياة خاصة لا يعلم كنهها وكيفيتها إلا الله سواء كان في ذلك حياة السعداء أم حياة الأشقياء. نعم.

[المتن]

«وَالْقَبْرِ صَحَّ نَعِيمُهُ وَعَذَابُهُ ** وَكِلَاهُمَا لِلنَّاسِ مَدْخَرَانِ»

[الشرح]

هذا هو ما بيناه فيما تقدم، من ثبوت عذاب القبر ونعيمه، ومما يدل على كل منهما مستقلاً: قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق جعفر بن أبي طالب بالنسبة للنعيم: ((إن الله عوضه عن يديه بجناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء))، وذكره عن خشخشة رجلي بلال - رضي الله عنه - في الجنة، وبشارته عن كثير من الشهداء عما عوضهم الله - تبارك وتعالى - به من الخير.

وأما ما يخص العذاب؛ فمن ذلك - بالإضافة إلى ما ذكرنا قبل قليل -: الحديث المتفق عليه حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين؛ فقال: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أو في كثير - يعني عند الناس، وإلا هو عظيم عند الله -، فأما أحدهما: فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الثاني: فكان يمشي بين الناس بالنميمة)) فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم جريدة رطبة فشققها نصفين وعرز في كل قبر جريدة وقال: ((لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)).

وهذا - ولا شك - خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، أما ما يفعل الناس اليوم من تطبيق ذلك على القبور فهذا رجم بالغيب، الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أنهما يعذبان، وأما نحن

لا ندري ما إذا كان ما أماننا من القبور في عذاب أم في نعيم؛ ولذلك لم يفعل ذلك أصحابه من بعده، وأما وضع أكاليل الزهور والورود على القبور فهذا تقليد للكفار ومن تشبه يقوم فهو منهم. فعلينا أن نبتعد عن مثل هذه الأعمال الخرافية.

الشاهد مما تقدم: أن نعيم القبر حق، وعذابه حق، سواء كان الشخص المُنعم أو المُعذب بقي جسده أو لم يبق، سواء كان جسده تراباً أو عظماً، أو تحول إلى ماء في البحر، أو تحلل في بطون السباع، أو تحلل مع التراب؛ فإننا نؤمن بأن فريقاً في نعيم، وفريقاً في جحيم، ويكفي أننا نحن لا نعرف الروح التي بين جنبينا وهي تصعد أماننا، ولا ندري، ولا ندرك كنهها؛ بينما يراها صاحبها عندما تخرج منه ويتبعها بصره.

[فعلى] المؤمنين من سماهم أنهم يؤمنون بالغيب الذي أخبر الله به أو أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم، ونعيم القبر أو عذابه من هذا القبيل، والذين ينكرونه إنما ينكرون أموراً متواترة، ولو لم يكن لذلك حقيقة لما استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر وأمرنا أن نقول بعد التشهد: ((اللهم إنا نعوذ بك من عذاب القبر وعذاب النار ومن فتنة الحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال)).

[الشريط الرابع والعشرون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيته:

«وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَعْدٌ صَادِقٌ .. بِإِعَادَةِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَبْدَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم. إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

يقرر المؤلف هنا -رحمه الله-: ما يدين الله به ويعتقده؛ من وجوب الإيمان بالبعث وإعادة الأرواح إلى الأجساد؛ حيث يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين فالبعث حق بل والركن الخامس من أركان الإيمان فالיום الآخر وما يقع فيه ومن بين ما يقع فيه البعث بعد الموت وحقيقته أنه بعث للأجساد والأرواح معاً وليس بعثاً للأرواح فقط كما تزعمه الفلاسفة ومن نفع فهمهم، فتعاد الأجساد بعينها وتعاد إليها أرواحها ويزيد الله فيها ما يشاء حتى ولو كانت رماداً أو متحللة في بطون السباع أو متحللة في قاع البحار حيث إن المرء كله أو الجسد كله يفنى إلا عجب الذنب كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم "ومنه يبعث المرء" فنفس الأجساد تعاد وتعاد إليها الأرواح فيقومون لرب العالمين ليوم عظيم ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾³¹، ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾³²، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾³³ ويقولوا ربنا

³¹ [المطففين: 4 - 6].

³² [النبأ: 18 - 19].

من بعثنا من مرقدنا؟ فيبين الله لهم أن هذا ما جاءت به الرسل من عند الله -عز وجل- وأخبرت به ها هو يتحقق عياناً بيانياً، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾³⁴، ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾³⁵ وهذا من أعظم الإلزامات فإن الذي خلق من لا شيء من باب أولى أن يستطيع الإعادة من المادة الموجودة وهي موجودة أصلاً مع أنه كان خلقها من العدم فهو قادر على إعادتها بعد الوجود وبعد الموت ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾³⁶ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾³⁷؛ الراجفة: ترجف الأرض فيموت كل شيء، والرادفة: يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، فيحاسبون ويجازون بأعمالهم كل بحسب عمله ولا يشك في البعث إلا كافر أما المسلم فإنه يعلم أن الذي خلقه من لا شيء قادر على أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾³⁸، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾³⁹ يغيب المؤمنون الكافرين إذا رؤوهم في نعيم وهم في جحيم أو يتساءلون إن كانوا مجرمين ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾⁴⁰ الذي هو يوم البعث ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾⁴¹؛ اليقين الذي الموت. فالبعث بعد الموت حقّ تعاد الأرواح إلى أجسادها فتنبت كما تنبت البقلة في الحقل عندها

³³ [الزمر: 68].³⁴ [التغابن: 7].³⁵ [ق: 15].³⁶ [طه: 55].³⁷ [النازعات: 6-7].³⁸ [الحاثية: 25].³⁹ [التغابن: 9].⁴⁰ [المدثر: 42-46].⁴¹ [المدثر: 47].

يقومون لرب العالمين ويواجهون أعمالهم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾⁴².

فالمؤمنون يؤمنون بالبعث ويؤمنون بأنه حق وأنه آتٍ لا محالة وأنه بعث حقيقي لا مجازي وأنه تعاد الأرواح إلى الأجساد فتخلق كما خلقت أول مرة ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾⁴³ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁴⁴ فإذا آمن المسلم أن الله على كل شيء قدير لم يعد يشك في البعث وكل ما أخبر الله به من المغيبات التي استأثر الله بعلمها. إذاً لا بد من الإيمان بالبعث والجزاء والحساب وإعادة الأرواح إلى الأجساد من جديد فيقومون لرب العالمين فيبعثون ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾⁴⁵.

فعلى المؤمن أن يُسلمَ بذلك وأن يؤمن بالبعث حقاً بلا شك ولا ريب، وأن يوقن بأن الذي خلقه من العدم قادر -بدون أدنى مرية- على أن يخلقه ويبعثه من جديد، وهو أهون عليه سبحانه. نعم.

[المتن]

«وَصِرَاطُنَا حَقٌّ وَحَوْضُ نَبِينَا .. صِدْقٌ لَهُ عَدَدُ النُّجُومِ أَوَانِي»

[الشرح]

«وَصِرَاطُنَا حَقٌّ وَحَوْضُ نَبِينَا .. صِدْقٌ لَهُ عَدَدُ النُّجُومِ أَوَانِي» اشتمل هذا البيت على

مسألتين يجب الإيمان بهما:

⁴² [آل عمران: 30].

⁴³ [يس: 81].

⁴⁴ [فصلت: 39].

⁴⁵ [المطففين: 4].

المسألة الأولى: مسألة الإيمان بالصراط، وهو الجسر الذي يُنصب على متن جهنم، يُمدُّ على متن جهنم فيمر به الناس على حسب أعمالهم، منهم من يمر كالخيل، ومنهم من يمر كالريح المرسلة، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من في إبهامه وبيص نور يطفئ تارة ويشتعل تارة أخرى، فإذا اشتعل مشى وإذا انطفأ وقف؛ حتى يصل إلى المطاف في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

والصراط يمر به المؤمنون كصلاة يؤديها أحدهم، وأما الكفار والعصاة والمبتدعة فإنهم يُذادون عنه، وهم يذادون عنه، فهذا الصراط جسر يقسم جهنم إلى نصفين -عافانا الله وإياكم- يمر به الناس على حسب أعمالهم؛ وهو المراد بقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾⁴⁶ ويوضح ذلك أن الصحابة استفسروا من النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الصراط، فلما قالت عائشة -رضي الله عنها-: يا رسول الله! ألم يقل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قال ألم تري أنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾⁴⁷.

وفسر بأن ذلك هو المرور على الصراط هذا هو أصح تفسير لقوله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي ما رُبما؛ لكن المؤمن لا تؤذيه يمر بها المؤمن بسلام، وكان دعاء الأنبياء وهم مع هذا الصراط ما هو؟ اللهم سلِّم سلِّم؛ لأنهم يرون الناس يتساقطون يمينا وشمالاً فتخطفهم كلاليب جهنم، فترمي بهم في قعرها -والعياذ بالله-.

فيجب الإيمان بالصراط، ولا نلتفت إلى المعتزلة وغيرهم من أصحاب المدارس العقلية الذين أنكروه، وأنكروا الميزان، وأنكروا الحوض، وأنكروا غيره من مذاهب السلف في هذه القضايا،

⁴⁶ [مریم: 71].⁴⁷ [مریم: 72].

فالصراط أمرٌ يقع بعد الحوض، وبعد الشفاعة، وبعد هذا كله؛ ولكن قدّمه لأهميته فيجب الإيمان به كما أمر الله - سبحانه وتعالى -.

ثم ذكر الشيخ - رحمه الله - الحوض الذي جعله الله - تبارك وتعالى - لنبه وهو أكبر أحواض الأنبياء، طوله مسيرة شهر وعدد آيته عدد نجوم السماء، كما جاء في الحديث وكما وضّح الشيخ هنا، فالحوض أشدّ بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل من شرب منه شربة لا يضمأ بعدها أبداً، يُذاد عنه أقوام يُمنعون من الوصول إليه وهم يأتون عندما يرون النبي صلى الله عليه وسلم يفتتحه فيقول صلى الله عليه وسلم: ((أنا فرطكم على الحوض))؛ يعني أسبقكم إليه والفرط هو الذي يسبق غيره، ومنه سُمّي الطفل فرطاً؛ أي سبق إلى ما لم يُسبق إليه، وإنه ليذاد عنه أقوام؛ يعني: يُمنعون من الوصول إليه؛ فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أمتي أمتي؛ فيقال: إنه ليسوا من أمتك، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم غيروا وبدلوا)) فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((سحقاً سحقاً لمن غير وبدل)).

ما معنى سحقاً؟ أي: بعداً، بعداً لمن غير وبدل؛ أي: غير في السنة، غير في معالمها، غير في أحكام الله - عزّ وجلّ -؛ فيقول: سحقاً سحقاً لمن غير وبدل. وتقول بعض الطوائف المارقة إن هذا يعني الصحابة؛ حيث زعموا أنهم ارتدوا عن الإسلام، ولم يبقَ على الدين منهم إلا سبعة أو سبعة عشر أو أربعة عشر - قاتلهم الله أنى يؤفكون - وهذا كله دجل، كله لا يصح؛ بل هم أولى بهذه التهمة فمن اتهم الصحابة بأنهم مرتدون؛ فهو المرتد، ومن كفرهم فهو الكافر، الصحابة الذين نقلوا لنا هذا الدين بكل أمانة وصدق وإخلاص، لذلك فإن هؤلاء أصحاب تلك الأهواء هم أولى الناس بأن يُردوا ويذادوا عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم؛ حتى لا يذوقوه ويحرموا منه، وحتى أيضاً لا يُنجسوه.

إذن الذي يدل عليه نص الحديث في أن أولئك، يعني أولئك الذين ابتدعوا في دين الله؛ ولذلك قال إنهم غيروا وبدلوا. نسأل الله أن يسقينا وإياكم منه شربة لا نظماً بعدها أبداً. نعم.

[المتن]

«يُسْقَى بِهَا السُّنِّيُّ أَعَذَبَ شَرْبَةٍ .. وَيُذَادُ كُلُّ مُخَالِفٍ فَتَانٍ»

[الشرح]

«يُسْقَى بِهَا السُّنِّيُّ أَعَذَبَ شَرْبَةٍ .. وَيُذَادُ كُلُّ مُخَالِفٍ فَتَانٍ»

يعني: إن الشرب من حوض النبي صلى الله عليه وسلم قاصرٌ على أهل السنة والجماعة، الذين يؤمنون بالحوض، أمّا من أنكره فهو قَمِينٌ بأن لا يشرب منه؛ يعني يشرب منه أهل السنة والجماعة الذين استقاموا على الحق إلى أن لقوا ربهم - سبحانه وتعالى-، وغيرهم يجرمون منه من انخرفوا عن السنة فإنه لا نصيب لهم في هذا الحوض، فأهل السنة والجماعة هم أهلٌ لأن يردوا حوض النبي صلى الله عليه وسلم وأن يحرم منه المبتدعة وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنهم حتى إن عليهم آثار الوضوء ومع ذلك يجرمون لأنهم أحدثوا في دين الله ما ليس منه وما أكثر المحدثين، فيحرم منه كل مبتدع ويكون هذا خاص بأهل السنة الذين هم أتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً واعتقاداً. نعم.

[المتن]

«وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ يَوْمَئِذٍ تُرَى .. مَوْضُوعَةٌ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ»

[الشرح]

أيضاً مما يقع يوم القيامة: نَصَبُ الموازين فتوزن الأعمال، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، فتَقَلُّ موازينك -يا عبد الله!- بالأعمال الصالحة، ثقل موازينك بالأعمال الصالحة المستمدة من الكتاب والسنة، ولتكون لك ذخراً عند الله -سبحانه وتعالى-.

والعمل الصالح هو ما بُني على أمرين، مبني على أصلين: إخلاص العبادة لله وحده، والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، فإن تلك الأعمال توزن، الله أعلم بكيفية الوزن، نؤمن بأنها توزن، ونؤمن بالميزان، أما كيف توزن فهذا علمه، فتوزن وتُجعل الأعمال كأنها شيء محسوس فيثقل وتخف الميزان بحسبها؛ يدل لذلك قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾⁴⁸ وقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾⁴⁹، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾⁵⁰، قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾⁵¹. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((كلمتان ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)) وقال صلى الله عليه وسلم: ((والحمد لله تملأ الميزان)) وصح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أصحاب البطاقة أنه يُصاح برجل يوم القيامة فيُنشر له تسع وتسعون سجلاً كل سجل منها مدّ البصر فيقال له أتكر من هذا شيئاً؟ فيقول: "لا" ويقال له: "أتذكر لك حسنة؟" فيبته الرجل فيقال: "بلى إن لك عندنا حسنة" فيؤتى ببطاقة وقد كتب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله فتوضع في كفة والسجلات في كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة فيؤمر به فيدخل الجنة.

⁴⁸ [الأنبياء: 47].⁴⁹ [الرحمن: 7].⁵⁰ [القارعة: 6-11].⁵¹ [المؤمنون: 102-103].

هذه كلها أدلة صريحة على أن الميزان حق، ومن قال من المعتزلة ومن شابههم من العقلانيين المعاصرين الميزان لا يحتاج إليه إلا الفوال والبقال ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾⁵²؛ يعني عظمت تعتبر كلمة عظيمة فيها إثم كبير.

فإذن علينا أن نؤمن بذلك حق الإيمان، وأن نجتهد في تثقيل الموازين بالأعمال الصالحة التي تُقرب إلى الله - سبحانه وتعالى-، وأن نبتعد عن كل ما يخففها وكل ما يزيد المسلم من الأعمال الصالحة، والأذكار في الصباح والمساء، وفي كل وقت، كلما ثقلت موازينه، فالميزان حق يجب الإيمان به له كفتان وله لسان وتوزن به الأعمال حقيقة على الوجه الذي يليق بالله، والله يعلم شكله وكيف يستوعب وهل هو ميزان أو موازين؟ كل هذا علم نكل كيفيته إلى الله - سبحانه وتعالى-.

فإذن يجب الإيمان بالميزان؛ كغيره مما يقع في عرصات القيامة، والذي يبدو من حيث الترتيب أنه بعد البعث يكون الحوض، ثم الميزان، ثم الشفاعة، ثم الصراط، يبدو أن هذا هو الترتيب. أما من قال إن الحوض بعد الصراط فهذا بعيد؛ لأن فائدة وجود الحوض هو الشرب منه لمن وفقهم الله وجعلهم مستحقين للشرب منه، فلذلك يجب الإيمان به؛ أي بالميزان، وأنه حق وأن الأعمال ستوزن بكيفية وطريقة وهيئة لا يعلمها إلا رب العالمين.

⁵² [الكهف: 5].

[الشريط الخامس والعشرون]

[المتن]

يقول الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيته:

«وَالْكَتُبُ يَوْمَئِذٍ تَطَايُرُ فِي الْوَرَى .. بِشَمَائِلِ الْأَيْدِي وَبِالْإِيمَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم. إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

بين الشيخ -رحمه الله- في هذا البيت: الكتب التي يأخذها الناس يوم القيامة؛ حيث تتطايّر تلك الكتب لتصل إلى أيدي أصحابها، يستلمونها ما بين مستلم يمينه -نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم-، وبين مستلم بشماله -نعوذ بالله من هذا المصير- هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لا يظلم فيه العبد شيئاً؛ وإنما تُحصى عليه أعماله وتُسَطَّر في هذا الكتاب، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾⁵³، وفي الحاقّة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَعُوا كِتَابِي * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي * يَا لَيْتَهَا

كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه⁵⁴ يُقال له حينئذ: ﴿خُذُوهُ فَعَلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾⁵⁵ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: لماذا؟ بَيْنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾⁵⁶.

والجمع بين قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ و ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أنه يُؤْتَى كتابه بشماله مغلوله من وراء ظهر -والعياذ بالله-.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، مع أنه يأخذ كتابه بيمينه، ومع أن ثمة حديثاً يقول: ((من نوقش الحساب هلك)) أو في الرواية الأخرى: ((عُذِّبَ)) فقد بَيَّنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لعائشة -رضي الله عنها-؛ فقال: ((إنما ذلك العرض؛ يُقال له: عملت في يوم كذا وكذا وقد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ومن نوقش الحساب هلك)).

فالحساب حسابان: حساب مناقشة، وحساب عرض؛ فمن نوقش الحساب عُذِّبَ، ومن عُرِضَ عليه الحساب عرضاً نجاً؛ لأنه من أهل اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾⁵⁷ إلى أن قال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾⁵⁸ -نسأل الله العافية والسلامة- فهذا هو مصير جميع الناس كلُّ يُنشر له كتابه

⁵⁴ [الحاقة: 19 - 29].

⁵⁵ [الحاقة: 30 - 32].

⁵⁶ [الحاقة: 33 - 37].

⁵⁷ [الواقعة: 27 - 34].

⁵⁸ [الواقعة: 41 - 44].

وَيُسَلِّمُ إِيَّاهُ، وَيُقَالُ لَهُ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فالكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

[المتن]

«وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يُجِئُ لِعَرْضِنَا .. مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ دَانَ»

[الشرح]

«وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يُجِئُ لِعَرْضِنَا .. مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ دَانَ»

يشير بهذا إلى قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾⁵⁹، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾⁶⁰. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾⁶¹.

والمقصود: أَنَّ الله -تبارك وتعالى- يجيء للفصل بين الخلائق يوم القيامة، يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته، ومنهجنا في المجيء هو منهجنا في سائر الأسماء والصفات، كما دلَّت عليه النصوص الشرعية؛ وهو إثبات المجيء على ما يليق بجلال الله وعظمته؛ لأنه هو الذي أخبر بذلك عن نفسه، وهو الذي يعلم ما يثبت له، وما يجب أن يوصف به، وما يجب أن يُنفى عنه؛ إذ لا أعلم بما يجب لله من الله، ولا أعلم بما يجب لله بعد الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما دام المجيء قد ثبت في الكتاب والسنة فالواجب التسليم له دون أن نشبهه بمجيئنا أو إتياننا أو حركاتنا أو سكناتنا فالله -عزَّ وجلَّ- ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في كل أموره -سبحانه وتعالى- ليس

⁵⁹ [الفجر: 22].

⁶⁰ [الأنعام: 158].

⁶¹ [البقرة: 210].

كمثله شيء، فيجب إثبات صفة الجيء على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، ويجب التسليم لهذه القضايا وإن قصرت عقولنا عن إدراك كيفيتها فإننا خلقنا للتعب، وعلينا أن نعلم أننا أمرنا بأن نقاد ونسلم لكل ما أخبر الله به سواء استوعبت عقولنا كيفية ذلك المخبر به أم لا.

وكان السلف إذا جاءهم آيات الصفات أو غيرها من المغيبات؛ انقادوا وأذعنوا وسلموا وقالوا: آمنا به كل من عند ربنا؛ لذلك يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- عندما سمع رجلاً ارتعد وارتجف واهتز واضطرب لما سمع بعض آيات الصفات؛ فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "ما بال هؤلاء يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه؟" أي: ما بالهم يستسلمون عند المحكم؛ والمحكم هو ما لا يحتمل إلا أمراً واحداً، والمتشابه ما احتمل أكثر من أمر، والصفات ليست من المتشابه؛ ولكن يقصد ابن عباس -هنا-: أن العلم بكيفيتها من المتشابه ما فرَّق هؤلاء؟! يعني: ما خوفهم؟ وما الذي أدى بهم إلى هذا الحال؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه! يعني: لماذا يسلمون البعض ولا يسلمون البعض الآخر والكل قد جاء من عند الله -سبحانه وتعالى-؟!!

والمسلم إذا أشكل عليه أمر؛ آمن وأذعن بما جاء، ووكّل ما لم يعلم علمه إلى الله -سبحانه وتعالى-، فلا ينفي بناء على كونه لم يفهم ذلك، أو لم يعلم كيفيته، أو أن عقله يستبعده، أو أن علم الكلام والمنطق لا يقره، كما قد يتبادر إلى ذهنه أو نحو ذلك، مما قد يخطر بباله من الأوهام الشيطانية؛ بل إنه يذعن ويسلم؛ يقول الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: "آمنت بالله وما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم".

فعليك أن تدعن بذلك -يا عبد الله!- وإن لم يستوعبه عقلك؛ فتؤمن بمجيء الله -جلّ وعلا- يوم القيامة، كما تؤمن باستوائه وسمعه وبصره وقدرته وعلمه وإرادته ونحو ذلك من صفاته -سبحانه وتعالى-، فتؤمن بأنه يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته.

وأما قوله: «مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ دَانَ» يشير بهذا إلى نزوله إلى السماء الدنيا في كل ليلة، أو يشير إلى قرب علمه وإحاطته -سبحانه-، فالبيت محتمل للأمرين؛ بل وقد يشملهما، فمن جهة دنوه إذا حملناه على النزول، دلّ على ذلك الأحاديث المتواترة التي رواها نحو سبعين صحابياً، ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، فيسأل عباده: من يسألني فأعطيه؟ من يستغفري فأغفر له؟ من يدعوني فأستجيب له؟)) فلا يجوز تأويل أو إنكار ذلك، ولا القول بأنه نزول أمره سبحانه؛ وإنما ينزل نزولاً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته ولا يشك في هذا إلا جاهل؛ لأنه إذا جاء الخبر من عند الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فحسبك به، إذا سمعت قال الله تعالى، أو قال رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وجب عليك أن تدعن، وأن تسلّم لما جاء في كتاب الله؛ فنزوله نزول يليق بجلاله وعظمته، ومجيئه مجيء يليق بجلاله وعظمته.

ولا ندخل أنفسنا في مسألة هل يخلو العرش منه عند النزول أو لا يخلو، وإن كان بعض أهل العلم يرجح أن ينص بأن العرش لا يخلو منه؛ ولكن الذي يظهر لي -والله أعلم-: أن الأولى التوقف، الإيمان بالنزول وترك ما سوى ذلك، ووكل علمه إلى الله -سبحانه وتعالى- والذي أوقع كثيراً من الناس في الشبه: هو تعلّقه بكلمة: (كيف؟)؛ لأنه يدخل نفسه حينئذ فيما لم يكلفه الله -تبارك وتعالى- بطلبه، وما لم يتعبده الله به، فلسنا متعبدین بالعلم بالكيفيات؛ وإنما متعبدون بالإذعان والاستسلام والانقياد لما أمر الله به، والبعد عن كل ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه.

ويجوز حمل ذلك على دنوه في علمه، فمع كونه فوق جميع خلقه مستوياً على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته، فإنه في الوقت نفسه لا تخفى عليه خافية؛ بل يعلم كل شيء؛ يعلم ديب

النمل في الليلة المظلمة على صفاة سوداء، فعلينا أن ندعن لذلك وأن نستسلم له وأن نؤمن بصفتي الجيء والنزول الذين جاء بياهما في كتاب الله -عز وجل- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. نعم.

سائل: في كل وقت وليس في كل يوم

الشيخ: هو إذا قال في كل وقت فإنه يعني بذلك قربه العلمي ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾⁶²، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾⁶³.

ولكن إذا قصد في كل وقت نزوله -كما أسلفنا-؛ فالمقصود إثبات صفة النزول على الوجه الذي يليق بالله -سبحانه و تعالى-، ولا يظن بهذا أي تأويل يمكن أن يخطر بالبال. مما ينبغي للمسلم أن يتنبه له؛ فيؤمن بالنزول والجيء وبسائر صفات الله -جل وعلا- وبأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[المتن]

«وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ يَأْتِي أَمْرُهُ .. وَيَعِيبُ وَصَفَ اللَّهِ بِالْإِثْيَانِ

وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَرَ أَنَّهُ .. يَأْتِي بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»

[الشرح]

نقف على مذهب الأشاعرة في هذا الباب ليكون درس الغد -إن شاء الله-. والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

⁶² [ق: 16].

⁶³ [الحديد: 4].

[الشريط السادس والعشرون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيته:

«وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ يَأْتِي أَمْرُهُ ... وَيَعِيبُ وَصْفَ اللَّهِ بِالْإِثْنَيْنِ»

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أما بعد:

يُشير المصنف، بعد أن قرّر بالأمس أن الله -عزّ وجلّ- يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته، كما دلت على ذلك النصوص؛ من مثل قول الله -جلّ وعلا-: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

وقد تكلمنا على هذه المسألة مفصّلة بالأمس، والمصنّف الآن يُبيّن مذهب المخالفين في إثبات مجيء الله -عزّ وجلّ-، وهي صفة فعلية من الصفات الاختيارية التي يفعلها الربُّ كما يليق بجلاله وعظمته، متى شاء، إذا شاء، كيف شاء.

وذكر المصنف -رحمه الله- بأنّ مذهب الأشعري في هذه المسألة أنه يقول: "إن المقصود بمجيء الرب -جلّ وعلا- مجيء أمره -سبحانه وتعالى-، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: وجاء أمر ربك" وهذا قولٌ فاسد؛ ولكن قبل أن نبين فسادَه نطرح سؤالاً هنا: هل ما نسبته المصنف إلى الأشعري هو المذهب الذي استقر عليه أمره؟

أحد الجالسين: هو مذهب المعتزلة ...

الشيخ: أحسنت؛ يعني بالأشعري هنا: أبا الحسن الأشعري المتوفى في القرن الرابع الهجري، وهو من تلاميذ تلاميذ الإمام أحمد، وقد مرّت به أطوار فقد نشأ في أول حياته ربّياً لزوج أمّه: (أبي علي الجُبائي المعتزلي) فاعتنق بطبيعة الحال مذهب زوج أمّه الذي تربى في كنفه، وهو مذهب الاعتزال.

وقد تقدم لنا غير مرة أن المعتزلة يشبّون الأسماء ويُؤوّلون الصفات أو ينفونها، وحتى إثباتهم للأسماء لا قيمة له؛ لأنهم يشبّون أسماء جوفاء مجردة من المعاني نفس عقيدة جهم التي يقولوا فيها: إن الله سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر، عليمٌ بلا علم، خبيرٌ بلا خبر.

ولعلّي قد ذكرت لكم -غير مرة- أبياتاً نظمها أحد الأعراب الذي كان على فطرته وسليقته، عندما مرّ على جهم بن صفوان وهو يقرر على تلاميذه: إن الله سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم إلى آخره؛ فاستغرب هذا الأعرابي؛ لأنه لا يُعقل أن يُسمى بالسميع إلا وهو يسمع، ولا بالبصير إلا وهو يُبصر، فاستغرب هذا الأعرابي؛ فنظم قصيدة في هجاء جهم وراجعوها كاملة في كتاب جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لمن؟ لمن يا إخوان؟ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين لمن؟ للآلوسي -رحمه الله-.

ومن يعني بالأحمدين؟

أحدهم: ابن تيمية وابن حنبل .

الشيخ: أحسنت، شيخ الإسلام ابن تيمية ومن؟

لا، هل هناك خلاف بين شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام أحمد؟ هو صح اسمه أحمد لكن ليس الإمام أحمد، إمام في الضلالة.

أحدهم: الرفاعي؟

الشيخ: هو جلاء العينين في محاكمة الأحمدين؛ يعني بالأحمدين: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن المجد شيخ الإسلام بن تيمية، وبين أحمد بن حجر الهيثمي وليس العسقلاني، الهيثمي

من رؤوس الخرافة؛ لأنه تجنى على شيخ الإسلام، وقوله ما لم يقول ونسب إليه ما لم يعتقد، فعقد محاكمة في هذا الكتاب الشيخ الألوسي - رحمه الله - صاحب التفسير المعروف، وصاحب كتاب: (الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات) وهو سلفي المعتقد يقول: أورد هذه الآيات في كتابه جلاء العينين عن هذا الأعرابي يقول فيها:

«ألا إن جهماً كافراً بان كفره .. ومن قال يوماً قول جهم فقد كفر

لقد جنَّ جهمٌ إذ يُسمَّى إلهه .. سميعاً بلا سمع، بصيراً بلا بصر

جواداً بلا جودٍ رضياً بلا رضى .. عليمًا بلا علم خبيراً بلا خبر

أيرضيك أن لو قال يا جهم قائلٌ: .. أبوك امرئ حر خطير بلا خطر

حليم بلا حلم وفي بلا وفاء .. فبالعلم موصوف وبالجهل مشتهر

جواد بلا جود قوي بلا قوى .. طويل بلا طول يخالفه القصر

أمدحاً ثراه أم هجاء وسبّة .. وهزناً كفاك الله يا أحق البشر؟

- يعني من؟ يعني جهم -

فإنك شيطانٌ بعثت لأمة .. تصيرهم عما قريب إلى سقر» - والعياذ بالله -.

أعطاه هذه الأبيات وتركه، وهي أبيات عظيمة في بيان خطورة مذهب الجهم.

نشأ أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - أربعين سنة على مذهب أبي علي الجبائي، ثم فكر وعلم أنها عقيدة فاسدة فأخذ يبحث عن الحق؛ فانتقل إلى عقيدة أبي محمد عبد الله بن كلاب؛ وهي تأويل بعض الصفات وإثبات سبع منها، وحتى الإثبات محل نظر عند ابن كلاب، ثم لم يلبث أبو الحسن الأشعري وهو يبحث عن الحق أن اهتدى إلى منهج السلف، وبخاصة في باب الأسماء والصفات، وإن كان قد بقي عليه ملاحظات في مسألة الإيمان، وفي مسألة الكسب سنأتي إليه في مكانه - إن شاء الله -.

فانتقل إلى مذهب السلف خصوصاً في باب الأسماء والصفات، وهذا هو الذي استقر عليه أمره - رحمه الله -، وصنّف في ذلك كتاباً سماه: (الإبانة في أصول الديانة)، وصنّف كتاباً في الفرق، سماه: (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) فاستقر أمره على عقيدة السلف.

إذن كلام المصنف هنا ينطبق على الأشعري أم على الأشعرية؟ ما الفرق بين الأشعري والأشعرية؟ ألم ينتسبوا إليه؟

انتسبوا إليه في طوره الأوسط، ولم ينتسبوا إليه في الأمر الذي استقر عليه حاله، وهو منهج السلف الذي قرره في الإبانة، ومع هذا فإن المنتسبين إليه منذ فجر تاريخ انتسابهم أخذوا بما كان عليه أمره الذي كان عليه بعد تركه المعتزلة وقبل رجوعه إلى منهج السلف.

ومن الغريب والعجيب أن ابن عساكر -رحمه الله- يثبت نسبة كتاب: (الإبانة) إلى أبي الحسن الأشعري، ومع ذلك هو ليس على هذا المنهج؛ بل على المنهج الذي عليه سائر الأشاعرة!

فلا يُوافق المصنف هنا ولعله لم يبلغه، وتعرف أن الشيخ القحطاني تدلُّ آيياته وبعض ما ذكر عنه أنه من أهل الأندلس، وأنه بين القرن الخامس أو السادس الهجري، ولم يتضح لأهل الأندلس ما استقر عليه أمر أبي الحسن الأشعري؛ فأخذوا بقوله الأوسط، وإن كان بينهم في الحقيقة أناس على منهج أهل السنة، وعلى رأسهم الإمام (ابن زيد القيرواني) وهو قريب منهم، كذلك (ابن أبي زيمين) (وأبو عمر الطالمنكي)، والحافظ (ابن عبد البر القرطبي، أبو عمر ابن عبد البر) ومع ذلك فقد بقي الكثير على مذهب الأشاعرة في طورهم الأوسط.

ويبدو من شدة القحطاني على الأشعري والأشاعرة أنه كان قد بلغهم المذهب متأخراً، وكانوا على فطرهم لم يتغيروا في باب الأسماء والصفات؛ فحمل عليهم بشدة، وسمى الإمام أبي الحسن، أو ذكره بكنيته ولقبه في غير ما موضع من هذه القصيدة، ولعله كان يتوهم أنه ما زال على منهج (أبي محمد عبد الله بن كُلاب)؛ ولكن التحقيق: أنه ترك هذا المذهب، وراجعوا كتباً نفيساً لشيخنا الشيخ: (حماد بن محمد الأنصاري) -رحمه الله تعالى- في هذا الباب عن أبي الحسن الأشعري. نعم.

فهنا ذم الذين يقولون: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: وجاء أمره؛ لأن ذلك مخالفٌ لظاهر القرآن، ونحن مأمورون أن نأخذ بظاهر القرآن، وأن لا نؤوله بأي شكل من أشكال التأويل.

اقرأ البيت مرة أخرى

[المتن]

«وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ يَأْتِي أَمْرُهُ ... وَيَعِيبُ وَصْفَ اللَّهِ بِالْإِثْنَانِ»

[الشرح]

يعيبُ بمعنى: ينكر، ويرى أنه صفةٌ نقصٍ في حق الباري - سبحانه وتعالى-، ونسي ابن كلاب ومن تبعه وقبلهم المعتزلة أن الله هو الذي وصف بذلك؛ ولذلك نقول لهم ما قاله الإمام مالك ابن أنس -رحمه الله تعالى-: "أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا سنة نبينا وأخذنا قول هؤلاء؟!".

ما معنى أجدل؟ أي: أكثر جدلاً وعنده فصاحة وبيان وتحذلق وتشقيق للكلام، متفهم، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة، وقد وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك - سبحانه الله العظيم! وليسأخني المتخصصون في البلاغة فإنني لا أعنيهم-؛ أقول: بعض الذين بالغوا في علم البلاغة يتخللون كما تتخلل البقرة، وأنا لا أعني علماء البلاغة اللغويين الذين يسيرون على منهج أهل السنة والجماعة؛ وإنما أعني تلاميذ الزمخشري، وتلاميذ المعتزلة؛ فإنهم قد ضلوا سواء السبيل في باب صفات الرب -تبارك وتعالى-؛ حيث اعتبروها مجازاً من المجازات -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-؛ ولذلك يعدُّون من أثبت صفة الجيء أنه يتنقص الباري -سبحانه وتعالى-.

وأنتم -أيها الإخوة!- قارنوا الآن بين رجل يقول: وجاء ربك، كلمتين، يقول: أي كما يليق بجلاله وعظمته، وشخص يقول: وجاء ربك؛ أي: وجاء أمره، أيهما الذي يتنقص الرب -سبحانه وتعالى-؟ الأول أم الثاني؟

أحدهم: الثاني.

الشيخ: الثاني. لماذا؟ لأن الثاني غير وبدل. الله يقول: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، وهو يقول: وجاء أمر ربك! فكأنه يقول: لا، أنت لست صادقاً يا رب! في هذا الكلام؛ وإنما الصواب ما جئنا به وهو: وجاء أمرك؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

طبعاً هم لا يقصدون تكذيب الرب سبحانه -حاشا لله أن ننسب إليهم ذلك-، لكن هذا هو مدلول كلامهم من حيث لا يشعرون؛ ولذلك لو عومل الأشعرية بلازم مذهبهم؛ لقليل إنهم

حلولية في قولهم: (إن الله في كل مكان) لكن نحن لا نلزمهم بهذا، ولازم المذهب ليس بمذهب؛ ولكن من حيث الواقع يلزمهم، لكن لا يلزمهم ديانة؛ وإنما يلزمهم سياقة ولغة. مفهوم هذا؟ كذلك شخص: الله -عز وجل- يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁶⁴ وهو يقول: لا، استوى بمعنى استولى! سبحان الله!

يا مسكين! قل ما قال ربك: ﴿اسْتَوَى﴾، كما يليق بجلاله وعظمته، ودع كلمة استولى التي جاء بها أفراخ جهنم وبشر المريسي، ومثله الذي يقول: ﴿لَمَّا خَلَّطْتُ يَدَيَّ﴾⁶⁵؛ أي بقدرتي!

وهل هما قدرتان أم قدرة واحدة؟ القدرة واحدة ليست اثنتان وكذا شأن كل من حرف في باب الأسماء والصفات ولذلك وصف الله بأنه لا يجيء نقص له، ووصف له بالعجز، وتكذيب له في حقيقة الأمر، وإن كان القائل بذلك لا يعني بطبيعة الحال التكذيب. فهما هذا؟

[المتن]

«وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَرَ أَنَّهُ ... يَأْتِي بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»

[الشرح]

«وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَرَ أَنَّهُ ... يَأْتِي بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»

الله هو الذي أخبر أنه يجيء، وقصد المصنف «بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»؛ أي: بغير كيفية، أما كلمة بغير حركة أو بحركة هذا نكل علمه إلى رب السماوات والأرض؛ يعني الله -سبحانه وتعالى- أخبر أنه يجيء، فنحن نؤمن بأنه يجيء، كيف يجيء؟ على ما يليق بجلاله وعظمته، ونحمل كلام المصنف على هذا.

⁶⁴ [طه: 5].⁶⁵ [ص: 75].

أمّا كلمة: بغير تنقل، وبغير تدانٍ لا يمكن أن يُراد أنه بغير قُرب؛ فالله إذا نزل أو جاء يقربُ من خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لكن نحمل كلام المصنّف على أنه يريد هنا؛ أي: بغير كيفية، هذا المقصود.

أمّا كلمة: "بغير تنقل، بغير تدانٍ، بغير قرب، بغير حركة، بغير كذا" هذا لم نكلّف بالبحث فيه، ولم نُتعبد بإنكاره أو إقراره؛ بل تُعبّدنا بالإيمان بأنه يجيء، وما وراء ذلك نكله إلى الله - سبحانه وتعالى-، ولا نتدخل فيه أبداً؛ لأنه علم غيبي. والصفات عموماً لها جانب حقيقي؛ بمعنى ظاهر يجب الإيمان به، ولها جانب غيبي يجب وكل علمه إلى الله - سبحانه وتعالى-، فبالنسبة للعلم بالصفة وإثبات معانيها لله على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته هذا محكمٌ يجب الإيمان به، والتسليم له والإذعان له، والانقياد له حتى ولو لم تستوعبه عقولنا.

وما وراء ذلك من الكيفيات والعلم بكيف يجيء وكيف ينتقل وكيف يتحرك، فهذا نكل علمه إلى الله - سبحانه وتعالى-، ولا نتدخل فيه. نعم.

[المتن]

«وَعَلَيْهِ عَرَضُ الْخَلْقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... لِلْحُكْمِ كَيْ يَتَنَاصَفَ الْخَصْمَانِ»

الشيخ:

طيب، هذا نؤجله إلى الدرس القادم.

[الشريط السابع والعشرون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نُوَيْتِهِ:

«وَعَلَيْهِ عَرَضُ الْخَلْقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... لِلْحُكْمِ كَيْ يَتَنَاصَفَ الْخَصْمَانِ»

[الشرح]

«وَعَلَيْهِ عَرَضُ الْخَلْقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... لِلْحُكْمِ كَيْ يَتَنَاصَفَ الْخَصْمَانِ»

أي: إنَّ الله - سبحانه وتعالى - يجمع الأولين والآخرين، وعندها تُعرض الأعمال، ويُنصفُ المظلوم من الظالم؛ لأن الظلم لا يترك الله منه شيئاً، كما جاء في الحديث الصحيح: ((أنَّ الدواوين ثلاثة: ظلم لا يغفره الله -عزَّ وجلَّ- لمن مات عليه؛ وهو: الإشراف بالله -عزَّ وجلَّ-، وظلم لا يترك الله منه شيئاً وهو: ظلم العباد فيما بينهم)) حتى إنه ليقص للحيوانات بعضها من بعض ثم يقول لها جميعاً بعد ذلك: كوني تراباً. حتى لقد ثبت في الصحيح أنه يقتص للشاة الجلحاء من ذات القرون؛ لأنَّ التي لها قرون قد تؤذي التي ليست لها قرون، والله -تبارك وتعالى- يفصل بينهما يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾⁶⁶ تُعرض الأعمال ويُجازى كلُّ بحسب عمله، بسبب عمله، لا أنَّ الجنة -مثلاً- هي عوض عن العمل؛ وإنما العمل سبب، وإنما الحقيقة أنَّ من يوفقه الله لدخول الجنة فإنما يدخلها برحمته -سبحانه وتعالى-.

والخلاصة: أن الخلائق يُعرضون على الله، فيفصل بينهم ويأخذ للظالم مظلّمته؛ حتى إنه -والعياذ بالله- إذا ما وُفِّت أعمال الظالم لِيُسَدَّدَ ما عليه من ظلم؛ فإنَّه تؤخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه فيطرح في النار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أُتَدْرُونَ مَنْ

المفلس؟ قالوا: يا رسول الله المفلس عندنا من لا درهم له ولا متاع؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، ليس هو ذاك؛ إنما المفلس من يأت يوم القيامة بصوم وصلاة وزكاة وأعمال صالحة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وتسبب لهذا وآذى هذا وأكل مال هذا، وأكل عرض هذا؛ فيؤخذ لهذا من حسناته، ويؤخذ للآخر من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطُرِحَ عليه فطُرِحَ في النار)).

وهذا هو الظلم الذي لا يترك الله منه شيئاً (ظلم العباد فيما بينهم)؛ لأنه حرّمه على نفسه، وحرّمه في الوقت نفسه على عباده (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)؛ أي: لا يظلم بعضكم بعضاً؛ والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه.

الخلاصة: أن الله - سبحانه وتعالى - يقتص للمظلوم من ظلمه طال الزمان أم قصر، حتى ولو طال عمره، فإن ذلك وبالٌ عليه؛ لأنه يطول عمره وهو في الظلمات، وفي ظلمات الناس يوم القيامة - والعياذ بالله -.

فلنؤمن بهذا العرض، وأن جميع الأعمال تعرض على الله فيُنصف كل مظلوم من ظلمه، فالظلم ظلمات يوم القيامة وسبب الهلاك؛ ولذلك إن الله لا يحب الظالمين، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الظلم ظلمات يوم القيامة))، والظالم لا يفلح ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾⁶⁷ فإنه بتعديه على حقوق الناس قد يدعو عليه شخص في ساعة استجابة فيستجاب له؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما أهلك من كان قبلكم بالظلم والشُّح)) أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

فلنحذر من الظلم كله، محرّم بكل أصنافه وأشكاله وألوانه، فيجب أن ينأى المسلم عنه بنفسه، ويكفي أن دعاء المظلوم مستجاب يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((واتق دعوة

⁶⁷ [الأُنعام: 21].

المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))؛ أي: اجعل بينك وبين دعوة المظلوم وقايةً بالعمل الصالح، فإن دعوته مستجابة. فعلينا أن نحذر من الظلم بكل أشكاله وألوانه. نعم، تفضل.

[المتن]

«وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ نَرَاهُ كَمَا نَرَى ... قَمَرًا بَدَأَ لِلْسَّتِّ بَعْدَ ثَمَانٍ»

[الشرح]

في هذا البيت إثبات صفة رؤية المؤمنين لربهم، إثبات أن المؤمنين يرون ربهم كما يرون القمر لا يُضامون في رؤيته، ويشير في هذا البيت إلى الحديث المتواتر وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته))؛ أي: لا تضارون ولا تُظالمون، فإن المؤمن سوف يحصل على هذا الفضل العظيم يوم القيامة؛ وهو النظر إلى وجه الله الكريم نظرًا حقيقيًا ليس مجازيًا، بدون إحاطة وبدون إدراك.

قد بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة هذا الأمر؛ بل وفي كتاب الله -عزَّ وجلَّ- ما يدلُّ على ذلك؛ فمن الكتاب قول الله -سبحانه تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾⁶⁸؛ قال المفسرون: أي: تنظر إلى ربها نظرًا، ووجه الدلالة من هذه الآية من ثلاثة وجوه:

أولاً: أنه قد عبّر بالوجوه التي هي محل الرؤية؛ ففي الوجوه العينان، والعينان هما محل البصر.

وثانيًا: تعديته بحرف (إلى)، ونَظَرَ تتعدى ب (إلى)، وتتعدى ب (في)، وتتعدى بدون حرف.

⁶⁸ [القيامة: 22-23].

تعديته بحرف (إلى): فإذا عُذِّي بحرف إلى، كان معناه النظر إلى الشيء حقيقة، (نظرت إلى زيد)؛ أي: وجهت نظري إليه، نظر زيد إلى عمر -ولله المثل الأعلى-؛ أي نظر إليه بعينه، فإذا عُذِّي بـ (إلى) كان نصًّا في النظر الحقيقي.

وإذا عُذِّي بـ (في) كان المقصود منه التفكير والتدبر، كما في قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾⁶⁹؛ فالمقصود نظرة تفكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾⁷⁰؛ فالمقصود هنا: نظر تفكر وتدبر.

وإذا لم تُعَدَّى؛ بل تعدت بنفسها؛ يعني إذا لم تُعَدَّيْ فالمقصود بها التمهّل والانتظار؛ ومنه قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾⁷¹.

والشاهد منها الآية الأولى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾⁷² فهي تدل نصًّا على رؤية المؤمنين، فما دامت قد عُذِّيت بـ (إلى) فهي نصٌّ في ذلك.

الثالث: خلو السياق من قرينة تصرف عن ظاهر الكلام إلى معنى آخر.

إذن، المقصود أنه متى خلا السياق من قرينة تصرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى آخر؛ فإذا خلا سياق الكلام من شيء يصرفه عن النظر الحقيقي، فلا يمكن أن يوجَّه إلى غير النظر الحقيقي، يؤيد ذلك قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾⁷²، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم من حديث صهيب أن الزيادة؛ هي: النظر إلى وجه الله الكريم؛ فالزيادة فسرّها النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ينادي أهل الجنة وأنه يقول يا أهل الجنة، فيخاطبهم فيقول لهم: هل بقي شيء تنتظرونه؟ فيقولون: يارب ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا

⁶⁹ [الصافات: 88].

⁷⁰ [الأعراف: 185].

⁷¹ [الحديد: 13].

⁷² [يونس: 26].

الجنة؟ ألم تباعدنا من النار؟ فماذا نريد بعد ذلك؟ فيقال له: بلى، إنَّ لكم موعداً لن تُخلفوا إياه، فينظرون إلى ربهم بعد أن يتجلى إليهم نظرة صحيحة بدون واسطة يرونه كما يرون القمر ليلة البدر.

فإذن ما دام النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فسَّر الآية الكريمة، وأنهم ينظرون إلى ربهم فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

ومن الأدلة أيضاً: قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته))؛ أي: لا يُحال بينكم وبينه، وهذا أمرٌ قد أجمع عليه أهل السنة والجماعة، وليس محل خلاف حتى ظهرت المعتزلة والجهمية ومن تفرع عنهم فأوجدوا فيه خلافاً. فلا يُلتفت إلى خلافهم، «فليس كل خلاف جاء معتبراً .. إلا خلاف له معنى من النظر»

فنحن لا ننظر إلى الخلاف من حيث هو، ننظر إلى هذا الخلاف هل هو حقيقي؟ هل هو مبني على النصوص الصحيحة من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

وأيضاً فإن النظر أو الرؤية صفة كمال، والذي لا يرى يُعدُّ معدوماً، وبهذا ألزمت المعتزلة الأشعرية عندما يثبتون الرؤية، بينما المعتزلة ينفونها، ويقول المعتزلة للأشاعرة: إنه يلزمكم إنكار الرؤية كما أنكرناها لماذا؟ قالوا: أنتم تنفون العلو -علو الرب -سبحانه وتعالى- والذي تطلقون عليه الجهة، ولا يُتصور مرئي إلا ويكون في جهة، فإذا ما دتم تنفون العلو فيلزمكم أن تنفوا الرؤية؛ ولذلك فعلاً وقع من وقع ومنهم أبو المعالي الجويني قبل رجوعه، فرجع إلى إنكار الرؤية بناء على إنكار العلو والاستواء؛ يعني بناء على إنكارهم العلو ألزمتهم المعتزلة بإنكارهم الرؤية، فهم بين أمرين: إما أن يرجعوا مع أهل السنة فيثبتون كلاً من العلو والرؤية،

أو يكونون مع المعتزلة حتى (..) التبعة؛ فلذلك فإن الرؤية ثابتة لا شك فيها للمؤمنين في الآخرة.

طيب هل ترون أن نتكلم على مذاهب الناس في الرؤية أو نقتصر على مذاهب السلف؟ نعم؟ عن مواقف الآخرين؟

طيب، المعتزلة ومن نهج نهجهم نفوا رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، فنفوا أن يكون المؤمنون يرون ربهم في الآخرة، ومع أن كثيراً ممن هم على منهج المتكلمين، وإن كان عند بقية التزام إلا أنهم يثبتون الرؤية؛ إلا أن جميع المعتزلة ينفونها. فإذا هؤلاء حكّموا عقولهم، فجعلوا الرؤية مستحيلة وجعلوا الرؤية تعتبر رؤية لبعض المخلوقات. ويُقال لهم: ما الذي يدلّكم على نفي الرؤية؟ قالوا: عندنا دليان. أقول: إنهم قالوا: عندنا أدلة، تمسكوا بدليلين ظنوا أنهما لهم وهي في الحقيقة عليهم.

الأول: قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾⁷³ ووجهة الاستدلال بهذه الآية من وجهين، أولاً: أنه نفي للرؤية، وأن الله لم يُجب سؤال موسى - عليه السلام -.

وثانياً: يقولون إن لن تفيد التأييد التي يسمونها (لن الزمخشريّة)؛ لأن الزمخشري ادّعى أنها تفيد التأييد في جميع الأحوال بدون استثناء، والحقيقة أن هذا باطل.

أولاً: أنه لا يُظن بكليم الله موسى أن يسأل أمراً مستحيلاً، أبداً، وإنما سأل أمراً مشروعاً عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁷⁴.

وثانياً: أن الله - سبحانه وتعالى - لم ينكر على موسى هذا السؤال، بينما أنكر على نوح - عليه السلام - سؤاله ابنه الذي أراد الله أن يكون من الغاوين.

⁷³ [الأعراف: 143].

⁷⁴ [الأعراف: 143].

وثالثاً: أن الله -عزَّ وجلَّ- لم يقل إنني لا أرى ولن يراني أحد؛ وإنما قال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أنت بوضعك الحالي لن تراني؛ يعني في خلقتك الدنيوية لن تراني، فولو قال: لا أرى، يمكن أن يكون هناك نفي، أو قال: لا يراني أحد، كذلك.

ورابعاً: أن الله -سبحانه تعالى- قد نصَّ على الرؤية بنص الكتاب والسنة، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، فلا نلتفت إلى من يخالف في هذا.

الأمر الأخير: أنه لم يقل به أحد من السلف يستدل به على نفي الرؤية.

أما من جهة كون (لن) تفيد التأييد فهذا غير صحيح؛ وإنما ينظر إليه بحسب السياق، فقد تقتضي التأييد وهي وحدها، وقد تقتضي التأييد بقيد ذكر التأييد، وقد لا تقتضي التأييد مع وجود قيد التأييد. كيف هذا؟

ولهذا نظائر في القرآن الكريم فإنها لم تفد التأييد مع أنها قد قرنت بالتأييد، كما قال الله -سبحانه تعالى- في وصف اليهود في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾⁷⁵؛ معنى الآية: أنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت، أليس كذلك؟ وقرنها بالتأييد، بينما نرى أنه ذكر في آيات أخرى أنه سيأتي اليوم الذي يتمنون فيه الموت، عندما يعاينون العذاب، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾⁷⁶ فهنا مع وجود التأييد دلت آية أخرى على أنهم يتمنون الموت في وقتٍ من الأوقات.

وكذلك نراها أيضاً قد أُقْتَتَ بزمن وهي داخلة على الفعل المضارع كذلك، وهو قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾⁷⁷.

⁷⁵ [البقرة: 59].

⁷⁶ [الزخرف: 77].

⁷⁷ [يوسف: 80].

يُضاف إلى هذا أنه لم يستدل أحدٌ من السلف على هذا المعنى الذي ذكروه، وأما استدلالهم؛ بقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁷⁸ فهذا مردود أيضاً بأمرين:

الأمر الأول: أن المقصود بالإدراك هنا هي الإحاطة، فالمنفي بقول الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: لا تحيط به، قال الله -سبحانه وتعالى- عن بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾⁷⁹ فهم ظنوا أنهم سيحاط بهم، ومع أنهم رأى بعضهم بعضاً، فمجرد الرؤيا لا يلزم منها الإدراك؛ ولذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: لا تحيط به.

الأمر الثاني: أن الله -سبحانه وتعالى- ذكر هذه الآيات على سبيل التمدُّح؛ لأن النفي المحض لا يجوز أن يوصف به الله -سبحانه وتعالى-، النفي المحض لا يجوز أن يوصف به الرب -جلَّ وعلا-؛ فمثلاً: النفي المحض هو الذي لا يترتب عليه فائدة كطريقة الذين يكتفون بالسلوب، ويقولون: بأن الله لا موجود ولا معدوم، ولا متصل ولا منفصل، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا إلى آخره؛ بل كل أمرٍ جاء نفيه عن الله -عزَّ وجلَّ- فإنه متضمن لثبوت اتصافه بضده، فنفي السنَّة والنوم تستلزم القيومية وكمال الحياة، ونفي المس باللغوب تستلزم كمال القدرة، ونفي العجز يستلزم كمال القدرة أيضاً، لا يوصف الله تعالى بالنفي المحض؛ لأنَّ النفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال؛ لكن يوصف بنفي يترتب عليه الاتصاف بضده، فالله قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ على سبيل التمدح؛ والمقصود بذلك أنه لا يحيط أحد به. فمقصود نفي الإدراك؛ أي نفي الإحاطة؛ ولذلك يقول ابن مالك صاحب الألفية في النحو:

«ومن رأى النفي بلن مؤبدا .. فقله اردد وسواه فاعضدا»

⁷⁸ [الأنعام: 103].

⁷⁹ [الشعراء: 61].

يعني: من زعم أن (لن) تفيد النفي على التأييد؛ فقوله مردود وليس بمقبول، وعليك أن ترد قوله وأن تعضد قول من سواه.

[الشريط الثامن والعشرون]



[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمته الله تعالى- في تُونِيَّتِهِ:

«وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ يَوْمَئِذٍ تُرَى ... مَوْضُوعَةٌ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ»

[الشرح]

هنا بعد أن بيّن المصنّف بعض ما يقع في عرصات القيامة، أشار هنا إلى وزن الأعمال وبيّن أنّ الأعمال تُرى موزونة وموضوعة في كفة الميزان، وفي هذا بيان لمنهج أهل السنة والجماعة من أنّ الأعمال تُوزن، وأن ثمة موازين يوم القيامة دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، وإذا دلّ الدليل من كتاب الله تعالى، أو صحح الدليل في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فحسبك به ولا تعنينا بُنيّات الطريق، ولا يعنينا نعيق الناعقين وخلاف المخالفين المجانين للجادة والمعتمدين على العقل والمنطق فيما يثبتون وما ينفون. وما دام الكتاب والسنة دلاً على ثبوت الموازين يوم القيامة؛ فنحن نثبت كما أثبتته الكتاب والسنة.

فمن الأدلة من القرآن الكريم: قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾⁸⁰، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾⁸¹، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾⁸²، وقوله تعالى: ﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

□ احتوى الشريطين (28، 29) على إعادة شرح الآيات التي شُرِّحت في الأشرطة: من (24) إلى (27)

وزيادة عليهم ثلاثة آيات؛ وهم: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ عَلِمْتَ بِهِوْلَهُ ... لَفَرَزْتَ مِنْ أَهْلِ وَمِنْ أَوْطَانِ

يَوْمَ تَشَقَّقَتِ السَّمَاءُ لِهَوْلِهِ ... وَتَشَيَّبُ فِيهِ مَفَارِقُ الْوِلْدَانِ

يَوْمَ عَبُوسٌ قَمَطِرِيرٌ شَرُّهُ ... فِي الْخَلْقِ مُنْتَشِرٌ عَظِيمُ الشَّانِ»

⁸⁰ [الأنبياء: 47].

⁸¹ [القارعة: 6-11].

⁸² [المؤمنون: 102-103].

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ⁸³، وقول الله - عز وجل -: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾⁸⁴.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم، وهو آخر حديث في صحيح الإمام البخاري: ((كلمتان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)).

وحديث صاحب البطاقة الذي رواه الإمام الترمذي وغيره بسند صحيح؛ قال: ((يُصاح برجل يوم القيامة فتمد له سجلات، كل سجل منها مد البصر -سجلات من الذنوب- تمد له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر)) -سبحان الله! ذنوبنا؛ لأننا نذنب في الليل والنهار من حيث نشعر أو لا نشعر-، كل سجل منها مد البصر، صحائف، سجلات مكتوبة عليك -يا عبد الله!-، ((فيقال له: أتكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا، لا أنكر منه شيئاً؛ بل فعلته كله، ثم يُقال له: أتذكر لك حسنة؟ فيبتهت الرجل ويقول: لا أذكر؛ فيقال: بلى، إن لك عندنا حسنة))؛ فيؤتى بكلمة أو بطاقة قد كُتبت عليها الشهادتان: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أو (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، يندهش الرجل ويقول: أين هذه البطاقة من تلك السجلات؟! فيقال له: إنك لا تُظلم، ثم توضع السجلات في كفة -وهذا دليل على أن الميزان له كفتان-، توضع السجلات في كفة، والبطاقة التي فيها الشهادة في كفة فتطيش السجلات ما معنى تطيش؟ تخف تماماً كما يذوب الملح، وتثقل البطاقة -سبحان الله- ثم يدخل الجنة، ترجح تلك البطاقة ثم يدخل الجنة.

وهذا دليل على عظمة التوحيد وأهميته، خلافاً لمن زعم وهون من شأنه في هذا الزمان بدعوى الاجتماع، ولو كان بالغث والسمين، فإن التوحيد تصغر أمامه الذنوب، ويكفر السيئات، ويرجح الحسنات، ويمحو الله به السيئات.

التوحيد إذا كان راسخاً في قلب صاحبه ينطق بها، وهو عالم بمعناها، وعامل بمقتضاها ظاهراً وباطناً، ليست دعوة يرددها بأذكار لا تعدو حنجرتة وبلعومه، يرددها بأذكار أوحى

⁸³ [الأعراف: 8-9].

⁸⁴ [الزلزلة: 7-8].

إليهم بها إبليس، بأذكار جماعية غنائية؛ يرددون كالغناء: "لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله" كأنها رقص! هذه لا، هذه الطريقة لا قيمة لها؛ بل هي هباء؛ لأنها على غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ العمل لا بد له من أن يكون خالصاً لله موافقاً لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه البطاقة ليس معناها أنه نطق بها بلسانه فحسب؛ بل إنَّ النطق بكلمة التوحيد لابدَّ له من أمور: لابدَّ من أن يكون معتقداً بها، وفاهماً لها، وعاملاً بمقتضاها، وليس المراد الذي يُردِّدُها كما تُردِّدُ البغاوات؛ وإنما المقصود أن في قلبه إيماناً راسخاً لا تزعزعه الجبال، وإن وجدت منه بعض الهفوات، ووجدت منه بعض الذنوب؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))، ويقول بعض السلف: "لم يسبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صوم، -يعني التطوع وإلا الفرض هذا لا يختلف فيه اثنان-؛ وإنما غلبهم بشيءٍ وقرَّ في قلبه -قوة الإيمان-، وفي هذا يقول الحسن البصري -رحمه الله- تعالى: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي؛ ولكن الإيمان ما قر في القلب وصدقه العمل"، انتبهتم لهذا؟ فهذا الذي جعل هذه البطاقة تثقل وتطيش تلك السجلات.

ومن دلائل الميزان: قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض)).

كلُّ هذه الأدلة تدلُّ على أنَّ الميزان حقُّ يوم القيامة، وأنَّ الأعمال تتحول إلى أجراء يعلم الله كُنْهَها وشكلها، يجعلها الله أشياء ملحوظة ومحسوسة ومشاهدة توضع في الميزان، فمن ثقلت موازينه سعد ونجا واجتاز الصراط، ومن خفت موازينه -إن لم يعامله الله بعفوه- هلك وكُرِّسَ في النار، إن كان مشركاً أو كافراً لا يستحق عفو الله، وإن كان مسلماً قد يعفو الله عنه بفضلِه، وبأسبابٍ يوفقه لها، وقد يعذِّبُه ثم يُخرج بعد تمحيصٍ.

وأما المعتزلة القائلون: "إن الميزان لا يعرفه إلا الفوال والبقال"؛ فإن هذا نتيجةٌ لإعراضهم عن النصوص الشرعية، واعتمادهم على عقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، ومتى خرج الإنسان عن هديِّ الكتاب والسنة؛ ضلَّ وأضلَّ، وبُعد عن السبيل، ووقع في التخبط، واستهوته

الشياطين، ووقع في الأهواء والأدواء التي تميل به يمينا وشمالا. فالميزان حق ولا ينكره إلا من هو أجهل من حمار أهله، معارضٌ ومعاندٌ ومكابِرٌ للنصوص الثابتة الصحيحة الصريحة.

[المتن]

«وَالْكَتُبُ يَوْمَئِذٍ تَطَايُرُ فِي الْوَرَى ... بِشَمَائِلِ الْأَيْدِي وَبِالْإِيمَانِ»

[الشيخ]

«وَالْكَتُبُ يَوْمَئِذٍ تَطَايُرُ فِي الْوَرَى ... بِشَمَائِلِ الْأَيْدِي وَبِالْإِيمَانِ»

يُشير المصنف - رحمه الله تعالى - إلى صحف الأعمال التي تسلم إلى الملائكة يوم القيامة، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله؛ قال الله - سبحانه وتعالى - في سورة الانشقاق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)﴾ وقال تعالى في الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَعُوا كِتَابِيَه (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27)﴾ - والعياذُ بالله - يتمنى الموت، الله - عز وجل - يقول: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾⁸⁵، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتُبُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾⁸⁶، ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه * خُدُوهُ فَعُلُّوهُ * ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾⁸⁷ - والعياذُ بالله -.

⁸⁵ [فاطر: 36].

⁸⁶ [الزخرف: 77-78].

⁸⁷ [الحاقة: 27-37].

فالكتاب، يُعطى كتابًا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾⁸⁸ ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ
بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، لا يُظلم أحدٌ شيئًا أبدًا، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ﴾⁸⁹، إذن كتب الأعمال وصحف الأعمال تتطاير يوم القيامة، وتذهب كل صحيفة إلى
صاحبها.

فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه، والمشرك أو الكافر يأخذ كتابه بشماله، مغلولة وراء ظهره -
والعياذ بالله- وهذا هو الجمع بين الآيتين ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾⁹⁰ و ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾⁹¹، تغلُّ يده الشمال من وراء ظهره، ثم ماذا؟ ثم يأخذ بها كتابه -والعياذ
الله-، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أصحاب اليمين ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ *
فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾⁹² إلى آخر الآيات
الكريمة، إلى أن قال: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ * فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ
مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصْرُفُونَ عَلَى الْغَنِيِّ
الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنْ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾⁹³.

وفي آخر السورة نفسها ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا
إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ
الضَّالِّينَ * فَتَزُلُّ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ﴾⁹⁴ -عياذًا بالله-.

⁸⁸ [الكهف: 49].⁸⁹ [ق: 18].⁹⁰ [الحاقة: 25].⁹¹ [الانشقاق: 10].⁹² [الواقعة: 28 - 31].⁹³ [الواقعة: 41 - 50].⁹⁴ [الواقعة: 88 - 96].

فيجب على المسلم أن يتفقد في كل يوم نفسه، ماذا قدم في هذا الكتاب؟ يجلس آخر الليل قبيل الفجر، يحاسب نفسه، ماذا سجل طول يومه في هذا الكتاب؟ ماذا قدم لآخرته؟ ماذا قدم ليوضع في سجلاته: من كلام، من قول، من فعل، من ظن، من حقد، من بغض، من مرض، من شك، من شرك، من مرض قلبي، من حب في الله وبغض في الله، وذكر الله -عز وجل- وتلاوة لكتابه ونحو ذلك؟ كل ذلك سيحده في الكتاب مسطوراً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. تفضل.

[المتن]

«وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يَجِيءُ لِعَرْضِنَا ... مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ دَانٍ»

[الشرح]

«وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ يَجِيءُ لِعَرْضِنَا ... مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ دَانٍ»

يشير إلى ما نصّت عليه الآية الكريمة: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾⁹⁵، وقوله سبحانه ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾⁹⁶. وقوله تبارك وتعالى ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾؛ فالله -تبارك وتعالى- يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته للفصل بين الخلائق.

لِعَرْضِنَا؛ أي: للعرض، عندما يُعرض الناس على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾⁹⁷ للعرض والحساب، فيجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته، ولا نعرف كيف يجيء؛ بل نكل علم الكيفية في المجيء، كما وكلناه في صفة الكلام وفي صفة الاستواء التي تقدمت لنا في أول هذه النونية.

⁹⁵ [الفجر: 22].⁹⁶ [البقرة: 210].⁹⁷ [الحاقة: 18].

فإذا سُئِلنا عن المجيء قلنا: آمنا بأنه يأتي، وإذا سُئِلنا: هل هو مجيء حقيقي ليس مجازياً؟ قلنا: نعم، إنه يجيء مجيئاً حقيقياً، وإذا سُئِلنا كيف يجيء؟ ماذا نقول؟ يجيء كما يليق بجلاله وعظمته، ونقف عند هذا الحد ولا نزيد عليه، أمّا الذين يؤولون القرآن الكريم، ويقولون: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: وجاء أمره؛ فهؤلاء قد قالوا على الله بغير علم، وحملوا النصوص ما لا تحتمل، وعطلوا وحرفوا صفة وصف الله بما نفسه، وشبهوه بغير القادر على المجيء؛ فوقعوا في محظورات كثيرة.

أولاً: أنهم عطلوا النص، الله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، وهم يقولون: وجاء أمره وهذا ماذا يسمى؟ تعطيل.

وثانياً: أوّلوا النص على غير معناه؛ حيث جعلوا المجيء الحقيقي مجيئاً مجازياً وهو مجيء الأمر.

وثالثاً: جعلوا الله عاجزاً عن الإتيان، والله قد وصف نفسه بالقدرة على ذلك؛ لأننا إذا قلنا لا يجيء فهذا تشبيه له بمن؟ بالعاجز.

ورابعاً: أنهم شبهوا مجيء أمره بمجيء أمر أحد من زعماء الدنيا وأمرائهم وملوكهم.

وخامساً: أن هذا قول على الله بغير علم، يعني كأنك تقول بأن القرآن ليس بصحيح؛ وإنما الصحيح: (وجاء أمر ربك)، والله -عز وجل- أنزل القرآن محكماً واضحاً بلسانٍ عربيٍّ مبين، يفهمه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فالذين قالوا: يجيء أمره، أو يجيء حكمه، أو يجيء تنفيذ أمره، أو تجيء ملائكته فقط؛ هذا تأويلٌ وتعطيلٌ وتحريفٌ، وتشبيهٌ للخالق بال مخلوق العاجز عن المجيء -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-.

أما ما يدعونه من لوازم تترتب على المحيي؛ فهذا ناتج عن أنهم قد شبهوا الله بخلقه، فلما شبهوا الله بخلقه وقعوا في هذا المحذور؛ لأنهم ما تصوروا مجيئاً إلا كمجيء المخلوق، بهذا ماذا فعلوا؟ شبهوا، فلما وقعوا في هذا؛ أولوا وشبهوا وعطلوا مرة أخرى.

وأما قوله: وهو في كل يوم دان أو «في كل وقتٍ دان»: يشير بهذا إلى أمرين: إما أن يكون المراد قربه بعلمه - سبحانه وتعالى - بحيث لا تخفى عليه خافية؛ فهو مع علوه على جميع خلقه ذاتاً وقدرًا وقهرًا؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، يستوي عنده القريب والبعيد على حد سواء في العلم.

وقد يقصد الشيخ بهذا أمرًا آخرًا؛ وهو نزوله في كل ليلة إلى السماء الدنيا؛ ليقول لعباده: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ واضح؟ يعني قول المصنف: فهو في كل يوم دان، أو في كل وقتٍ دان، يشير إلى أحد معنيين، ولعل الأخير أولى؛ لأن الأول معلوم من نصوص أخرى، إما أن يكون المراد قربه بعلمه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾⁹⁸، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾⁹⁹. وإما أن يكون المراد أنه يجيء في كل ليلة ينزل إلى السماء الدنيا فينادي عباده من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يدعوني فأستجيب له؟ وهذا متواتر في السنة، لم يختلف فيه أحد من أهل السنة والجماعة؛ وإنما خالف فيه المؤولة والمعتلة من المعتزلة والجهمية ومن جاء بعدهم من الكلائية والأشعرية وغيرهم.

فالمقصود النزول، كما جاء في الحديث: ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا))، فإن قيل: كيف ينزل؟ قلنا للقاء كيف هو؟ فإذا قال: لا يعلم كيف هو إلا هو قلنا له، ولا يعرف كيفية نزوله إلا هو سبحانه وتعالى.

⁹⁸ [ق: 16].⁹⁹ [الحديد: 4].

[الشريط التاسع والعشرون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيته:

«وَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ يَأْتِي أَمْرُهُ ... وَيَعِيبُ وَصَفَ اللَّهِ بِالْإِثْنَيْنِ»

[الشرح]

تكلمنا في الدرس الماضي عن إثبات صفة المحيي لله -تبارك وتعالى-، وقلنا إن شأنه شأن سائر الصفات التي تُمرُّ كما جاءت بلا كيف؛ فنقول فيها كما قال الإمام مالك -رحمه الله- في الاستواء: "المحيي معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، فنؤمن بأن الله يحيي للفصل بين الخلائق، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾¹⁰⁰.

وقد فصلنا الأدلة فيما مضى، والآن يذكر مذهب المخالفين فإن بعض الطوائف؛ ومنهم الطائفة الأشعرية التي سماها المصنف -رحمه الله-؛ تقول: إن معنى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: وجاء أمره، ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾¹⁰¹، يقولون: أو يأتي أمر ربك.

وأنا الآن أضرب للإخوة مثلاً -ولله المثل الأعلى-؛ عندما نقول: "جاء زيد"، ولم تقم قرينة تصرفه عن غير المعنى الحقيقي، وزيد قد جاء، فهل لو جاءنا شخص وقال: المقصود رسول زيد، أو أمر زيد، أو عين زيد، أو أبو زيد أو جده أو أخوه أو نحو ذلك، هل هذا مقبول حتى لغة؟ غير مقبول، كذلك والله المثل الأعلى، فما بالك بالله -عزّ وجلّ- يتحدث عن نفسه ويقول -وقوله الحق سبحانه-: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، نأت نحن بعد أربعة قرون ونقول وجاء أمره؟! هل الأولى الحمل على الحقيقة أم على المجاز؟ على الحقيقة. هل الأولى التأويل أو عدم

¹⁰⁰ [الفجر: 22].

¹⁰¹ [الأنعام: 158].

التأويل؟ عدم التأويل، ولا يلجأ إلى التأويل إلا بقريضة ودليل واضح أوضح من الشمس في رابعة النهار، وليس هنا قريضة ولا دليل تصرف الصفات عن مدلولها التي جعلها الله لها.

فبيّن المصنف -رحمه الله تعالى- هنا أن ما تقوله الأشعرية أو غيرهم من المؤولة، من أن معنى المجيء والإتيان؛ أي مجيء وإتيان الأمر خطأً جسيم، ومخالفٌ لظاهر القرآن، وليس عليه دليل لا من الشرع ولا من العقل، ولا حتى من اللغة العربية، والواجب حمل النص على ظاهره فإن أشكل عليهم أن مجيئه يلزم منه كيت وكيت؛ قلنا لهم: هذا ناتج عن تصوركم عن المخلوقين، أليس كذلك؟ وأما الرب -جلّ وعلا- فيكفي أن نفهم قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾¹⁰² إذا وضعت في حسابك وأمام عينيك وناظريك في كل لحظة ليس كمثله شيء؛ آمنت بما جاء من الصفات مع الإيمان بأنها لا تشبه بحال صفات المخلوقين، فقولهم: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾: وجاء أمره قولٌ فاسد مخالف لظاهر النص، مخالف للغة، مخالف حتى للعقل؛ ثم إن فيه لازماً فاسداً؛ وهو أنه كأنما نسبته إلى عدم القدرة على المجيء والإتيان؛ وهذا من أفسد الفاسد فلنتنبه لهذا. نعم.

[المتن]

«وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَرَ أَنَّهُ ... يَأْتِي بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»

[الشرح]

«وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَخْبَرَ أَنَّهُ ... يَأْتِي بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»

نحن نقول: إنه يأتي ويحيى كما يليق بجلاله وعظمته، أما هذا التحفظ الذي أورده المصنف؛ فنقول: إن الأولى السكوت عنه، نحن نقول يحيى وكفى، كيف يحيى؟ لا ندري، على أي وجه؟ لا ندري، بأي طريقة؟ لا ندري، كيف ينتقل؟ لا ندري، فلذلك قد لا يوافق المصنف -رحمه الله- على قوله: «بِغَيْرِ تَنْقُلٍ وَتَدَانٍ»، فالأولى هو التوقف فيما لم يكن لنا فيه علم من الله

¹⁰² [الشورى: 11].

-عز وجل-. ولم يأتنا علمٌ يحدد كيفية المجيء ولا طريقته ولا شكله؛ فنقول يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته ونقف عند هذا الحد لا نزيد ولا نقص، أما بغير كذا وبغير كذا من الأمور التي ليس فيها شيء مما لا يليق بالرب -سبحانه وتعالى-، فما سكت عنه الله سكتنا عنه لا نثبته ولا ننفيه؛ وإنما نكل علمه إلى الرب -سبحانه وتعالى-.

نعم، بعض أهل العلم يرى أن تنص على أنه يجيء وينزل؛ ولكن العرش لا يخلو منه -سبحانه وتعالى-، ومع ذلك أنا أقول: إن الأولى -كما قال بعض علمائنا- هو التوقف فيما لم يرد فيه نص، نؤمن بأنه مستو على عرشه، ونؤمن بأنه ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة، ونؤمن بأنه يجيء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته، ونقف عند هذا الحد، ولا نزيد ولا نقص. ولذلك فإن قوله: «بِعَيْرِ تَنْقِلٍ وَتَدَانٍ» أرى أن الأولى التوقف في هذا وعدم النص عليه. نعم.

[المتن]

«وَعَلَيْهِ عَرَضُ الْخَلْقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... لِلْحُكْمِ كَيْ يَتَنَاصَفَ الْخَصَمَانِ»

[الشرح]

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾¹⁰³ فيعرضون عليه ويحاسبهم ولا يخفى عليه شيء منهم، يستوي عنده القليل والكثير في المحاسبة؛ فيحاسب الواحد كما يحاسب البلاءين من البشر، والله -تبارك وتعالى- لا يعجزه شيء، يحاسبهم بكيفية يعلمها -سبحانه وتعالى- ويعرضون عليه فينصف المظلوم من الظالم؛ حتى جاء في الحديث أنه ينصف الشاة الجلهاء من ذات القرون؛ وهي الجماء التي لا قرون لها فالرب -تبارك وتعالى-

¹⁰³ [الحاقة: 18].

حَكْمٌ عَدْلٌ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠٤﴾.

فَاللَّهُ -سبحانه وتعالى- لا يعجزه شيء، وهو ينصف الخلق من بعضهم فيأخذ لكل ظلامته، ودواوين الظلم ثلاثة: ظلم لا يغفره الله -تبارك وتعالى- لمن مات عليه وهو الشرك بالله، وظلم لا يترك الله منه شيئاً وهو ظلم العباد فيما بينهم، وظلم تحت مشيئة الله إن شاء غفر لصاحبه بفضل، وإن شاء عذبه بعدله، ولا يظلم ربك أحداً؛ وهو ظلم العبد فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين نفسه.

فلذلك يأتي للفصل بين الخلائق ويعرضون عليه ولا تخفى منه خافية؛ فينصف كلاً من الآخر في يومٍ توضع فيه الموازين، وينصف فيه المظلومون، ويرفع فيه العدل، ويذهب ويتلاشى فيه الظلم.

[الطالب]

«وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ نَرَاهُ كَمَا نَرَى ... قَمَرًا بَدَا لِلْسَّتِّ بَعْدَ ثَمَانٍ»

[الشرح]

يُبين المصنف هنا -رحمه الله- ثبوت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ وهو ألدُّ نعيم عندهم، وتشبيهه هنا للرؤية بالرؤية، وليست للمرئي بالمرئي؛ أي: كما أن رؤية القمر ثابتة ليلة أربعة عشر وخمسة عشر، فكذلك رؤية المؤمنين ربهم ثابتة يوم القيامة لا شك فيها.

وقوله: «لِلْسَّتِّ بَعْدَ ثَمَانٍ»؛ يعني ليلة أربعة عشر ومثلها خمسة عشر، وقريب منها ثلاثة عشر؛ ولذلك تسمى الليالي البيض، فهل يخفى القمر في مثل هذه الليالي؟ أبداً؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته))؛ أي: لا يُحال بينكم وبينه، وهو أعظم نعيم يراه المؤمنون، وهو المراد بقول الله -عزَّ

¹⁰⁴ [النساء: 40].

وجلّ-: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾¹⁰⁵، وقول الله -عز وجل-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾¹⁰⁶، وقول الله -عز وجل-: ﴿عَلَى الْأَرْثَىٰ يُنْظَرُونَ﴾¹⁰⁷ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب لا تضامون في رؤيته)) متعنا الله وإياكم بالنظر إلى وجهه الكريم.

وأدلة الرؤية ثابتة في القرآن والسنة، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾¹⁰⁸؛ والمقصود: أنها ناصرة من النعيم والنضارة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تنظر إلى ربها وتراه يوم القيامة، وكذلك الأحاديث المتواترة ثبتت بها الرؤية: رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، التي هي أعظم نعيم، وقد أولتها فرّق سوف نتعرض لدحض تأويلاتها فيما بعد - إن شاء الله تعالى- . نعم .

[المتن]

«يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَوْ عَلِمْتَ بِهِوْلَهُ ... لَفَرَرْتَ مِنْ أَهْلِ وَمِنْ أَوْطَانِ»

[الشرح]

يشير بهذا: «يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَوْ عَلِمْتَ بِهِوْلَهُ ... لَفَرَرْتَ مِنْ أَهْلِ وَمِنْ أَوْطَانِ»

إلى الأهوال والعظائم التي تقع يوم القيامة؛ من حشر الناس على صعيد واحدٍ حفاةً عراةً غرلاً بُهَمًا، لا يُكَلِّمُ أَحَدٌ أَحَدًا، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾¹⁰⁹، كلٌّ مشغول بنفسه، كلٌّ يقول: نفسي نفسي، لا يفرغ والد لولد ولا مولود له بولد.

¹⁰⁵ [ق: 35].¹⁰⁶ [يونس: 26].¹⁰⁷ [المطففين: 23].¹⁰⁸ [القيامة: 22-23].¹⁰⁹ [عبس: 34-37].

فإذن يشير بهذا إلى الأحوال التي تجعل الإنسان لا يفكر إلا في مآله ومستقبله ولا يعنيه من كان معه في الدنيا من صديق وحميم وما إلى ذلك، فلنستعد لذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً، الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

[المتن]

«يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ لِهَوْلِهِ ... وَتَشِيبُ فِيهِ مَفَارِقُ الْوِلْدَانِ»

[الشرح]

«يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ لِهَوْلِهِ ... وَتَشِيبُ فِيهِ مَفَارِقُ الْوِلْدَانِ»، يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾¹¹⁰ وقال تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾¹¹¹ وقال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾¹¹² ويقول تبارك وتعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾¹¹³، فيوم القيامة تشقق السماء وتنفطر، وتخر الجبال هدأً، كلُّ شيء يزول ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾¹¹⁴، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾¹¹⁵؛ كالصوف المنفوش ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾¹¹⁶، كلُّ يقول: نفسي نفسي، نسأل الله العافية في ذلك اليوم الرهيب.

¹¹⁰ [الفرقان: 25].¹¹¹ [الحاقة: 16].¹¹² [الانشقاق: 1].¹¹³ [الانفطار: 1].¹¹⁴ [النمل: 88].¹¹⁵ [المعارج: 9].¹¹⁶ [المعارج: 8-9].

«وَتَشِيبُ فِيهِ مَفَارِقُ الْوِلْدَانِ»: الولدا الذين شعرهم مسود يشيبون لهول يوم القيامة، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾¹¹⁷ فإذا، فيه أهوال عظيمة تشيب منها الولدان، ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾¹¹⁸ نعم.

[المتن]

«يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ شَرُّهُ ... فِي الْخَلْقِ مُنْتَشِرٌ عَظِيمُ الشَّانِ»

[الشرح]

«يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ شَرُّهُ ... فِي الْخَلْقِ مُنْتَشِرٌ عَظِيمُ الشَّانِ»

قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾¹¹⁹؛ أي: كثيرُ الأهوال، كثيرُ العظائم، لا يمكن تصور ما فيه من أهوالٍ يجب الاستعداد لها بالأعمال الصالحة، التي نخلص فيها العمل لله، ونتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ونجتهد في تلك الأعمال التي تقربنا إلى الله -تبارك وتعالى-، وتلك الأعمال التي تقدم وفق الشرع ووفق هدي النبي صلى الله عليه وسلم فلنستعد لذلك، والنبي صلى الله عليه وسلم عندما سُئِلَ عن الساعة قال: ((ماذا أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله قال: "المرء مع من أحب")).

والحب ليس بالدعوى ولا بالأغاني ولا بالتملق ولا بالابتهالات ولا بالموسيقى والطرب؛ وإنما الحب يكون بالإتباع، واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً واعتقاداً. نعم

¹¹⁷ [المزمل: 17].¹¹⁸ [المزمل: 18].¹¹⁹ [الإنسان: 10].

[الشريط الثلاثون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى-:

«وَالْجَنَّةُ الْعُلْيَا وَنَارُ جَهَنَّمَ ... دَارَانِ لِلْخَصْمَيْنِ دَائِمَتَانِ»

[الشرح]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

بَيَّنَّ المصنف -رحمه الله تعالى- في هذا البيت بأن الجنة والنار مخلوقتان دائمتان موجودتان الآن، وهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو أن كلاً من الجنة والنار مخلوقتان موجودتان يزيد الله فيهما ما يشاء، وأنهما لا تفتيان ولا تبيدان؛ فيجب على المسلم أن يعتقد ذلك؛ بأن الجنة مخلوقة الآن وموجودة، وأنها لا تفتى ولا تبيد؛ بل كتب الله لها ولأهلها الخلود، وأن النار كذلك مخلوقة الآن لا تفتى، وأن الكفار من أهلها خالدون مخلدون فيها، وأما العصاة -عصاة الموحدين- فيخرجون برحمة الله -جلّ وعلا-.

وهناك مذهب آخر سنشير إليه بعد أن نذكر الأدلة على ما قرره المصنف -رحمه الله تعالى-؛ أدلة وجود الجنة؛ منها: قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾¹²⁰، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾¹²¹.

¹²⁰ [الحديد: 21].

¹²¹ [آل عمران: 133].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَام-؛ فَقَالَ: أَقْرَأُ أَمْتِكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ قِيَعَانِ، وَأَنَّ طَبِيبَةَ التَّرْبَةِ، وَأَنَّ غَرَّاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ))، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((أَنَا كَفِيلٌ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا))، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْجَنَّةِ فَرَأَى أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَأَطْلَعَ عَلَى النَّارِ -أَطْلَعَهُ اللَّهُ- فَرَأَى أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ))، وَصَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ عِنْدَمَا كَسَفَتِ الشَّمْسُ رَأَاهُ الصَّحَابَةُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا فَقَالُوا: رَأَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَتَنَاوَلُ شَيْئًا قَالَ: نَعَمْ، تَدُلُّ إِلَى قُطْفٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ أَكَلْتُ مِنْهُ لَأَكَلْتُ مِنْهُ إِلَى الْأَبَدِ أَوْ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقول الله -سبحانه وتعالى- في وصف سدرة المنتهى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾¹²².

وفي حديث نعيم القبر أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقُولُ: ((اِفْتَحُوا لِعَبْدِي بَابًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ لَهُ بَابٌ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَرِيحَانُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فيقول: رَبِّ! أَقِمِ السَّاعَةَ)) وعندما تفيض روحه يكفن بجنوط من الجنة؛ وهي درجات أعلاها جنة الخلد، وهي التي كان فيها آدم عليه السلام على الصحيح من أقوال أهل العلم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مِفْحَصِ الْقَطَاةِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ))؛

كُلُّ هَذِهِ أَدْلَةٌ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ مَوْجُودَةٌ الْآنَ، وَأَنَّ اللَّهَ يَزِيدُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بِحَسَبِ مَا يَعْمَلُهُ بَنُو آدَمَ؛ بَلْ إِنَّهُ يَبْقَى فِيهَا فَضْلٌ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ -كَمَا سَيَأْتِينَا- فَيَخْلُقُ اللَّهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيَدْخُلُهُمْ إِيَّاهَا.

¹²² [النجم: 13 - 15].

أما الأدلة على بقاء النار فهي كثيرة؛ منها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾¹²³؛ يعني هُيئت من الآن، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا﴾¹²⁴، وقوله جلّ وعلا: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾¹²⁵؛ الشاهد: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وإخباره عليه الصلاة والسلام عن عذاب القبر، وأنه يُفتح له بابٌ من النار -الكافر- فيأتيه من حرها وسمومها إلى يوم القيامة -والعياذ بالله-، وكونه إذا خرجت روحه توضع في المسوح -وهو كفن من النار- والعياذ بالله-.

وتقهقُر النبي صلى الله عليه وسلم عندما حصل الكسوف؛ وقال: إنه رأى عنقاً من النار قد امتد، وإخباره عليه الصلاة والسلام ليلة أُسري به عن بعض مشاهد المعذنين، وإخباره صلى الله عليه وسلم عن صاحبي القبرين أنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله، وإخباره صلى الله عليه وسلم عن الرجل الذي غلّ شملة من الغنيمة وأنها تشتعل عليه ناراً؛ كلُّ هذه أدلة واضحة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن.

وأما كونهما لا تغنيان فمن أدلة ذلك قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ قاله في معرض ذكر أهل الجنة، وقاله في معرض ذكر أهل النار، وقوله تبارك وتعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾¹²⁶؛ أي: إلا ما شاء من مكثهم قبل الدخول، أو لربط ذلك بمشيئة الله -جلّ وعلا- قاله أيضاً في معرض ذكر الجنة والنار.

¹²³ [آل عمران: 131].¹²⁴ [النبا: 21-22].¹²⁵ [غافر: 46].¹²⁶ [هود: 107].

وقال تبارك وتعالى في حق الجنة: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾¹²⁷، وقال تبارك وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾¹²⁸، وما معنى مقيم؟ أي: سرمدٍ لا ينتهي أبداً.

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾¹²⁹؛ أي: لا ينتهي أبداً، وقوله تبارك وتعالى في حق أهل النار: ﴿لَا يَبْقَى فِيهَا أَحْقَابٌ﴾¹³⁰؛ أي: دهوراً لا نهاية لها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾¹³¹، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾¹³²، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾¹³³.

وفي الحديث الصحيح أنه يُؤتى بالموت بين الجنة والنار على هيئة كبش؛ فيذبح بين الجنة والنار، ثم ينادي الله -جلّ وعلا-: ((يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت))، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾¹³⁴، وقال تبارك وتعالى في تبشير أهل الجنة: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾¹³⁵.

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة، تدلُّ على القول بأن الجنة والنار لا تفنيان أبداً، وقالت بعض الطوائف المنحرفة -ومنهم بعض الطوائف من الجهمية والمعتزلة-: "إن النار تفنى، أو إن أهلها يتجمدون فيها حتى يصبحون فيها جهنمين لا يتأثرون بعذابها، أو إنها تفنى بعد طول عذاب، أو نحو ذلك" فتلك أقاويل لا تستند إلى دليل ألينة؛ بل كل ما يستدلون به في

¹²⁷ [الرعد: 35].¹²⁸ [التوبة: 21].¹²⁹ [التوبة: 68].¹³⁰ [النبأ: 23].¹³¹ [فاطر: 36].¹³² [الحجر: 48].¹³³ [الزخرف: 77].¹³⁴ [الزخرف: 75].¹³⁵ [التوبة: 21].

هَذَا الباب إمَّا أَحَادِيث لَا تَصَحُّ، أَوْ نصوص يُلَوِّنُ أَعْنَاقَهَا؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْتَقِدَ مَا بَيْنَنَا وَأَشْرُنَا إِلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةِ السَّلَفِ مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ وَأَنْهُمَا لَا تَفْنِيَانِ أَبَدًا.

هناك بحث قد يتطرق إليه بعض أهل العلم وهو ما مصير نار العصاة بعد أن يُخْرَجُوا مِنْهَا؟ نقول في ذلك: الله أعلم.

هل تضاف إلى نار المشركين؟ هل تفتى؟ هل تبقى؟ ما ندري، نَكِلُ عِلْمَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، وَالْمَهْمُ إِنْ النَّارَ بِشَكْلِ عَامٍ لَا تَفْنَى، وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ لَا تَفْنَى.

هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِمَا بَيَّنَّهُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي هَذَا الْبَيْتِ. نَعَمْ، تَفَضَّلْ.

[المتن]

«يَوْمَ يَجِيءُ الْمُتَّقُونَ لِرَبِّهِمْ ... وَفَدًا عَلَى نُجْبٍ مِنَ الْعُقَيَّانِ»

[الشرح]

«يَوْمَ يَجِيءُ الْمُتَّقُونَ لِرَبِّهِمْ ... وَفَدًا عَلَى نُجْبٍ مِنَ الْعُقَيَّانِ»

يشير بهذا إلى الآية الكريمة في سورة مريم: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾¹³⁶ سبحانه الله! والجرمين قال: وردًا، كما سيأتي بعد قليل.

وفدًا، والوفد يشعر بماذا؟ بالتكريم، أليس كذلك؟

«عَلَى نُجْبٍ مِنَ الْعُقَيَّانِ»؛ العقيان: هي اليواقيت والذهب والفضة، والنُجْبُ: هي المركوبات، ما يُرَكَّبُ مِنَ الدُّوَابِّ أَوْ مَا يَشْبِهُهَا. طَبْعًا فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرٌ بَقْلَبَ بَشَرٍ، كُلُّ مَا تَتَصَوَّرُ مِنَ النُّجْبِ وَمِنَ الْمَرْكُوبَاتِ؛ فَالْجَنَّةُ فَوْقَ ذَلِكَ؛

¹³⁶ [مريم: 85].

لكن العقيان -المعنى الذي يقرب لنا المعنى-؛ العقيان: هي اليواقيت والذهب وما يتعلق بذلك من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة؛ ولكن لا تُقارن بما هو موجود في الدنيا.

يُحشرون إلى الرحمن وفداً؛ والوفد يُشعر بالتكريم وبحسن الضيافة وبحسن الوفادة، يضيفهم الله -عزَّ وجلَّ- من أول ما تفيض أرواحهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾¹³⁷، من بداية الأمر: ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نُزُلًا﴾؛ يعني ضيافة عظيمة ﴿مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾¹³⁸؛ فيكرم هذا الوفد بأعظم كرامة، ويضيف بأعظم ضيافة.

ومن سمات الوفد: الهدوء والطمأنينة حتى عند دخولهم الجنة عندما يؤتى بهم، يُحشرون إلى ربهم -سبحانه وتعالى- ثم إلى الجنة وفداً، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا، ماذا؟ فيه حرف ماذا هنا؟ الواو، ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾¹³⁹، ماذا يُشعر وفتحت؟ بينما -كما سيأتينا- بالنسبة للنار؛ قال: فُتِحَتْ، بدون واو، يُشعر بماذا؟ بالطمأنينة والهدوء والسكينة والتكريم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، تُفتح بهدوء وسكينة، وهناك ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ إيش والعياذ بالله؟ ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾¹⁴⁰ ليهوا هوياً فيها -والعياذ بالله-، هذا أمر الجنة، وأنهم وفد الرحمن، والوفد قمنٌ وحرىً بالتكريم، ويكفي أنهم ضيوف الرحمن، وهم وفوده الذين يكرمهم بألوان من الكرامات، وألوان من العطاء غير الممنون. نعم، تفضل.

[المتن]

¹³⁷ [فصلت: 30].

¹³⁸ [فصلت: 32].

¹³⁹ [الزمر: 73].

¹⁴⁰ [الزمر: 71].

«وَيَجِيءُ فِيهِ الْمُجْرِمُونَ إِلَى لَظَى ... يَتَلَمَّظُونَ تَلَمَّظَ الْعَطْشَانِ»

[الشرح]

نعوذ بالله. «وَيَجِيءُ فِيهِ الْمُجْرِمُونَ إِلَى لَظَى ... يَتَلَمَّظُونَ تَلَمَّظَ الْعَطْشَانِ»

يجيء في ذلك اليوم المهول المجرمون من الكافرين والعصاة والمبتدعة، على اختلاف في نهاية أمرهم، يجيئون إلى 'لظى'، ولظى اسم من أسماء النار، كناية عن شدة حرها، ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ والشوى هي جلدة الوجه -والعياذ بالله-، إذا أقبل عليهم الحميم نزع وجوههم، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾¹⁴¹ ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾¹⁴²، فهم يأتون وردًا بخلاف الذين يأتون وفدًا.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾¹⁴³ ما معنى وردًا؟ الورود كناية عن السرعة، والورود، دائمًا الإبل العطاش أو الحيوانات أو الغنم عندما تأتي إلى الماء وهي عطاش، تأتي بسرعة هائلة وتتزاحم، وربما تقع في البئر من شدة الزحام، كذا الكفار يساقون وردًا إلى النار، ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾¹⁴⁴، يوردون إلى جهنم، ولا يدخل في هذا ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾¹⁴⁵؛ لأن المقصود بالورود في آية مريم الأولى، المقصود به غير الورود في قوله: (وردًا) في آخر السورة؛ فالورود الأول المراد به بالنسبة للمؤمنين المرور على الصراط، كما فسر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ويبيّن أن دليل ذلك قول الله -عز وجل-:

¹⁴¹ [المعارج: 16 - 18].

¹⁴² [الكهف: 29].

¹⁴³ [مريم: 86].

¹⁴⁴ [هود: 98].

¹⁴⁵ [مريم: 71].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾¹⁴⁶؛ فالذين اتقوا يمرون كما جاء في بعض الأحاديث كصلاة أو ركعات يؤديها أحدكم على اختلاف في مرورهم؛ منهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالخيل، ومنهم من يمر يعدو عدوًّا، أو زحفاً ومنهم من يمشي تارة ويسقط تارة، ومنهم من ليس معه إلا ويص نور في إهمام قدمه حتى يتجاوز بحسب عمله، ومنهم من يريد السلوك ابتداءً فتخطفه كالليب جهنم التي هي مثل شوك السعدان - والعياذ بالله-.

«يَتَلَمَّظُونَ تَلَمَّظَ الْعَطْشَانِ»؛ يتلمظون: يعني يحركون شفاههم وألسنتهم من شدة ما يجدون من الضنك والعطش والحزن والمصائب التي توالى عليهم في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة؛ يعني يتلمظون: يحركون ألسنتهم وشفاههم لما يجدون من الألم والعطش والهلاك والشعور بالأسى -والعياذ بالله- . نعم.

[المتن]

«وَدُخُولُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ جَهَنَّمَ ... بِكَبَائِرِ الْآثَامِ وَالطُّغْيَانِ»

[الشرح]

نقف عند هذا الأمر إلى درس الغد إن شاء الله؛ وهي مسألة الكبائر ومصيرهم عند ربهم.

¹⁴⁶ [مریم: 72].

موقع المكتبة الصوتية للشيخ:
صَالِحُ بْنُ سَعْدِ السُّحَيْمِيِّ - حفظه الله -

www.alsoheemy.net

شرح نُورِيَّةِ القِطَانِيّ

لفضيلة الشيخ الدكتور:

صَالِحُ بْنُ سَعْدِ السُّحَيْمِيِّ

موجّه الدعاة بفرع وزارة الشؤون الإسلامية
بالمدينة النبوية، والمُدَرِّس بالمسجد النبويّ

الأشرطة العشرة الرابعة

[الشريط الحادي والثلاثون]

[المتن]

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

«وَدَخُولُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ جَهَنَّمَ .. بِكَبَائِرِ الْآثَامِ وَالطُّغْيَانِ»

[الشرح]

«وَدَخُولُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ جَهَنَّمَ .. بِكَبَائِرِ الْآثَامِ وَالطُّغْيَانِ» يقرر الشيخ -رحمه الله تعالى- هنا موقف أهل السنة والجماعة من مرتكب الكبيرة ومرتكب الكبيرة غير المستحل -طبعاً كبيرة فيما دون الشرك وفيما دون الكفر من كبائر الذنوب-.

والكبائر: جمع كبيرة وقد تعددت أقوال أهل العلم في الفرق بين الصغيرة والكبيرة، ولعل الضابط في ذلك أن يقال: إن الكبيرة ما تُوعد عليه من الذنوب بعذاب أو غضب أو لعن أو نحو ذلك من الوعيد. وإلا فثمة أقوال أخرى ولكن هذا هو أولاها فيما يبدو والله أعلم. ومرتكب الكبيرة غير المستحل لها الذي يعترف بذنبه ويعترف بأنه مخطئ ثم يوافي بكبيرته يعني يموت قبل أن يتوب منها فهذا تترتب عليه أربعة أمور:

- الأمر الأول: أنه مسلم لا يخرج من ملة الإسلام، وقد سما الله -عز وجل- الطائفتين مؤمنتين مع أن إحداها باغية في قوله -عز وجل-: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾¹ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا

¹ [الحجرات : 9]

- بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٢﴾ وَسَمَا الْقَاتِلَ أَخَا مَعَ أَنَّ جَرِيْمَةَ الْقَتْلِ مِنْ أَكْثَرِ الذَّنُوبِ بَعْدَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ، لَكِنَّ الْقَاتِلَ غَيْرَ الْمُسْتَحِلِّ سَمَاءَ اللَّهِ أَخَا لِلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ ﴿٣﴾
- والأمر الثاني: أنه لَا يُعْطَى اسْمُ الْإِيمَانِ بِالْكَلِيَّةِ وَلَا يَسْلَبُ مَطْلَقُ الْإِيمَانِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ مُؤْمِنًا كَامِلًا الْإِيمَانِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ السَّلَفِ **(لَا يَسْلُبُ مَطْلَقُ الْإِيمَانِ وَلَا يُوصَفُ بِالْإِيمَانِ الْمَطْلُوقِ)** بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ كَامِلُ الْإِيمَانِ كَمَا تَزْعُمُ الْمَرْجُئَةُ وَلَا يَسْلُبُ مَطْلَقُ الْإِيمَانِ كَمَا تَزْعُمُ الْخَوَارِجُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ عَنْهُ إِنَّهُ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ يُقَالُ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَسْلُبُ مَطْلَقُ الْإِيمَانِ. وَالآيَاتُ الْمَتَقَدِّمَةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَسْلُبُ مَطْلَقُ الْإِيمَانِ وَلَكِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالْإِيمَانِ الْكَامِلِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِي أَهْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا﴾ ﴿٤﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ ﴿٥﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَالْمَهَمُّ أَنَّهُ لَا يُعْطَى مَطْلَقُ الْإِيمَانِ وَلَا يَسْلُبُ الْإِيمَانُ الْمَطْلُوقُ بَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ أَوْ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ فَاسِقٌ.
- الأمر الثالث: أنه إذا وافى بكبيرته ولم يتب منها قبل الموت فإنه تحت مشيئة الله -تبارك وتعالى-: إن شاء غفر له بفضلته، وإن شاء عذبه بعدله. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٧﴾. الأمر الثالث أنه إن وافى بكبيرته ولم يتب منها فإنه تحت المشيئة،

² [الحجرات : 10]³ [البقرة : 178]⁴ [الحجرات : 15]⁵ [السجدة : 15]⁶ [الأَنْفَال : 2]⁷ [الكهف : 49]

تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر له بفضل له وإن شاء عذبه بعدله ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يدل لذلك قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾⁸ فبيّن أن الشرك لا يغفر، ثم إن ما دون الشرك تحت مشيئة الله - سبحانه وتعالى - ولا يصح تأويل الخوارج بأن قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾⁹ إذا تاب، لأنه لو كان قد تاب لا يحتاج إلى أن يقال إنه تحت المشيئة ولا يحتاج ذكر المغفرة لأن الله قد غفر له، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولذلك لا يلتفت إلى تأويل الخوارج وما أكثرهم في هذا الزمان لا كثرهم الله الذين يستحلون ويستبيحون دماء المسلمين. والمهم أن تقيدهم لهذه الآية بالتوبة تقييد فاسد ومعارض للنصوص الشرعية من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأما الذي يحمل على التوبة فهو قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾¹⁰ هذه الآية هي التي تحمل على التائب، ولذلك ما عبقها بالمشيئة وإنما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾¹¹. ولذلك قال في سورة الفرقان بعد أن ذكر عدد من الذنوب والمعاصي وعلى رأسها الشرك قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يَضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾¹² انتهى.

⁸ [النساء : 48]⁹ [النساء : 48]¹⁰ [الزمر : 53]¹¹ [الزمر : 53]¹² [الفرقان : 68, 69, 70]

التوبة تجب ما قبلها ولذلك لم يعثقه بالمشيئة. فالمعلق بالمشيئة هي تلك الذنوب التي يوافي بها صاحبها ولم يتب منها وكانت دون الكفر والشرك وهذا واضح لمن فتح الله على قلبه وجمع بين النصوص.

● الأمر الرابع: أن مرتكب الكبيرة إذا أراد الله أن يعذبه وأدخله النار فإنه لا يخلد فيها بل يخرج منها بعد تمحيص وتطهير. أن الله -عز وجل- إذا عذبه فإنه لا يخلد في النار وإنما يعذب بقدر ذنوبه التي ارتكبها ثم يخرج برحمة الله -عز وجل-. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان))، وفي حديث آخر أنه يؤتى بهم إذا من الله عليهم برحمته فيخرجون من النار وقد امتحشوا يعني اسودوا تفحموا فيلقون في نهر يقال له نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت البقلة في حميل السيل ثم بعد أن يستكملوا خلقهم فإن الله يمنُّ عليهم ويدخلهم الجنة. والمقصود بكلام الشيخ -رحمه الله- أنهم لا بد أن يدخلوا نار جهنم، لا يقصد الجميع جميع مرتكبي الكبيرة وإنما يقصد من شاء الله دخوله، كمن استوجب النار وليست عنده ما يكفر ذنوبه ولم ينل رحمة الله -عز وجل- حتى يطهره فهذا هو الذي لا يخلد في النار.

إذا نعود ونذكر هذا باختصار مرتكب الكبيرة إذا وافى بها ترتبت عليه أربعة أمور احفظوها جيدا وعوها:

الأمر الأول: أنه لا يخرج من ملة الإسلام خلافا لمذهب الخوارج.

الأمر الثاني: أنه لا يوصف بالإيمان الكامل ولا يسلب مطلق الإيمان، يعني لا يسلب الإيمان بالكلية ولا يطلق عليه أنه كامل الإيمان. فالذين سلبوه الإيمان بالكلية هم الخوارج والذين أعطوه كامل الإيمان مهما عمل من معاصي هم المرجئة، وكلا الطائفتين قد

ضلتا عن الجادة وحادثا عن سواء السبيل. بل يقول أهل السنة والجماعة إنه مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطونه اسم الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان.

والأمر الثالث: أنه إن وفى بكبيرته فهو تحت مشيئة الله -عز وجل- إن شاء الله غفر له بفضلته وإن شاء عذبه بعدله.

الأمر الرابع: أنه إن دخل النار فإنه لا يخلد فيها بل يخرج برحمة الله وفصله بعد تمحيص و تطهير. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة وهو واضح أبليج واضح لمن كان فاهما واعيا لنصوص الكتاب والسنة نعم تفضل.

[المتن]

«وَاللَّهُ يَرْحَمُهُمْ بِصَحَّةِ عَقْدِهِمْ .. وَيَبَدِّلُوا مِنْ خَوْفِهِمْ بِأَمَانٍ»

[الشرح]

«وَاللَّهُ يَرْحَمُهُمْ بِصَحَّةِ عَقْدِهِمْ» أي عقد الإيمان، فمن دخل في الإيمان بيقين لا يخرج منه إلا بيقين، وَاللَّهُ -تبارك وتعالى- يرحمهم بما معهم من إيمان، كما سمعنا الحديث قبل قليل ((يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)) وكذلك الحديث الآخر الذي فيه خروجهم وجعلهم في نهر الحياة حتى يدخلوا الجنة فيبدلهم الله بعد الخوف والعذاب بأمان بدخول الجنة، فيدخلهم الجنة. منهم من يدخل الجنة ابتداء فيبدل الله خوفه أمانا ابتداء، وهو من رجحت كفة حسناته و من وجدت عنده مكفرات تكفر سيئاته، وكذلك يشفع النبي صلى الله عليه وسلم لمن تساوت حسناته وسيئاته وقد يدخل في رحمة الله -سبحانه وتعالى- ولكن إذا شاء الله -عز وجل- وعذبه فإنه بعد أن

يطهره يمن عليه برحمته ويخرجه من النار ويدخله الله الجنة ويبدّل خوفه أمانا. والمقصود بعقدهم أي عقد الإيمان مهما قل مهما ضعف فإنه يكون سببا في إخراجهم من النار ويكون سببا في رحمة الله لهم نعم.

[المتن]

«وَشَفِيعُهُمْ عِنْدَ الْخُرُوجِ مُحَمَّدٌ .. وَطُهْرُهُمْ فِي شَاطِئِ الْحَيَوَانِ»

[الشرح]

يشير بهذا إلى شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته حيث قال عليه الصلاة والسلام: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) وفي رواية ((ادخرتها لأهل الكبائر من أمتي))، فهو يشفع لهم بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. وهذه ليست خاصة به وسيأتي الكلام عن الشفاعة مفصلة ولكن هذه من أنواع الشفاعة التي يشترك فيها هو وغيره من المؤمنين والملائكة والصالحين والأطفال ونحو ذلك، ولذلك جاء في الحديث أنه ((يشفع الأنبياء وتشفع الملائكة ويشفع المؤمنون والصالحون ويبقى أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج قوما لم يعملوا خيرا قط))، ولا بد أن يكون معهم أصل الإيمان، ولا يتصور أنهم لم يعملوا خيرا بأنهم لم يعملوا شيئا وإنما لم يعملوا خيرا يؤهلهم لدخول الجنة، وإنما عملهم قصر بهم حتى دخلوا النار ثم يخرجهم الله برحمته وفضله ومنه وكرمه - سبحانه وتعالى -. ولذلك فإنه لن يدخل أحدا الجنة بعمله وإن كان العمل سببا لكن ليس عوضا وإنما الدخول برحمة الله - عز وجل - كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)) فالجئوا إلى الله أن يتغمدنا وإياكم برحمته. ولكن علينا أن نلتمس الأسباب التي توصلنا إلى ذلك ((فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من

أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))، وأصح ما قيل في هذا الحديث أنه موقوف على علي أو على عمر -رضي الله عنهما-.

فإذا هذه المسألة في غاية من الأهمية والخطورة لأنه زلت فيها أقدام وتحيرت فيها أفهام وكثرت فيها الأوهام بين المفرطين والمفرطين، أما المسلم الذي يستنير بالنصوص الشرعية ويجعل ديدنه مذهب السلف الذين جمعوا هذه النصوص وبينوا مدلولها ومحترزاتها ومدلولاتها فإنهم هم الجديرون بأن يلازموا وأن يستفاد منهم، وسيأتي في مسألة الشفاعة تفصيل أكثر إن شاء الله تعالى نعم.

[المتن]

«حَتَّى إِذَا طُهِرُوا هُنَالِكَ أُدْخِلُوا .. جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَهِيَ خَيْرُ جَنَّاتٍ»

[الشرح]

بَيِّنْ هناك أنهم يدخلون في نهر الحيوان أو نهر الحياة وقد ذكرنا الحديث، ثم في هذا البيت بين أنهم إذا طُهِرُوا ونُقُوا ونُظِّفُوا ومَحْصُوا فإنهم يدخلون جنة عدن، جنة إقامة، جنة لا يفنى من دخلها ولا يموت ولا يشيب ولا يهرم، وإنما يبقى شاباً في سن عيسى عليه السلام عمره ثلاث وثلاثون عاماً. فالله -تبارك وتعالى- يتكرم عليهم ويخرجهم برحمته ويدخلهم نهر الحيوان، ثم بعد أن يَنْبَتُوا ويستكملوا خلقهم الذي يَوْفِّقُهُمُ اللهُ لَهُ عندها يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب نعم.

[المتن]

«فَاللَّهُ يَجْمَعُنَا وَإِيَّاهُمْ بِهَا .. مِنْ غَيْرِ تَعْدِيدٍ وَغَيْرِ هَوَانٍ»

[الشرح]

هنا يدعو أن يتغمدنا الله وإياهم -أي من وافوا بمعاصيهم- أن يجمعنا الله وإياهم في الجنة بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته، كما وعد أن يدخل من يشاء برحمته. فنسأل الله أن يشملنا وإياهم برحمته وأن يجمعنا في دار كرامته وفي مستقر جنانه ورحمته. وهذا دعاء من الشيخ بأن يلطف الله بهم وأن يجمعنا الله بهم في دار الخلد في جنات النعيم.

[الشريط الثاني والثلاثون]

[المتن]

قال الإمام القحطاني رحمه الله تعالى في نونيته:

«وَإِذَا دُعِيتَ إِلَىٰ أَدَاءِ فَرِيضَةٍ .. فَانْشِطْ وَلَا تَكْ فِي الْإِجَابَةِ وَانِي»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد ففي هذا البيت حثٌ للمسلم على أداء الفرائض بكل نشاط واحتساب وجدٍ وبعد عن الكسل والتواني، لأن الفرائض هي أساس هذا الدين فإذا تكاسل عن أدائها المسلم ترتب على ذلك أمور لا تحمد عقباها. لأن الكسل عن الفرائض وعلى رأسها الصلاة بعد توحيد الله - عز وجل - من سمات المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَآوُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ * مُذْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴿13﴾ وقال - تبارك وتعالى -: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿14﴾ ويقول - جل شأنه -: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ

¹³ [النساء : 142 , 143]

¹⁴ [البقرة : 45 , 46]

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها)) ويقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن الله -جل وعلا- كما رواه الإمام البخاري -رحمه الله تعالى-: ((وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه)). فيحذر الشيخ -رحمه الله- في هذا البيت من التواني عند أداء الفرائض -جميع الفرائض- وبخاصة الصلاة التي هي عمود الإسلام، فلا بد من أدائها في جماعة. ولذلك فإنها ثقيلة إلا على الخاشعين، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو علموا ما فيهما لأتوهما ولو حبوا)) ويقول عليه الصلاة والسلام: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه))، وكان يؤتى بالرجل وهو يهادى بين الرجلين. فإياك أن تتواني في أداء الفرائض من صلاة وزكاة وصوم وحج وبر للوالدين وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكف للسان وجهاد في سبيل الله إذا توافرت شروطه ومقوماته ونحو ذلك من الفرائض التي يجب أداؤها على الوجه الذي يرضي الله -سبحانه وتعالى-، فعلينا أن نبادر إليها. ويحذر من التواني وهو التكاسل لأن الكسل والتكاسل من علامات المنافقين المرائين قال الله -جل وعلا-: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾¹⁶ فإياك أن تتواني عن أداء الفرائض يا عبد الله نعم.

[المتن]

«قُمْ بِالصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَاعْرِفْ قَدْرَهَا .. فَلَهْنٌ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ شَانٍ»

[الشرح]

¹⁵ [البقرة : 238, 239]¹⁶ [الماعون : 4, 5, 6, 7]

« قُمْ بِالصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَاعْرِفْ قَدْرَهَا .. فَلَهِنَّ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ شَأْنٌ »

الصلوات الخمس أعظم الفرائض بعد الشهادتين بعد تحقيق التوحيد، فالفرض الأول عقيدة التوحيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً)). وفي حديث مجيء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم حديث عمر المتفق عليه قال: ((أخبرني عن الإسلام قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت)). إذا الصلاة أهم الأمور بعد تحقيق التوحيد، وأكثر من يترك الصلاة غالباً تجد في توحيدهم خللاً وتجد أن مرد ذلك أنهم لم يحققوا التوحيد تحقيقاً صحيحاً. فالصلاة عظيمة جداً فعلينا أن نعظمها وأن نؤديها في أوقاتها وفي جماعة، لأن التخلف عن صلاة الجماعة من سمات المنافقين. ولذلك فرضها الله على كل مسلم ذكر، حر، مستوطن، فلا يجوز التخلف عنها بحال. ولذلك هم النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم أن يستخلف أحداً ليصلي بالناس فيحرق على الذين يتخلفون عن الصلاة يحرق عليهم بيوتهم بالنار ولولا شفقتة على ما فيها من أطفال ونساء لفعل. ومن دلائل فرضية صلاة الجماعة أنه لا يعذر بها حتى في حال الحرب مع الكفار وفي حال المسايقة، فقد شرعت صلاة الخوف وأحياناً ولو بالإشارة ولذلك يقول: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا ﴿١٧﴾ صَلُّوا بِقَدْرِ مَا تَسْتَطِيعُونَ، ومن دلائل فرضيتها قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من سمع النداء ثم لم يأتها فلا صلاة له إلا من عذر))، فلننتبه يا عبد الله وعلينا أن نعظم قدر الصلاة. وقد أجمع العلماء على أن من جحد وجوبها كفر، كما أن القول الراجح أيضاً من أقوال أهل العلم أن من تركها تهاوناً هو كافر أيضاً، والنصوص دالة على ذلك ومنها أن الله قرنها مع توحيده وبين أن أكثر أسباب تعذيب الكافرين لتركهم الصلاة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ * عَنْ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ

¹⁷ [البقرة : 238, 239]

﴿ 18 ﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿ 19 ﴾ . إذا لا بد من أدائها بدون كسل وبدون تواني وفي جماعة. ومن أدلة كون تاركها يكفر قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر))، فهي منزلتها في الإسلام بمثابة عمود الخيمة الذي إذا سقط سقطت تلك الخيمة. فتارك الصلاة تهاونا يكفر على الصحيح وإن وجد من يقول بخلاف ذلك فإن النصوص دالة على ذلك، فبادر يا عبد الله إلى امتثالها وأدائها في جماعة. ومن عظمها أن الله وصفها بأنها كبيرة ﴿ 20 ﴾ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ 20 ﴾ نعم تفضل.

[المتن]

« لَا تَمْنَعَنَّ رَكَاةَ مَابِكَ ظَاهِرًا .. فَصَلَّاتِنَا وَرَكَاتِنَا أُخْتَانِ »

[الشرح]

« لَا تَمْنَعَنَّ رَكَاةَ مَابِكَ ظَاهِرًا .. فَصَلَّاتِنَا وَرَكَاتِنَا أُخْتَانِ »

قل أن تذكر الصلاة إلا وأن تقرن معها الزكاة في القرآن ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ²¹ وفي الغالب تقرن مع توحيد الله، تقرنان بتوحيد الله -جل وعلا- قال -تعالى-: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ ²²، ويقول -تعالى-: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ²³، فيجب على المؤمن أن لا يتهاون بشأن هاتين الشعيرتين.

¹⁸ [المَدَثَر : 40 , 41 , 42 , 43 , 44]

¹⁹ [المَدَثَر : 46 , 47 , 48]

²⁰ [البقرة : 45 , 46]

²¹ [البقرة : 43]

²² [البينة : 5]

والزكاة هي شيء يسير يخرج من المال لا يكلفك شيئاً يا عبد الله، لكن الشيطان قد يزين للإنسان البخل بها ويتصور أن ذلك ينقص ماله والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما نقص مال من صدقة))، ما نقصت صدقة من مال أبداً بل هي تنميه وتركه وبارك الله له فيه إذا أخرج زكاته، فقد قرنت مع الصلاة في آيات كثيرة. فالصلاة أخت الزكاة، ورد عن بعض السلف أنه قال: "الصلاة والزكاة أختان مقرونتان فمن صلى ولم يزكي فكأنه لم يصلي ومن زكى ولم يصلي فكأنه لم يزكي"، فلا بد من أداء الزكاة وهي حق المال الذي افترضه الله على عباده كما جاء ذلك في حديث معاذ: ((فإن هم أجابوك لذلك)) يعني للصلاة ((فأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم))، وهذا فضل من الله وهو شيء يسير لا ينقص من المال شيئاً. والمقصود أن الصلاة في غاية الأهمية. وقد قاتل أبو بكر -رضي الله عنه- من منع الزكاة وقال "والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة والله لو منعوني عناقاً أو عناقاً وفي رواية عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه"، فيجب أداؤها لأنها بركة للمال وزيادة له وفيها خير في العاجل والآجل على أموالك أخي المسلم نعم تفضل.

[المتن]

«وَالْوُتْرُ بَعْدَ الْفَرَضِ أَكَّدَ سَنَةً .. وَالْجُمُعَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْيَمِيدَانِ»

[الشرح]

«وَالْوُتْرُ بَعْدَ الْفَرَضِ أَكَّدَ سَنَةً .. وَالْجُمُعَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْيَمِيدَانِ»

ذكر الشيخ أربعة مسائل أو أربعة أمور:

ذكر أولاً الوتر وذكر أنه أكد السنن ولذلك يقول أكثر أهل العلم إنه سنة مؤكدة، ويرى آخرون أنه فرض لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يتركه لا حضراً ولا سفيراً

فلذلك قال بعضهم بفرضيته. وأقل ما يقال فيه أنه سنة مؤكدة. وقد كثر تهاون الناس به، يصلي الفريضة ينقرها نقرأ ثم ينصرف. والأولى أن يكون في البيت تكون صلاة الوتر في البيت، اللهم إلا من صلى قيام الليل فالأولى أن يكمل مع الإمام لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((من صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة)) فاعتنم هذا الفضل يا عبد الله وهو إحدى عشرة ركعة وإن زاد فالأمر فيه سعة لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي أحدكم الصبح فليصلي واحدة توتر له ما صلى)). فإياكم والتهاون به يا عبد الله، ثم فيه دعاء القنوت يسن ذلك وإن لم تجب المواظبة عليه خشية أن يشبه الواجب. فلنجهد بالمحافظة عليه وليكن آخر صلواتنا. ولا يصح وتران في ليلة فمن صلى الوتر أول الليل ثم يسر الله له أن يقوم أيضاً فإنه لا يوتر. ومن غلب على ظنه أنه يقوم يؤخر الوتر. وإذا غلب على ظنه أنه لا يصحو عليه أن يوتر قبل أن ينام، كما هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي دل إليه أو عليه أبو هريرة - رضي الله عنه -. فالوتر من أكد السنن ولا يجوز للمسلم أن يتهاون فيه.

والمسألة الثانية الجمعة: فالجمعة سماها النبي صلى الله عليه وسلم عيداً فيصبح عندنا في الإسلام ثلاثة أعياد، فالجمعة فرض عين على كل رجل مسلم حر قادر مكلف، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾²⁴. والجمعة قد أقسم الله بها في قوله ﴿وَشَهِدْ وَمَشْهُودٌ﴾²⁵ فينبغي بل يجب المبادرة إليها وقد سماها النبي صلى الله عليه وسلم عيداً، فتكون الأعياد في الإسلام ثلاثة؛ عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد الأسبوع الذي هو يوم الجمعة. وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ترك الجمعة

²⁴ [الجمعة : 9]²⁵ [البروج : 3]

وأخبر أن من ترك الجمعة اسودَّ ثلث قلبه فإذا ترك الثانية اسود الثلثان فإذا ترك الثالثة اسود قلبه كله.

والتبكير لصلاة الجمعة سنة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب شاة، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة))، ثم بعد ذلك تأتي الملائكة إذا بدأت الخطبة تستمع الذكر فلا يجوز ترك صلاة الجمعة ممن استوفى شروطها وهو المسلم الذكر الحر المستوطن طبعاً المكلف العاقل. فإذا يسن أدائها والاستماع للخطبة وتأملها وتفقه النفس فيما إذا كان مؤدياً لها على الوجه الصحيح أم لا. وتذهب إليها وأنت خاشعاً لله متطيب متخشع لابس أحسن ثيابك لأنك تناجي ربك - سبحانه وتعالى -.

إذا ننتبه لأداء الجمعة على الوجه الصحيح ولكن أنه هنا على شيء أن بعض المسلمين في بعض البلاد فإن الذين يتركون سائر الصلوات ولا يحضرون إلا يوم الجمعة فإن هذا عملاً يخشى أن يكون باطلاً فلا بد من أدائها ممن لزمته بشروطها وإلا تعطلت الجمعة، لكن الذي يأتي يوم الجمعة فقط ولا يصلي بقية الأوقات أرى أنه خاسر والحال هذه، بل تؤدي الصلوات الخمس ثم تؤدي الجمعة وكذلك العידان عيد الفطر وعيد الأضحى، العیدان مع الجمعة تصير ثلاثة أعياد، فأى عيد غير هذين العیدین فهو من أعياد الجاهلية. ولذلك فإن الإسلام لا يعترف بهذه الأعياد. والأعياد ما شرعت للتفاخر وارتكاب المحرمات، وإنما ليتهج الصائم بأن أتم الله له صومه فيشكر الله على ذلك، ولذلك يصلي صلاة العيد وقبل ذلك يخرج زكاة الفطر بالنسبة لعيد رمضان وفي عيد الأضحى أمور كثيرة وسنن كثيرة سوف يأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

والمهم أن نعلم أن العيد ليس مجرد مظاهر تُردّد وإنما لها معانٍ عظيمة لا يدركها كل أحد، ولعل من تلك المعاني إظهار وحدة المسلمين، شكر الله تبارك وتعالى على الصوم، التقرب بألوان القرب التي شرعها الله -تبارك وتعالى- في يومي العيد وعلى رأسها الصلاة والتكبير وما يتعلق بذلك.

[المتن]

«مع كُلِّ برٍّ صليها أو فاجرٍ .. ما لم يكن في دينه بمشأن»

[الشرح]

رجع إلى مسألة الصلاة والعيد وصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، يقول إنك تؤدي صلاة العيد وصلاة الجمعة وكذا صلاة الجماعة تؤديها وتصلّيها خلف كل بر وفاجر، المقصود بالفاجر من ارتكب معصية وهو الإمام المعيّن لكنها لا تبلغ حد الكفر، ويكون غير مستحل لها، وتكون مما لا يخرج من الملة، فتؤدها خلفه ولو كان عنده بعض الفسق والمعاصي ما دام موحداً لله -تبارك وتعالى- وما دام هو الإمام المعيّن من قبل ولي الأمر مع الاجتهاد في تغييره والبحث عن من هو أصلح منه بدون إحداث فتن، وإذا لم يتيسر تغييره تصلي خلفه. وقوله إذا كان في دينه غير مشأن المقصود إذا لم يبلغ درجة يخرج فيها من الدين، فإذا كان ملتزماً بدين الإسلام، يؤدي الصلوات، محققاً للتوحيد ونحو ذلك حتى ولو كان فاجراً، والمقصود بالفاجر هو المقصّر مع أنه معترف بذنوبه وموحد لله - سبحانه وتعالى- هذا المقصود بالفاجر. والصحابة -رضوان الله عليهم- صلوا خلف الحجاج، منهم من صلى خلف الحجاج ومنهم من صلى خلف الوليد بن عقبة وغير هذين خصوصاً إذا لم يوجد غيرهم إذا كان هو الإمام المعيّن، وهذا لا يمنع أن يجتهد في تغييره ما أمكن. والقاعدة عند أهل العلم أن من صحت صلاته لنفسه صحت صلاته بغيره هذه

قاعدة أصولية فقهية معروفة، من صحت صلاته لنفسه صحت صلاته بغيره، كما قلت مع الاجتهاد في التغيير إن أمكن ذلك بدون حصول فتن تضر بالإسلام والمسلمين. وليس المقصود بالإمام الفاجر الذي تصح الصلاة خلفه هو من يتعلق بالقبور أو من يعبد القبور أو من يذبح لأصحاب القبور أو من ينذر لهم أو يستغيث بهم من دون الله فهذا ليس مجرد فاجر أو فاسق بل هو مشرك لا تصح الصلاة خلفه. فإذا رأيت من يصلي إلى صاحب القبر يرجوه كشف الكربات وإزالة الملمات ويقول إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور أو نحو ذلك من تعلق بعض المنتسبين إلى الإسلام أو في هذا الزمان بأصحاب القبور يرجونهم ويخافونهم كما يخافون الله بل أشد بل يخافونهم خوف السر الذي لا يكون إلا لله - سبحانه وتعالى - فمثل هؤلاء لا يصلى خلفهم ولو صليت وحدك لأن صلاتهم أصلاً غير صحيحة، ونحن قدمنا القاعدة إن صحت صلاته لنفسه صحت صلاته بغيره والذي يعبد القبور ويذبح لها وينذر لها ويقدم لها القرابين ويقسم بأهلها ويطوف بها لا تصح صلاته لنفسه ولذلك لا تصح صلاته بغيره.

[الشريط الثالث والثلاثون]

[المتن]

قال المصنف - رحمه الله تعالى -:

«وَصِيَامُنَا رَمَضَانَ فَرَضٌ وَاجِبٌ .. وَقِيَامُنَا الْمَسْنُونُ فِي رَمَضَانَ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد

المصنف - رحمه الله تعالى - يتكلم الآن عن أركان الإسلام، وبعد أن تكلم كثيرا عن التوحيد أردف بذكر الصلاة فالزكاة والآن يذكر الصوم، ويبيّن أن الصيام فرض واجب على كل مسلم ومسلمة، وفي هذا بيان لفرضية الصوم الواضح لدى كل مسلم من قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾²⁶ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت)) وفعله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة. وهو شهر رمضان المبارك، شهر واحد في السنة، ومع كونه مفروضا على كل مسلم ومسلمة إلا أن ثمة أعذارا تبيح للمسلم الفطر، منها ما يلزم بعده

القضاء ومنها ما تكفي فيه الكفارة دون القضاء. فالسفر والمرض والحيض والنفاس ومثله المرأة تخاف على نفسها أو ولدها سواء كانت حاملاً أو مرضعة كل هؤلاء يفطرون ويقضون. أما من كان به مرض مزمن كفشل كلوي مثلاً، ومرض غالباً يستمر مدى الحياة، أو الشيخوخة التي أقعد صاحبها بحيث لا يستطيع الصوم فهذا يصوم * ويطعم عن كل يوم مسكين. فالصيام من أعظم الفرائض وأجلها كيف لا وهو سر بين العبد وبين ربه لا يعلم حقيقة الصوم إلا الله. يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه -جل وعلا-: ((كل عمل ابن آدم له الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف مضاعفة إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به)) إذا علم هذا يا عبد الله فعلياً أن نعلم أن الصوم ليس مجرد طقوس تؤدي أو ترك للطعام والشراب وإحضار لموائد الطعام عند المغرب وعند السحور كما هو فهم البعض لهذا الصوم، وكأنه يخشى من الهلاك من الجوع. الصوم أسمى من ذلك وأعظم، نعم يسر تعجيل الإفطار وتأخير السحور، ولكن ليس بهذا الشكل الذي يفعله الناس وهو ملء البطون حتى التخمته، مما ينتج عنه الكسل عن العبادة، وهو القيام الذي أشار إليه المصنف -رحمه الله تعالى- فإنه سنة مؤكدة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وفعله فأما فعله فإنه كان يقف حتى تنفطر قدماه وأما قوله فقد قال عليه الصلاة والسلام: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)) وللصوم آداب لا بد من مراعاتها منها كف اللسان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)) ومنها الاجتهاد في العبادة وتلاوة القرآن لأن رمضان شهر القرآن كما قال الله -جل وعلا- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾²⁷ ومما يلاحظ أن البعض إذا بدأ في الصوم تجده مغتماً ومحرزون ومهموم، تكلمه لا يكلمك إلا بنفس غاضبة، تستفسر عن أمر ربما لا يجيبك إلا بصعوبة، العمل لا يقوم به على الوجه الصحيح، وكان المفروض العكس أن يكون وقت نشاط وطمأنينة وفرح وسرور وإيمان

* لعل الشيخ أراد أن يقول لا يصوم

وقرب من الله - عز وجل - وقرب من الخير، ما الذي يدعوك إلى الحزن؟ يمكن انحراف من الدخان الذي ابتليت به، إذا اعزم واتركه لأنه خبيث من الخبائث ومحرم بلا شك ولا ريب والشيطان يغريك بأن تستمر عليه حتى إلى درجة أن منهم من يفطر على سيجارته قبل أن يفطر بتمرات كما هو هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فاعزم يا من ابتليت بذلك على تركه والبعد عنه فإنه شجرة خبيثة من أخبث الخبائث، مضرة ديننا وصحة ومالا وأذى للآخرين، فابتعد عنه يا عبد الله والقرشين التي تضعها فيه اجعلها في في امرأتك وأولادك ومصالحك أنت وأهلك، أو تصدق بها على فقير مسكين محتاج. والبعض يتخذ من رمضان وقتا للسهر والسمر على ما حرم الله - عز وجل -، وهذا دليل على غفلته وضعف إيمانه والبعض خصوصا من كان عنده إجازة وليس عنده عمل البعض إذا جاء آخر الليل ملأ بطنه من خيرات الله ثم نام ترك الفجر والظهر والعصر وربما صلى المغرب تقليدا ومجارات للناس، والويل لك أيتها المرأة المسكينة إن لم يجد أصنافا من الطعام الذي حدده ليملأ به بطنه الويل لك. لقد حظرت عند شيخنا ابن باز - رحمه الله تعالى - قبل بضع سنوات فجاء عنده رجل وأخبر أنه طلق امرأته لأنها لم تعمل له طعاما من نوع كذا وكذا في رمضان قبل الإفطار بخمس دقائق، لأن الشيطان بال في أذنيه من الصباح. هل تعلمون أن الشيطان يبول في أذن من يترك صلاة الفجر؟ هل تعلمون هذا؟ إياك أن تجعل نفسك مرحاضا للشيطان يبول في أذنيك فهو معه ويقول له نم وعليك ليل طويل، لا يرى الشمس أبدا، الشمس لا يراها، فإذا ما ملأ بطنه توجه إلى مقاهي (الانترزفت) وأخذ ينظر إلى ما حرم الله أو ذهب إلى بيت البشكة كما يسمونهم أو (...) وأحظروا أفلاما محرمة يحصلون عليها بطريقة أو بأخرى من طريق أقرانهم وجلساء السوء، فيعيش كثيرون في النهار ينام وفي الليل يحرم من طاعة الله ويسمي نفسه صائم، ما صام ولا صلى، أتعب نفسه، لأن من ترك الصلاة فقد كفر ولو كان تركه لها تهاونا هذا هو الصحيح فانتبه يا عبد الله. كان السلف يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم ما وفقهم الله له من عمل صالح فتنبه يا عبد الله. (قد هيئوك لأمر لو فطنت له *** فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل) أنت خلقت للعبادة يا عبد الله ما خلقت لترتع كالأنعام، ما

خلقت لتعيش كالسائمة تشبع شهواتك ونزواتك فقط ثم تبارز ربك بالمعاصي والعياذ بالله، فاتقي الله يا عبد الله واستغل هذا الموسم الكريم موسم التجارة الربحة، التجارة التي لن تخسر إذا وفقت فيها للعمل الصالح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾²⁸ فيا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر اقصر وعد إلى ربك وأعلم أنَّ الله تواب رحيم وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون، فارجع إلى ربك واستغفره من إفراطك في أمرك ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾²⁹ تفضل.

[المتن]

«صَلَّى النَّبِيُّ بِهِ ثَلَاثًا رَّغْبَةً .. وَرَوَى الْجَمَاعَةُ أَنَّهَا ثِنْتَانِ»

[الشرح]

يشير الشيخ - رحمه الله - إلى صلاة النبي صلى الله عليه وسلم التراويح؛ ففيها روايتان قيل إنه صلاها ثلاثا وقيل إنه صلاها ليلتين بل وقيل إنه صلاها أربع، ثم تأخر عن صلاتها جماعة وبين سبب التأخر وهو أنه خشية أن تفرض على الأمة، لأنه عليه الصلاة والسلام رحيم بأمته بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم ونفسي. وقد وصفه الله - عز وجل - بالرحمة فقال جل من قائل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾³⁰ فمن رحمته بأمته أنه خشي أن تفرض عليهم

²⁸ [الصف : 10, 11, 12]

²⁹ [الزمر : 53]

³⁰ [التوبة : 128]

صلاة التراويح، ثم استمر هذا الحال بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن جاءت خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه وأخزى الله من أبغضه وقلاه- لما جاء عمر ورأى الناس أوزاعا هذا يصلي وحده وهذا يصلي بصلاة أخيه ورأى الرجل والرجلين يصلون أوزاعا فكلهم أبي بن كعب وغيره من القراء في أن يصلوا بالناس جماعة، وإنما أحيا عمر -رضي الله عنه- سنة ثابتة ولم يأتي بشيء جديد كما زعم الزاعمون فلما رأى عمر -رضي الله عنه- الناس يصلون خلف إمام واحد سرّه ذلك فلما قال له من قال إنها بدعة قال نعمة البدعة هذه والتي تنامون عنها خير. ومقصوده البدعة اللغوية لأنه لم يفعل بدعة في الشرع وإنما باعتبار أنها لم تكن موجودة في عهد أبي بكر وإلا فقد فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يقول لهم نعمت البدعة لعلمه أنها ليست بدعة، وإذا سميت بدعة فهي بدعة لغوية لا بدعة محدثة في الدين، يعني بدعة نسبية باعتبار أن أبا بكر قبله لم يفعلها ولكن قد فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تأخر عنها خشية أن تفرض على الأمة. وأيا ما كان الأمر فإنها سنة، يضاف إلى هذا أن عمر هو أحد الخلفاء الراشدين وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)). وبهذه المناسبة أعرف أن ثمة من سوف يسأل عن حكم العدد في صلاة التراويح والقيام. لا شك أن الثابت من فعله صلى الله عليه وسلم هو إحدى عشرة ركعة وما كان يزيد عليها كما قالت عائشة -رضي الله عنها- غير أنه ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام: ((صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي أحدكم الصبح فليصلي واحدة توتر له ما صلى))، والذي يبدو أن الأمر فيه سعة فلا يجوز التشدد في مسألة العدد، بل إن الصلاة مع الإمام حتى ينصرف سنة مهما كان العدد لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة)) فلا أرى التشدد في هذه المسألة، فإن صلى الإمام إحدى عشر فصلي معه، وإن صلى ثلاثة عشر فصلي

معه، وإن صلى ثلاثة وعشرين فصلي معه، وإن صلى أكثر أو أقل فصلي معه. الأمر فيه سعة إن شاء الله ولا يجوز التشدد فيه، بل إنني أرى أن أولئك الذين يجلسون ولا يتابعون الإمام أنهم محرومون، وبخاصة إذا كان جالسا في المسجد. أما من اكتفى بعشر أو بثمان وانصرف فإنه ليس عليه اعتراض ولكن نقول إنه ما قام مع الإمام حتى ينصرف، أما الذين يجلسون بين المصلين ويتكلمون وهم يسمعون القرآن وبخاصة كثيرا ممن نشاهد في أسطحة المسجد الحرام، يجوبون الأسطحة عرضا وطولا، ويأكلون ويشربون يشربون الشاي والقهوة ويتكلمون فيما بينهم والقرآن يتلى، فإني أخشى عليهم من الإثم والحال هذه لأن الله - عز وجل - يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾³¹ إذا كنت مقتنعا بأن لا تزيد على إحدى عشر فصلها ثم انصرف أو اجلس استمع، مع أن الأمر كما قلت فيه سعة لا يجوز التشدد فيه. والأئمة عندنا منهم من يصلي بإحدى عشرة ومنهم من يصلي بأكثر ويصلي بأقل حتى لو رأيت إمام يصلي خمسا أو سبعا لا نعترض عليه. ولكن الآن الناس أكثرهم لا يتحمل الإطالة، فالإمام يجد أن في زيادة عدد الركعات مع تخفيف القراءة تشجيع للناس على الاستمرار في الصلاة، وأيا ما كان الأمر فالأمر فيه سعة ولا يجوز التشدد فيه البتة نعم.

[المتن]

«إِنَّ التَّوَارِحَ رَاحَةً فِي لَمَتِهِ .. وَنَشَاطٌ كُلُّ عُوَيْجَزٍ كَسْلَانٍ»

[الشرح]

إِنَّ التَّوَارِحَ رَاحَةً هذا فيه شيء من البديع والجناس، والمقصود بأن التراويح مع كثرة الركعات وقصر القراءة فيه حفز لمن وصفه الشيخ بالعويجز الكسلان، أما الذي يريد إطالة

³¹ [الأعراف : 204]

القيام والركوع والسجود فلا شك أن هذا خير وفضل عظيم، لكن في مثل هذه التراويح سميت بذلك لأن الإنسان قد يراوح بين رجليه عند التعب، فإن فيها حفزا وتشجيعا لأمثالنا من الكسالى على الاستمرار في أدائها مع الإمام. ولذلك وصفه الشيخ -رحمه الله- بالعويجز الكسلان وهذا ينطبق علينا إلا من رحم ربنا، أين الذين يقفون حتى تتفطر أقدامهم تأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم؟ أين الذين يقومون ثلث الليل حوالي أربع ساعات أو ثلاث؟ فعلينا أن نتنبه وأن نحرص على الخير أينما كان وحيثما وجد نعم.

[المتن]

«وَاللّٰهُ مَا جَعَلَ التَّرَاحِ مَنَكْرًا .. إِلَّا الْمَجُوسَ وَشِيعَةَ الصُّلْبَانِ»

[الشرح]

يعني يقول إن أولئك الذين ينكرون صلاة التراويح إما من تشبه بالمجوس أو تشبه بعبدة الصليب، ويبدو والله أعلم أنه وجد في عصره من ينكرها ومن لم يرفع بها رأسه، فلذلك شبهه بعبدة الصليب وعبدة النار وهم المجوس، وقد لا يصل الأمر به إلى هذه الحال ولكن لا شك أن إنكارها إذا كان عن هوى فيخشى أن تزل قدمه فينكر السنة وإذا كان عن اجتهاد أو شبهة فالله يتولاه.

[الشريط الرابع والثلاثون]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«وَالْحَجُّ مَفْتَرَضٌ عَلَيْكَ وَشَرْطُهُ .. أَمْنُ الطَّرِيقِ وَصِحَّةُ الْأَبْدَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم و الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد أن ذكر المصنف - رحمه الله - الصلاة والزكاة بعد توحيد الله - جل وعلا - ذكر الصلاة والزكاة والصوم وهاهو الآن يشرع في ذكر الحج وشروطه، وقد أشار أو نص على أنه مفترض كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾³² وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا)). وهو يجب فرضاً في العمر مرة واحدة، ولذلك لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم أفي كل عام يا رسول الله قال: ((لو قلتها لوجبت بل في العمر مرة وما زاد فهو تطوع)) وجاء عن بعض السلف أن امرء تمضي عليه خمس سنين ولم يحج مع القدرة إنه لمحروم، وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: "إن رجلاً يجد الزاد والراحلة ثم لم يحج فعليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً"، هذا كله دليل على فرضية الحج، وهو كسائر بقية الأركان من حيث بناء الدين عليها كما سمعنا الحديث أكثر من مرة ((بني الإسلام على خمس)) وذكر في آخره ((حج البيت لمن استطاع إليه

سبيلا)) وقد تكرر مرارا متفق عليه عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-. وهو شعيرة من شعائر التوحيد بل هو من أعظم مظاهر التوحيد، فمجيء المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد والتنقل من مكان إلى مكان كل ذلك مظهر من مظاهر وحدة المسلمين وأنهم يعبدون إله واحدا لا إله إلا هو. وله فوائد عقدية عظيمة لعله تأتي مناسبة لذكرها إن شاء الله تعالى. ثم شرع المصنف - رحمه الله تعالى - في ذكر شروط الحج، وذكر منها أمن الطريق، بأن يكون الطريق آمنا غير مخوف، بأن لا يكون هناك عدو يترصد بالحجاج الدوائر. وهذا الأمن ولله الحمد أصبح منقطع النظير، بعد مضي مئات السنين، وبعد مضي قرون وقرون والحجاج يعيشون خوفا، حتى إنهم يذهبون من عند أهلهم مودعين وفي الغالب لا يعود منهم إلا القليل، سواء ما يتعلق بقطاع الطرق الذين ينتشرون في كل مكان أو تعدي الوحوش أو التعرض للأمراض والجوع والعطش أو التعرض لبعض العوائق الأخرى، أما الآن ولله الحمد والمنة فطريق الحج آمن وأمان، والحاج يعيش آمنا منقطع النظير في ظل دولة التوحيد التي قيَّضها الله -تبارك وتعالى- لخدمة الحرمين في هذا العصر بعد أن ران الجهل والخوف مئات السنين، فلله الحمد أولا وآخرا وجزا الله القائمين على ذلك خير ما يجزي به عباده الصالحين.

إذا من الشروط: الأمن، فإذا كان الطريق مخوفا فإن المسلم غير ملزم بأن يذهب ولو وجد الزاد والراحلة. ثم ذكر بعد الأمن القدرة البدنية، بأن يكون صحيحا معافا جسديا ليس عنده مرض مزمن يمنعه من الحج وليس كبيرا مقعدا يحتاج إلى نقل، ولذلك فإني أقول للذين يأتون ببعض العجزة معهم الذين لا يمشون أن الأولى أن لا يأتوا بهم لما في ذلك من مشقة والله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾³³ ويقول ((لمن استطاع إليه سبيلا)) وهذا غير مستطيع ويمكن أن ينب من يحج عنه،

³³ [الحج : 78]

ولذلك لما سألت المرأة النبي صلى الله عليه وسلم قائلة: يا رسول الله إن أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: نعم. فالقدرة البدنية شرط ومن عجز بدنيا حجّ عنه إن كان مستطيعا من ماله أو يتبرع له أو يسقط عنه الحج، ولا داعي أن يتكلف المسلمون من مكان بعيد فيأتون بالمشلولين والعجزة وغير القادرين فإنهم قد رفع عنهم الحرج. وإذا ذكر شرطين وسنستكمل الشروط الأخرى، وهذا كله بعد الإسلام والعقل والتمييز والتكليف يعني بأن يكون مكلفا يعني بالغا عاقلا وستأتي شروط أخرى إن شاء الله تعالى نعم.

[المتن]

«كَبُرَ هُدَيْتَ عَلَى الْجَنَائِزِ أَرْبَعًا .. وَاسْأَلْ لَهَا بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ»

[الشرح]

لعلي قبل أن أدخل في مسألة الجنائز نستكمل شروط الحج. بعد أن عرفنا فرضيّته وذكرنا شرطين وهما الأمن وسلامة الجسد وكذلك وجود الزاد والراحلة، يعني النفقة والمركوب الذي يوصله إلى الحج، فإن عجز عن الزاد والراحلة عجز عن نفقته ونفقة عياله حتى عودته فإنه لا يلزمه الحج، وليس له أن يسأل من أجل ذلك. فإن تبرع له طوعا لا بأس، فوجود الزاد والراحلة الحلال التي هي من طريق حلال لا من طريق الربا ولا من طريق بيع آلات اللهو والطرب ولا من طريق بيع الخمر والميسر ونحو ذلك يعني تكون من طريق حلال فعندها يجب عليه الحج فور بلوغه إذا وجدت هذه الشروط. وتزید المرأة على الصحيح شرطا آخر وهو وجود المحرم فإذا لم تجد محرما سقط عنها الحج والعمرة، وإن كان بعض أهل العلم له رأي أنها إن وجدت الرفقة المأمونة وكانت بين مجموعة نساء تحج وتعتمر ولكني أرى أن هذا القول مرجوح والقول الصحيح المؤيد بالأدلة أنه يسقط

عنها، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم أن تسافر المسلمة بدون محرم وهذا مطلقاً في الحج وفي غير الحج، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه رجل قال: إني اكتتبت في غزوة كذا وكذا في الجهاد وستحج امرأتي، فأمره أن يترك الجهاد ويحج مع امرأته قال: ((انطلق وحج مع امرأتك)) فالصحيح أن المرأة لا تحج بدون محرم البتة مهما كان الأمر مهما وجدت من النفقة والزاد والراحلة ولو كانت كما يقول المعاصرون "مليونيرة" فإنها لا تحج بدون محرم. وهنا أنبه في المحرمية على مسألة تكررت في بعض البلاد وسئنا عنها غير مرة؛ وهو أن بعض النساء الأرامل أو العازبات تعقد لرجل أو تنفق مع رجل على عقد مؤقت حتى تعود من الحج ليكون محرماً لها، وهذا هو المتعة المحرمة وحتى لو اشترطت عدم قربانها، فإنه عقد باطل ولا يصير محرماً بهذه الكيفية، ولا أدري ما مستند من يفعل ذلك اللهم إلا الهوى وقلة البصيرة في العلم والجهل. وهذا تكرر في الحج في بعض بلاد المسلمين، كثيراً ما تأتي امرأة لما تسمع حديث المحرمية وكذا تأتي تسأل تقول عقدت لرجل علي يعني طلبت منه أن يعقد علي حتى نعود من الحج ثم يفسخ العقد، هذا أولاً عقد باطل وثانياً أنه من تلبس إبليس ولا يصح البتة، فالمرأة التي ليس لديها محرم يسقط عنها الحج وكفى. هذه بعض مسائل أحببت أن أنبه عليها في مسألة الحج نعم اقرأ البيت.

[المتن]

«كَبُرَ هُدَيْتَ عَلَى الْجَنَائِزِ أَرْبَعًا .. وَاسْأَلْ لَهَا بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ»

[الشرح]

ذكر الشيخ هنا صلاة الجنازة لأن هذه النونية شاملة للعقيدة والفقه، فبعد أن فرغ من أركان الإسلام بين صلاة الجنازة. وحكمها فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن

الباقين، والسنة أن تصلي في الصحراء اللهم إلا في ظروف مثل ظروف المسجد النبوي أو المسجد الحرام وصعوبة انتقال الناس وكثرة العدد الطيب فلا بأس أن تكون في المسجدين، ومن فاته ذلك له أن يصلي عليها عند القبر. وصفة صلاة الجنازة أربع تكبيرات وتسليمة واحدة وإن سلم مرتين فالأمر فيه سعة لوجود الدليل على الأمرين، لكن على المسلم أن يأخذ بما عليه أهل البلد الذي هو فيه حتى لا يحدث فتنة. تكبر التكبيرة الأولى وتقرأ سورة الفاتحة، ثم تكبر التكبيرة الثانية وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم تقرأ الصلاة الإبراهيمية التي نقولها في التشهد، ثم تكبر التكبيرة الثالثة فتدعو للميت، إن استطعت أن تحفظ الدعاء المأثور فهذا أولى وإلا فاسأل الله له المغفرة والعافية، ومما ورد اللهم اغفر لصغيرنا وكبيرنا وحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وذكرنا وأنثانا فإنك تعلم منقلبنا ومثوانا إلى أن يقول اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعفو عنه وأكرم نزهه ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وزوجا خيرا من زوجته وجازي بالحسنة إحسانا وبالسيئة غفرانا وأدخله الجنة بسلام ونحو ذلك، وإن كان طفلا زاد اللهم أحقه بالسلف الصالح المؤمنين واجعله في كفالة إبراهيم واجعله فرطا وذخرا وشفيعا لوالديه، في التكبيرة الرابعة يقف قليلا ثم يسلم. فينبغي أن نحصر عليها وأن لا نتهاون بها، لأن بعض البلاد لا يعرفونها يدورون بالجنازة بطقوس ما أنزل الله بها من سلطان ثم يضعون عليها تقليدا للكفار أكاليل الزهور، وهذا كله باطل فيجب أن نحذر منه نعم.

[المتن]

«إِنَّ الصَّلَاةَ عَلَى الْجَنَائِزِ عِنْدَنَا .. فَرَضُ الْكِفَايَةِ لَا عَلَى الْأَعْيَانِ»

[الشرح]

أشار - رحمه الله - إلى ما عليه الجمهور من أن حكم صلاة الجنازة فرض كفاية، فإذا صلى به جماعة من المسلمين أجزء عن الآخرين، لكن من حضر ينبغي أن لا يفرط في هذا الفضل، وليست على الأعيان. والفرق بين فرض العين وفرض الكفاية أن فرض العين يلزم كل واحد بعينه لا يعذر به أحد، وأما فرض الكفاية فإنه إن أداه البعض سقط عن الآخرين لكن لو تركوه جميعاً أثموا جميعاً نعم.

[المتن]

«إِنَّ الْأَهْلَةَ لِلْأَنَامِ مَوَاقِتُ ۖ وَبِهَا يَقُومُ حِسَابُ كُلِّ زَمَانٍ»

[الشرح]

«إِنَّ الْأَهْلَةَ لِلْأَنَامِ مَوَاقِتُ ۖ وَبِهَا يَقُومُ حِسَابُ كُلِّ زَمَانٍ»

يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾³⁴ فهي مواقيت يعرف بها المسلمون ابتداء الشهر وانتهاءه، ويعرفون بها منازل القمر ليستفيدوا في بعض أمور دنياهم كالزراعة ونحو ذلك، كما يعرفون بها التاريخ وتسجيل الوقائع والحوادث والديون والمواعيد ونحو ذلك، ففيها يعني للعناية بها فوائد عظيمة لا تعد ولا تحصى. والشهر العربي يتراوح بين تسع وعشرين وبين ثلاثين، لذلك ينبغي تحري الأهلة ليلة الثلاثين فإن رئي وإلا أكمل الشهر، وبخاصة في شهر رمضان وشهر شوال وشهر ذي الحجة، هذه الأشهر الثلاثة لا بد أن يعنى بها المسلمون أيما عناية ولا يعتمدوا على مجرد التقويم أو الحساب الفلكي، نعم قد يستعان به للتحري، وأما المناط الذي يكون به الحكم هو رؤية الهلال، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة للصوم:

³⁴ [البقرة : 189]

((صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدرُوا له)) وفي رواية ((إذا رأيتموه فصوموا ولا تصوموا حتى تروا الهلال وإذا رأيتموه فافطروا ولا تفطروا ولا تفطروا حتى تروه فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما))، ولذلك أكمل عندنا هنا أكمل شعبان ثلاثين يوما لأنه لم يتقدم أحد ثبت بشهادته الرؤية، ولا يلزم الاعتماد على رؤية الآخرين، وإن كانت هذه المسألة محل خلاف بين أهل العلم راجعة لاختلافهم في اتحاد المطالع أو اختلافها. والذي يبدو أن لكل بلد رؤيته، والمقصود بالبلد الأقاليم التي يتأخم بعضها بعضا، إذا علم أن ذلك البلد يتحرى تحريا دقيقا بالنسبة للرؤيا، أما الذي يعلن الشهر قبل أن يهل بأيام فيقول سيكون الصيام في اليوم الفلاني ويلزم بعض البلاد بها فهذا غير صحيح وإنما هو معتمد على مجرد الفلك والتقويم والحساب، وهذا مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا بأن نصوم لرؤية الهلال وأن نفطر لرؤيته. فيجب التحري في هذه الأشهر الثلاثة؛ شهر رمضان وشهر شوال وشهر ذي الحجة. ويمكن أن يتحرى عما قبلها لىبني عليه التحري في هذه الأشهر الثلاثة، فالأهلة نعمة من الله -عز وجل- يعرف بها المسلمون الحساب والصوم والحج والعيد وقد سمعنا الآية الواردة في ذلك نعم.

[المتن]

«لَا تُفْطِرَنَّ وَلَا تَصُمْ حَتَّى يَرَى .. شَخْصَ الْهَلَالِ مِنَ الْوَرَى إِنْثَان»

[الشرح]

«لَا تُفْطِرَنَّ وَلَا تَصُمْ حَتَّى يَرَى .. شَخْصَ الْهَلَالِ مِنَ الْوَرَى إِنْثَان»

الأمر فيه تفصيل؛ فبالنسبة للصوم يبدو والله أعلم أن رؤية واحد ثقة عدل كافية في الرؤية، وقد صام النبي صلى الله عليه وسلم برؤية واحد من الصحابة، لأن الصوم الأمر فيه أسهل من العيد، لأن العيد فيه تفطير وفيه أنه قد يتعرض لبقاء يوم، وأما رؤية هلال الصوم

فإنه يكفي فيها واحد على الصحيح. أما الفطر فلا بد من شاهدين عدلين يشهدان على أنهما رأيا هلال الشهر، والذي يبدو أنه لا يبقى بعد بضع دقائق، فالذي لا يراه في الدقائق الأولى لا يمكن أن يكون صادقا، فلو جاءنا واحد وقال أنه رآه بعد نصف ساعة من الغروب ليلة التحري، قلنا له هذا كذب لا يمكن أن يكون وهذا أمر واضح، بل يقول الفلكيون أن الهلال في أول مولده لا يبقى أكثر من سبع دقائق. وعلى أية حال في حدود دقائق معينة يمكن أن ينظر للهلال خصوصا إذا كان ليلة الثلاثين أما إذا أكمل الشهر فيصام في كل حال ولو لم يرى الهلال. فالصحيح الراجح أنه يصام لرؤية واحد عدل ثقة ويفطر لرؤية اثنين عدلين ثقتين نعم.

[المتن]

«مَثْبَتَانِ عَلَى الَّذِي يَرِيَانَهُ .. حُرَّانِ فِي نَقْلَيْهِمَا ثَقَتَانِ»

[الشرح]

يعني لابد أن يكونا مكلفين، ولابد أن يكونا حرين، ولابد أن يكونا ثقتين، ولابد أن يكون عدلين، ولابد أن يكون كلامهما أيضا يوافق المعقول. فمن جاء يدعي أنه رآه العشاء أو بعد ساعة ونحو ذلك ونحن في ليلة الثلاثين لا يصدق ولو حلف أيما نة مغرطة، لأن لله في خلقه سنن يعني لا تتخلف فيراعى في هذا سنن الله الكونية، أما من جاءنا يشهد على أمر واضح كذبه لا يصدق ولو جاء بألف معدل يعدله، ولذلك فإنه لابد أن يكونا ثقتين عدلين معروفين بالصدق متثبتين مما يريانه ولابد أن تكون الرؤية بالعين المجردة لا بالتليسكوب، لابد أن تكون بالعين المجردة نعم يمكن أن يستعان بالتليسكوب لتحديد المكان ثم يرشد الذين يتحرون أو الذين يراقبون ويحدد لهم المكان يمكن أن يقول لهم

صاحب التليسكوب أو المنظار أنظروه في المكان الفلاني بالتحديد ويشير إليه حتى يحدد فيه ويحددان وجوده نعم.

[المتن]

«لَا تَقْصِدَنَّ لِيَوْمٍ شَكٍّ عَامِدًا ۖ فَتَصُومُهُ وَتَقُولَ مَنْ رَمَضَانَ»

[الشرح]

يوم الشك هو يوم الثلاثين وقد نهينا عن صوم يوم الشك يقول (...). رضي الله عنه "من صام يوم الشك فقد عصا أبا القاسم"، فالمقصود يوم الشك هو يوم الثلاثين وأيضا نحن منهيون أن نتقدم رمضان بصيام يوم أو يومين إلا شخص له صوم فليصمه كما لو وافق يوم غير الشك يوم التاسع والعشرين أو يوم الثامن والعشرين لو وافق خميس أو وافق اثنين فيمكن أن يصام، أما اليوم الذي قبل رمضان مباشرة فالواجب عدم الصوم. قد يستثنى من هذا شخص كان يصوم كفارة وكان آخرها مثلا هو اليوم الثلاثين، فمثل هذا يبدو والله أعلم أنه أمر فيه سعة فإنه ييم صوم ذلك اليوم لأنه صوم واجب أيضا.

[الشريط الخامس والثلاثون]

يقول المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«لَا تَعْتَقِدْ دِينَ الرَّوَافِضِ إِنَّهُمْ .. أَهْلُ الْمُحَالِ وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم إن الحمد لله نحمده ونستغفره و نتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد

المصنف - رحمه الله تعالى - بدأ بالعقيدة ثم تعرّض لبعض الفرق كالجهمية والأشعرية والمعتزلة ثم تكلم على أركان الإسلام الخمسة ثم كرّ مرة أخرى يحذّر من العقائد الفاسدة والمناهج المنحرفة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكل بحلة ابتدعت بعده فهي مردودة على أصحابها أيا كانت تلك البحلة ولو سموها بدعة حسنة، فإنه لا يوجد في الإسلام ما يسمى بالبدعة الحسنة بل ما هناك إلا بدعة أو سنة، ولذلك فإنه يجب أن نحذر من كل فرقة تخالف هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم ومنهج أهل السنة والجماعة. وهذا لا يتأتى إلا بأن يعرف المسلم منهج أهل السنة وفق فهم السلف الصالح ثم يتعرف على المناهج التي خالفت هذا المنهج ليتجنبها فإن معرفة الشر إنما تكون لتجنبه، كما قال حذيفة -رضي الله عنه-: "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني"

وقد حذر الشيخ - رحمه الله - هنا من عقيدة الروافض، فكل من كفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أو كفر أزواجه، أو رد السنة، أو اعتقد نقص القرآن الكريم الذي بين أيدينا، أو قال على الله بالبداء، أو عبد القبور من دون الله، أو اعتقد لأئمته درجة تفوق أو حتى تساوي درجة الأنبياء والمرسلين، أو أجاز رواية الأحاديث المكذوبة و الموضوعية والمختلقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو اعتقد أن أحدا يتصرف في الكون مع الله - عز وجل -، سواء كان هؤلاء الروافض أو المتصوفة أو غيرهم من اعتقد هذه المعتقدات فيجب أن نفارقه وأن نبتعد عن هذه العقائد الفاسدة المفسدة التي فرقت المسلمين وجعلتهم شذر مذر منذ تآلب أولئك القوم الخوارج والروافض وغيرهم من الفرق الضالة منذ تكالبهم على عثمان - رضي الله عنه - وإلى يومنا هذا وهم ينشطون ويتفرقون. والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا بُسَّتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾³⁵ فمن لم يكن على هدي النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً واعتقاداً يجب علينا أن نبتعد عنه وعن عقيدته وأن نحذر من تلك العقائد الفاسدة التي أشرت إليها لأنها عقائد شيطانية ومن يعتقدها فهو شيطان، ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾³⁶ الشيطان لما عجز عن أن يمنع المسلمين من الإسلام لجأ إلى إقناع بعض المسلمين والمنتسبين للإسلام بالبدع والخرافات والمعتقدات الفاسدة التي أبعدتهم عن هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى زادت تلك الفرق عن الفرق التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم وهي ثلاث وسبعين فرقة زادت، ولعل الاثنين والسبعين أصول للفرق وإلا فقد تشعبت كثير من الفرق إلى أن أصبحت الفرقة الواحدة ربما تفوق هذا العدد. والمخرج من هذا كله و المخرج من مفارقة تلك العقائد الفاسدة سواء عقائد الرافضة أو المتصوفة أو الخوارج أو غيرهم من المبتدعة والملاحدة والباطنية ونحو ذلك، طريق السلامة من هذا هو التفقه في كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبيان مناهج تلك الجماعات المنحرفة للحذر منها وليكون المسلم على بينة من أمره حتى لا يقع في الإفراط أو التفريط، لأن

³⁵ [الأنعام : 159]³⁶ [محمد : 25]

ديننا الإسلامي دين وسط بين المفرطين والمفرطين ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾³⁷
نعم.

[المتن]

«جَعَلُوا الشُّهُورَ عَلَى قِيَاسِ حَسَابِهِمْ .. وَلَرُبَّمَا كَمَلَا لَنَا شَهْرَانِ»

[الشرح]

هؤلاء الرافضة وغيرهم من المنحرفين حساب الشهور عندهم تختلف عن حساب أهل السنة والجماعة فكثير منهم أو أغلبهم لا يرون الصوم ولا العيد مع جماعة المسلمين. كنا في بلد ما من بلاد المسلمين فقامت إحدى الفرق بالإعلان في الإذاعة بأن الذي رآه هؤلاء الناس إنما هو شيطان تمثل في صورة الهلال وعليكم أن تصوموا في يوم كذا وكذا يقولونه لأتباعهم، وهذا والعياذ بالله من الزيف ومن الانحراف عن سواء السبيل حتى الهلال أصبح فيه خلاف، يقولون هذا ليس الهلال الذي رآوه أهل السنة ليس هو الهلال وإنما هو شيطان تمثل لهم في صورة الهلال فأمروا أتباعهم أن لا يصوموا إلا في اليوم الذي بعده بل بعده بيومين والعياذ بالله ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾³⁸، ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾³⁹، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ * الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا⁴⁰ فسواء خالفوا في الصوم أو في العيد أو في عد الأشهر أو في التاريخ الهجري وإنما خالفوا في التاريخ الهجري لأن أول من بين أو من

³⁷ [البقرة : 143]

³⁸ [فاطر : 8]

³⁹ [محمد : 25]

⁴⁰ [الكهف : 103، 104]

حدد التاريخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، فلكرهيتهم لعمر وبغضهم إياه عدلوا في التاريخ، وبعضهم يؤرخ بالبعثة وبعضهم يؤرخ ببعض أعيادهم الجاهلية، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وعمر هو أحد الخلفاء الراشدين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)) فرضي الله عن عمر وأهلك الله من كره عمر أو سب عمر أو نال من عمر أو غيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نعم.

[المتن]

«وَلَرَبَّمَا نَقِصَ الَّذِي هُوَ عِنْدَهُمْ .. وَافٍ وَأَوْفَى صَاحِبُ النُّقْصَانِ»

[الشرح]

يحكي - رحمه الله - مخالفتهم، فلا ينظرون إلى الأهله في نقصان الشهر أو تمامه وإنما ينقصون ويكملون بحسب أهوائهم بقصد مخالفة أهل السنة والجماعة. هذا هو المراد بهذا البيت يعني أنهم يقدمون ويؤخرون كما يريدون من أجل مخالفة أهل السنة في أكثر أمورهم نعم.

[المتن]

«إِنَّ الرَّوَافِضَ شَرُّ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا .. مِنْ كُلِّ إِنْسٍ نَاطِقٍ أَوْ جَانٍ»

[الشرح]

«إِنَّ الرَّوَافِضَ شَرُّ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا .. مِنْ كُلِّ إِنْسٍ نَاطِقٍ أَوْ جَانٍ» كل من اعتقد المعتقدات التي ذكرتها: من كفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فهو شر من وطأ الحصى، ومن كفر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبخاصة حفصة وعائشة -رضي الله

عنهما - فهو شر من وطأ الحصى، ومن اعتقد أن القرآن الذي بين أيدينا ناقص فهو شر من وطأ الحصى من جن أو إنس، ومن اعتقد أن أئمة من المتصوفة والرافضة أفضل من درجات الأنبياء والمرسلين كما يقول ابن عربي: (مقام الرسالة في برزخ *** فوق النبي ودون الولي)، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، لأن الأولياء عند غلاة المتصوفة والرافضة، الأولياء يتصرفون في الكون مع الله، يخلقون الأجنة في بطون الأمهات، يسيرون السحاب، يسيرون الكون، يعلمون الغيب، لا يموتون حتف أنفسهم وإنما باختيارهم، لهم حق التشريع وحق التغيير بحسب ما يرون وغير ذلك من معتقداتهم الفاسدة التي تبلغ المئات. فمن اعتقد هذه المعتقدات فهو شر من وطأ الحصى ولا شك نعم.

[المتن]

«مَدَحُوا النَّبِيَّ وَخَوَّنُوا أَصْحَابَهُ .. وَرَمَوْهُمْ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ»

[الشرح]

لا ينفع مدح النبي مع سب أصحابه، لأن الصحابة هم الذين نقلوا لنا هذا الدين، فمن خَوَّنَهُمْ فقد ألغى الإسلام كله. من خَوَّنَ الخلفاء الراشدين أو غيرهم من الصحابة فإنه يطعن في الدين كله لأن الإسلام من أين جاءنا؟ جاءنا عن طريق الصحابة، فإذا خَوَّنَ الصحابة فلا إسلام. فتخوين الصحابة أو تكفيرهم أو سبهم يعتبر هدمًا للدين كله، ولذلك لا ينفع حتى ولو مدح النبي وهو يعتقد كفر الصحابة. أي شخص يعتقد أنه يمدح النبي ويشني عليه ويعتقد أنه متبع للنبي هو كاذب في هذا، أليس كذلك؟ يعني من يمدح النبي ويعتقد كفر أصحابه هل صدق في مدحه النبي صلى الله عليه وسلم؟ أبدا بل لقد صرح أحد زعمائهم المعاصرين قائلا بأن ربا يرضى أن يكون خليفة رسوله أبي بكر وعمر ليس ربنا، وأن نبيا يرضى أن يكون خليفته أبا بكر وعمر ليس نبينا، إذا (صارت مشرقة وصرت

مغربا *** شتان بين مشرق ومغرب) نعم يجب درء الفتنة مع هؤلاء الناس ولكن لا يمكنون من نشر فسادهم ومعتقداتهم نعم.

[المتن]

«حُبُّ قَرَابَتِهِ وَسُبُّ صَحْبِهِ .. جَدَلَانِ عِنْدَ اللَّهِ مُنْتَقِضَانِ»

[الشرح]

الذي يظن أنه يحب قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ويعادي بقية الأصحاب هذا تناقض أم ليس تناقضاً؟ بل منتهى التناقض، لأن آل بيته -رضي الله عنهم- وصحابته كلهم تجب محبتهم وموالاتهم ونصرتهم، آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام تجب موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم، ومنهم أهل بدر، ومنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ومنهم أهل بيعة الرضوان، ومنهم من أسلم قبل الفتح ومن أسلم بعد الفتح، كلهم توفي عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وقد بلغوا في حجة الوداع مئة وعشرين ألفاً تقريباً. فيجب الترضي عنهم جميعاً واعتقاد عدالتهم والكف عما شجر بينهم، لأنها فتنة أثارها المنافقون وأثارها عبد الله بن سبأ لعنه الله وغيره من المفتونين، وحصلت الفتنة وحصل ما حصل بين علي ومعاوية -رضي الله عنهم- وفي واقعة صفين وما حصل في واقعة الجمل وما إلى ذلك كل هذا يجب الكف عنه ويجب أن لا نتحامل على أحد منهم بسبب تلك الفتنة التي سببها المنافقون بينهم لأن لهم من الفضل والسابقة والخير ما يرجح بذلك. ثم إنهم إنما كانوا متأولين فيما صدر منهم فالذي يدعي أنه يحب أهل البيت ويكره الصحابة هل صدق في اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم؟ و من زعم أنه يحب الصحابة ويكره آل البيت هل صدق في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؟ ولذلك هؤلاء الرافضة والخوارج على طرفي نقيض، النواصب يكرهون أهل

البيت والروافض يزعمون محبة آل البيت ويكفّرون من عداهم والخوارج يكفرون علي - رضي الله عنه - فهذه كلها طوائف هالكة، طوائف مبتدعة ملحدة بعيدة كل البعد عن هدي الإسلام الصحيح، فيجب أن نحذر منهم وأن نحذر من معتقداتهم. الآن لما يأتينا شخص يدّعي الإسلام يقول أنا أؤمن بالقرآن لكن لا آخذ بالسنة هل يعتبر مسلم؟ لا شخص يقول أنا أريد أن آخذ الآيات أؤمن بالقرآن لكن وددت لو أنني ألغيت آيات الصفات كما فعلت الجهمية هل هو من المسلمين؟ لا، شخص يدعي محبة النبي ويخون أصحابه، أو يدعي محبة آل البيت ويكفر بقية الصحابة، أو يعتقد كفر بعض الصحابة أو نحو ذلك، فإن هذا طعن في الدين كله، ولذلك ما بلي الإسلام بشر من هذه الفئات منذ فجر التاريخ، وما سقط الإسلام إلا على أيديهم عبر التاريخ. سقطت بغداد أيام التتار سنة ست مائة وست وخمسين على أيدي نصير إبليس المسمى نصير الدين الطوسي وزير المتوكل العباسي أيوة آخر خليفة. وجميع الدواهي التي تدهى المسلمين عبر التاريخ لهم إسهام فيها، لأنهم يتحالفون مع أي طرف ضد المسلمين أهل السنة، بل يرون أن إيذاء أهل السنة قربة يتقربون به إلى الله - سبحانه وتعالى - فهذا تناقض، كيف تدعي محبة آل البيت وأنت تكفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الباقين؟ ليس هناك أحب من آل البيت إلى أبي بكر وعمر - رضي الله عنهم - وعثمان، علي - رضي الله عنه - زوج عمر ابنته، وهم يحبون بعضهم ويترضون عن بعض ويترحمون عن بعضهم البعض - رضي الله عنهم أجمعين - وقاتل الله من خونهم أو أبغضهم أو كرههم نعم.

[المتن]

«فَكَانَ آلُ النَّبِيِّ وَصَحْبُهُ .. رُوحٌ يَضُمُّ جَمِيعَهَا جَسَدَانِ»

[الشرح]

الله أكبر، يعني يشبه الشيخ - رحمه الله تعالى - الصحابة وتماسكهم وتكاتفهم وتعاونهم وتضامنهم بمن فيهم آل البيت وسائر الأصحاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كروح في جسدين، وهذا لبيان قوة العلاقة بينهما، يعني لبيان قوة العلاقة بين الصحابة - رضوان الله عليهم وأرضاهم أجمعين - فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. الصحابة - رضي الله عنهم - بمن فيهم آل البيت هم صفوة هذه الأمة وقطب رحاها بعد نبينا صلى الله عليه وسلم، ونقلة الإسلام والإسلام ما جاءنا إلا عن طريقهم، فالطعن فيهم طعن في الإسلام كله، الطعن في آل البيت طعن في النبي صلى الله عليه وسلم، والطعن في سائر الصحابة طعن في النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم أصحابه الذين أحبه وأحبوه وبايعوه وناصروه وآزره وأووه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وتوفي عنهم وهو راض عنهم جميعاً عليه الصلاة والسلام. كان أحدهم لا يخاطبه إلا وهو مطأطأ رأسه، يستحي أن يملأ عينيه من النظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقد وصف هذا حتى بعض الكفار، يعني بعض الرسل الذين جاءوا من ملوك فارس والروم، يعني هالهم هذا الأمر وإحاطتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم واحترامهم إياه وتقديهم إياه وتسابقهم على فضل وضوءه بل وعلى نخامته و و إلى آخره من تبركهم به عليه الصلاة والسلام إبان حياته، فدهش مندوب ملوك الروم وفارس، دهشوا من هذا الأمر، كلهم سواء كان منهم المسلمون آل البيت أو غيرهم، الصحابة كلهم عدول فهم كما وصف الشيخ كروح واحدة في جسدين فعلياً أن نحبهم، يعني سواء آل البيت أو أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نعم.

[المتن]

«فَتَانِ عَقْدُهُمَا شَرِيعَةُ أَحْمَدٍ .. بِأَبِي وَأُمِّي ذَانِكَ الْفِتَانِ»

[الشرح]

فئتان تجوزا وإلا فهم فئة واحدة، والقصد بالفتنيتين يعني هنالك آل البيت وهناك الصحابة، نعم آل البيت لهم حرمتهم ولذلك لا تحل عليهم الصدقة، والرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((الله الله في أهل بيتي)) -رضوان الله عليهم- ويدخل في آل بيته أزواجه جميعا هذا هو الصحيح، آل علي وآل عقیل وآل العباس ويدخل فيهم أزواجه -رضي الله عنهن- والله إن أزواجه من أهل بيته، ولذلك حتى في القرآن ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾⁴¹ وهو يتحدث عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، أبعد هذا الذي ثبت في كتاب الله نسمع لخبث يتهمهن بالإفك ويتهم عائشة -رضي الله عنها- وقد برأها الله من فوق سبع سماوات؟ ولذلك قال إنهم فئتان لكنهم فئة واحدة يعتقدون عقيدة واحدة وينتظمون في سلك واحد ويدينون بدين واحد يعبدون ربا واحدا ويقتدون بنبي واحد ويسیرون على منهج واحد -رضي الله عنهم وأرضاهم- نعم.

[المتن]

«فَتَّانِ سَالِكَتَانِ فِي سَبِيلِ الْهُدَى .. وَهُمَا بَدِينِ اللَّهِ قَائِمَتَانِ»

[الشرح]

يعني آل البيت وسائر الصحابة سائرون على درب الهدى وعلى طريق أهل السنة والجماعة بمن فيهم علي والحسن والحسين -رضي الله عنهما- وسائر آل البيت وأصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كلهم كما قال المصنف في طريق الهدى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَاهُ﴾⁴² أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

⁴¹ [الأحزاب : 33]⁴² [الأنعام : 90]

الذين بهم قام القرآن وبه قام، وبهم نطق القرآن وبه نطقوا، أثنى عليهم الله في كتابه؛ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ⁴³، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ⁴⁴، وفي آخر سورة الحشر ذكر المهاجرين والأنصار ومن أسلم بعدهم من الصحابة. وسائر ما جاء في الثناء عليهم - رضي الله عنهم أجمعين - فلا نسمع لناحق ينال منهم أو يسبهم أو يحط من قدرهم، نسأل الله أن يحشرنا في زمريهم، فهم سائرون في درب الهدى ومطبقون لقول الله - عز وجل - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ⁴⁵.

يقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في هذا المعنى: "سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، وقوة على دين الله، واستكمال لطاعة الله، من استنصر بها فهو منصور، ومن اهتدى بها فهو مهتد، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها، من ابتغى الهدى من غيرها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا". فإذا هم سائرون على هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أهل البيت وسائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فهم يقتفون هدي النبي صلى الله عليه وسلم و متمسكون بسنته عليه الصلاة والسلام ويعضون عليها بالنواجذ.

⁴³ [النوبة : 100]⁴⁴ [الفتح : 18]⁴⁵ [النساء : 115]

[الشريط السادس والثلاثون]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«قُلْ إِنَّ خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ .. وَأَجَلٌ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْكُثْبَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

«قُلْ إِنَّ خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ .. وَأَجَلٌ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْكُثْبَانِ»، يبين الشيخ - رحمه الله تعالى - أن أفضل الأنبياء والرسل بل والبشرية جمعاء بل والخلق أجمعين على الصحيح هو نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -، ختم الله به النبوات والرسالات واختص رسالته بأن تكون رسالة عامة للثقلين الجن والإنس ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾⁴⁶، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾⁴⁷ فنبينا - صلى الله عليه وسلم - له خصائص عظيمة لا يمكن حصرها في مثل هذا المقام فمنها؛ أنه عليه الصلاة والسلام سيد الأولين والآخرين، قال - عليه الصلاة والسلام - : ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر))،

⁴⁶ [الأعراف : 158]

⁴⁷ [الأنبياء : 107]

ومنها أنه أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشقَّع، صاحب الحوض المورد، والمقام المحمود الذي اختص به دون سائر الأنبياء، أعني المقام المحمود، أما الحوض فلكل نبي حوض غير أن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أكبر تلك الأحواض، وهو حوض عظيم طوله مسيرة شهر، وعدد آنيته عدد نجوم السماء، وهو أشد بياضا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، من شرب منه شربة لا يضمأ بعدها أبدا، نسأل الله أن يسقيني وإياكم منه. وقد يزداد عنه أقوام عليهم آثار الوضوء، لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لهم علامة وهي الغرة والتحجيل من آثار الوضوء كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إن أمتي يبعثون يوم القيامة غرا محجلين))، بيد أن ثمة أقواما يمنعون من ورود الحوض وعليهم آثار الوضوء فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أمتي أمتي)) وفي رواية ((أصحابي أصحابي)) فيقال إنهم ليسوا من أمتك، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم غيروا وبدلوا فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((سحقا سحقا لمن غير وبدل))، وما معنى سحقا أي بعدا كل البعد لمن غير وبدل. وقد استغلت بعض الطوائف المنحرفة في هذا الحديث فحملوه على الصحابة وهم أولى بأن ينطبق عليهم، فرمىهم الصحابة بالإحداث والابتداع يعود عليهم لأنهم هم المحدثون وهم المبتدعون، ففعلهم هذا من باب (رمتني بدائها وانسلت). هم أخرى بهذا الأمر، لأن هذا ينطبق على من ابتدع في الدين ومن أحدث في دين الله ما ليس منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)) أما الصحابة فلم يحدثوا في الدين، بل كانوا يجتهدون في تطبيق هدي النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً واعتقاداً.

فالنبي صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء وأفضل الأنبياء بعده هم أولوا العزم من الرسل، وهم أولوا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم إبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم السلام، ولا ينافي أحد في فضل نبينا على سائر الأنبياء، وليس التفضيل هو بالمدائح

والترنم بالقصائد مع الموسيقى ومع المعازف الفاسدة كما يفعله البعض من المسلمين في هذه الأزمنة، وإنما احترامه يكون بمحبته فوق محبة النفس والنفيس ودليل ذلك تطبيق سنته صلى الله عليه وسلم، هذا هو دليل محبته وسيأتي الكلام مفصلاً على ذلك في دروس لاحقة إن شاء الله. المهم يجب أن نعتقد أنه أفضل الأنبياء بل هو أفضل البشرية بل هو أفضل الخلق بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم نعم.

[المتن]

«وَأَجَلَ صَحْبِ الرُّسُلِ صَحْبُ مُحَمَّدٍ .. وَكَذَلِكَ أَفْضَلُ صَحْبِهِ الْعُمَرَانُ»

[الشرح]

نعم «وَأَجَلَ صَحْبِ الرُّسُلِ صَحْبُ مُحَمَّدٍ .. وَكَذَلِكَ أَفْضَلُ صَحْبِهِ الْعُمَرَانُ»
 الصحابة رضوان الله عليهم هم صفة هذه الأمة وقطب رحاها وأفضلها بعد نبيها صلى الله عليه وسلم، ومن شكك في ذلك فليس على منهج الإسلام، لأن الصحابة هم نقلة هذا الدين فإذا اتهم نقلة الدين فأين الدين؟ لا دين، إذا طعن في أصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلا دين. ومما يؤسف له أن يقع في الطعن حتى بعض المنسويين إلى أهل السنة وليس الطوائف المنحرفة كالرافضة فقط، فقد وقع بعض الكتاب في هذا العصر ممن يوصفون بأنهم كتاب إسلاميون بل يوصفون بأنهم شهداء، والشهادة لا يجوز الجزم بها إلا لمن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عما جاء بعده بمئات السنين، وقع هؤلاء الكتاب عن جهل وقلة بضاعة في العلم لأنهم لم يتعلموا على علماء، وقعوا في النيل من الصحابة. كما قلت أنا لا أعني الرافضة فمذهبهم في الصحابة معروف لكن للأسف أنه قد وقع في ذلك بعض المنتسبين إلى أهل السنة وهم بعض الكتاب والشعراء المعاصرين ممن وصفوا بأنهم مجاهدون وأنهم وأنهم.. فقد وقعوا في تضليل عثمان -رضي الله عنه- وقالوا إنه ظالم ومحابي وغاش لرعيته ولم يصرّحوا بتكفيره حتى نكون منصفين كما صرحت الرافضة، لكنهم صرحوا بظلمه وأنه ضعيف وأنه محابي لبني أمية هكذا زعموا ونصوا في

كتبهم كما في كتاب "العدالة الاجتماعية" و"كتب وشخصيات" وغيرها وكما في كتاب "خلافة وملوكية"، فأقول لم يكفروه ولكن جهلوه وجعلوه ظالما ومما يؤسف له أن تكون كتبهم متداولة في مكتباتنا، ويكفيهم موقفهم من الصحابة لاستبعاد كتبهم، ولا استبعاد كتبهم المليئة بالخرافات والبدعة وتأويلهم الصفات وقولهم بوحدة الوجود وغيرها. أما معاوية - رضي الله عنه - وعلي - رضي الله عنه - فقد كفرهما هذا الكاتب، وقال إن عصر علي - رضي الله عنه - ومعاوية - رضي الله عنه - عصر ردة عن الإسلام، هكذا صرح في كتبه، ونحن ننقل من كتبه ما تجنينا عليه، ومما يؤسف له كما قلت وأكرر أن توجد مثل هذه المزابل إلى الآن في مكتباتنا وفيها تكفير علي و معاوية - رضي الله عنهما -، وأما الصحابة من بين أمية فلم يستثني منهم واحدا وقال إن جميع من ينتمي إلى بني أمية كلهم كفار بلا استثناء، وهذا الكاتب المفتون ما سلم منه حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا كله من كتبه فقد قال عن موسى عليه السلام إنه عصبي المزاج فلا حول ولا قوة إلا بالله. وأنا لا أتكلم في مآله ومصيره وعذره عند ربه هذا نكله إلى الله - جل وعلا -، لكن أتكلم عن ما في كتبه ليحذر منها، أما هو قد يكون معذورا أمره إلى ربه لكنه جاهل، فهذا القول أنا أسأل سؤال وأعرف أن بعض الناس قد يغضب من حديثي عن هذه المسألة، لكن أريد أن أسألك يا من تتأثر ويا من تغضب ألا تغضب لعثمان - رضي الله عنه -؟ ألا تغضب لعلي - رضي الله عنه -؟ ألا تغضب لمعاوية - رضي الله عنه -؟ ألا تغضب لهند وأبي سفيان وعمر بن العاص - رضي الله عنهم أجمعين -؟ ألا تغضب لمن نال منهم هؤلاء من الصحابة؟ ألا تغضب لقوله إن كل من شارك في الجمل وصفين كلهم مرتدون؟ ماذا بقي؟ يا إخوان يجب أن نتجرد للحق وأن لا نتعصب لأحد كائن من كان، كلُّ يؤخذ من كلامه ويرد حتى الصحابة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الصحابة ليس معنى الرد أن نسيء إليهم أو أن نسبهم أو أن ننال منهم، لكن إذا وجدنا لهم قولاً مخالفاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم تركناه، قد يخطئون لكن هم معذورون ومأجورون أقل ما لهم أجر واحد. فإذا تنبه لهذا، أنا أقول هذا الكلام لأنني أعرف أن هناك بعض الإخوة المفتونين بهذا الكاتب والمغرورين به قد لا يعجبهم أن يتكلم عنه، وأنا لم أسبه ولم أكفره ولم أنل منه، غير أنني

ذكرت أقواله في الصحابة وفي الأنبياء، فاحكموا وأترك الحكم لكم أنتم، فإما أن نغار على الصحابة وإما أن نسكت على الأقل، هل كلامي هذا واضح؟ وللأسف أنا كنت في مدينة ما فتكلمت عن هذه القضية فخرج أحدهم وقال إنك سببت فلان وذكر هذا الكاتب، قلت أعطني كلمة واحدة فيها سب، أنا طريقتي والله الحمد والمنة لست سبابا ولا شتاما ولا طعانا حتى مع المخالف، أنصفه في كلامه إن شاء الله تعالى كما هو منهج علمائنا ومشائخنا. ولذلك أكرر أنا لم أكفره ولا مشايخنا كفروه لكنهم بينوا ما عنده من ضلال ومن بدع وخرافات وأقوال خطيرة في غاية من الخطورة، منها القول بوحدة الوجود، منها تكفير بعض الصحابة، ومنها النيل من الأنبياء ومنها ومنها.. لكن نقول لعله يعذر بجهله هذا أمره إلى ربه، لكن هل يعني هذا إذا قدر أن له جهودا في مكافحة الباطل في بعض البلاد أو بعض الباطل هل يعني هذا أن نسكت ما عنده؟ العلماء بينوا بعض الأخطاء اليسيرة التي عند أئمة عظام وأعلام لا يقارنون بمثل هذا الكاتب المسكين أو لا يقارن بهم مثل هذا الكاتب المسكين، فيجب علينا أن ننزل الصحابة منازلهم و أن نحفظ لهم حقوقهم وأن نترضى عنهم جميعا بلا استثناء، سواء منهم أهل بدر أو المهاجرين أو الأنصار أو من أسلم قبل الفتح ومن أسلم بعد الفتح والذين بايعوا تحت شجرة الرضوان والذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في يوم حجة الوداع مسلمين وماتوا على ذلك هؤلاء هم الصحابة. إذا لابد لنا من أن نحترمهم. وهنا أود أن أرشد الأخوة إلى قراءة كتاب في هذا الباب منصف جدا في التاريخ أما بقية كتب التاريخ فهي مغشوشة، وبخاصة اليعقوبي والمسعودي فإنهم رافضيان لا يؤخذ عنهما العلم، وكذلك بعض كتب التاريخ حتى عند أهل السنة ملئت بكثير من الغث، لكن من أعظم من كتب في قضايا ما جرى بين الصحابة هو ابن العربي - رحمه الله - في كتابه "العواصم من القواصم" فاقرووها واجتهدوا في فهم الحق منها.

وبعد أن بين أن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم هم الصحابة بين أن أفضلهم العمران ومن هما العمران؟ بارك الله فيكم أبو بكر وعمر، وهذا سائغ في اللغة فقد يقال للمغرب والعشاء العشاءان وقد يقال في الظهر والعصر العصران وهذا سائغ في اللغة،

العمران يعني أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- أبو بكر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا)) ويقول عليه الصلاة والسلام: ((ما طلعت الشمس على أفضل من أبي بكر)) وهو الذي نزلت فيه الآية الكريمة في سورة الليل ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ 48 وآيات كثيرة ذكر أهل العلم أنها تعني أبا بكر -رضي الله عنه- وهو الذي استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته وأعطى كثيرا من الإشارات بل التنصيص على أفضليته وأنه الخليفة ثم يليه عمر بن الخطاب الفاروق -رضي الله عنه- الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وهو ثاني الخلفاء الراشدين وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن كان في أمتي محدثون)) في إحدى الإذاعات الإسلامية كان أحدهم يقرأ هذا الحديث ويقول: إن كان في أمتي محدثون فهو عمر، أعوذ بالله عكس المعنى تماما، طبعاً المسكين ضعيف في اللغة ولا يعرف الفرق بين المحدثين والمحدثين ((إن كان في أمتي محدثون فهو عمر)) ما معنى محدثون؟ ملهمون، بارك الله فيك، وفعلاً كثيراً ما ألهم وجاء الوحي مطابقاً لرأيه كما في قصة أسارى بدر، وكما في قصة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، والخمر وغيرها، فرضي الله عن عمر وأرضاه وأخزى الله من أبغضه وقلاه.

فالعمران هما أبو بكر وعمر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق الصحابة جميعاً وسيأتي مزيد النصوص في دروس لاحقة إن شاء الله عن الصحابة وعن بعض أفرادهم ممن أشار إليهم المصنف هنا.

48 [الليل : 19، 20، 21]

[الشريط السابع والثلاثون]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«رَجُلَانِ قَدْ خُلِقَا لِنَصْرِ مُحَمَّدٍ .. بِدَمِي وَنَفْسِي ذَانِكَ الرَّجُلَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ما زال المصنف يتكلم عن الصحابة وفضلهم وبخاصة فضل أبي بكر وعمر -رضي الله عنهم وأرضاهما-. وهما نصيرا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهما صاحبا، وهما وزيراه، وهما مستشاراه، فله درهما ما أعظم منزلتهما في الإسلام، وما أقبح من يحط من شأنهما لأنهما وزيرا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أخص خواصه عليه الصلاة والسلام، ولذلك أثنى عليهما الناظم - رحمه الله تعالى - بهذا الثناء العطر الذين هما أهل له نعم.

[المتن]

«فَهُمَا اللَّذَانِ تَظَاهَرَا لِنَبِيِّنَا .. فِي نَصْرِهِ وَهُمَا لَهُ صِهْرَانِ»

[الشرح]

«فَهُمَا اللَّذَانِ تَظَاهَرَا لِنَبِيِّنَا» ما معنى تظاهرا؟ المظاهرات المعروفة في هذا العصر؟ ما معنى التظاهر هنا؟ التعاون والتناصر، وليست المقصود مظاهرات الجاهلية التي قائد فيها

بعض المسلمين الكفار، والله أصحاب تلك المظاهرات لا للإسلام نصرُوا ولا للكفار كسروا، أبدا وإنما كسروا ممتلكاتهم هم وخربوا ديارهم فقط. ومن حيث هي مبدأ خبيث يعني مبدأ ليس إسلامي إنما هو مبدأ يهودي ماسوني صهيوني فلا يسمن ولا يغني من جوع عند المسلمين، المظاهرات والانتخابات والبرلمانات هذه لا تسمن ولا تغني من جوع بل هي تعني حكم الغوغائية، هذا الذي تعنيه المظاهرات والانتخابات والمشاركة في البرلمانات التي ينتخبها الجهالة والسفلة والرعاع ومن لا خير فيهم. فهنا وصفهما بأنهما ظهيران للنبي صلى الله عليه وسلم، يعني مناصرين له متعاونين على نصرته -رضي الله عنهما-. وهما أيضا كلاهما زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته، فلهما شرف الصحبة، ولهما شرف المناصرة، ولهما شرف الاستشارة، ولهما شرف الوزارة، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائما يقول : ((كنت أنا وأبو بكر وعمر)) و((جئت أنا وأبو بكر وعمر)) و((ذهبت أنا وأبو بكر وعمر)) فنعم الصحبة -رضي الله عنهم وأرضاهم- فهم خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي بعض الأحاديث الواردة في فضلهما أعني في فضل أبي بكر وعمر، ولهما شرف المصاهرة والرحم حيث زوج أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- وأخزى الله من أبغضها وقلاها واتهمها، وعمر زوجه حفصة أم المؤمنين أيضا -رضي الله عنها وأرضاها - فنعم النسب ونعمت المصاهرة ونعمت الصحبة نعم.

[المتن]

«بَنَاتُهُمَا أَسْنَى نِسَاءِ نَبِيِّنَا ۝ وَهُمَا لَهُ بِالْوَحْيِ صَاحِبَتَانِ»

[الشرح]

«بنتاهما أَسْنَى نِسَاءِ نَبِيِّنَا .. وَهُمَا لَهُ بِالْوَحْيِ صَاحِبَتَانِ» أَسْنَى يعني أفضل وأكمل، وهذا بعد خديجة -رضي الله عنها-. وهما أكثر من روى عنه من أزواجه الأحاديث عائشة ثم حفصة، ولذلك نالا هذا الفضل حيث كان ينزل الوحي في بيتيهما وفي بيوت سائر أزواجه -رضي الله عنهن- ولكن لهما حضوة خاصة ولهما فضل خاص لفضلهما وفضل أبويهما -رضي الله عنهما وأرضاهما- عائشة وحفصة المبرأتان من كل سوء، (حصان رزان ما تَرُثُ بَرِيَّةً) هكذا يقول حسان -رضي الله عنه- في وصف عائشة -رضي الله عنها-، وكذا حفصة. فمن اتهمهن في أعراضهن فهو كافر غير مسلم لأنه يتهم النبي صلى الله عليه وسلم بنكاح الكافرات، فمن اتهمهن في أعراضهن فهو من أكفر الناس، لا سيما إن أصر على ذلك وبقي عليه، لأنه بذلك يمس ويطن في شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما من تاب وأتاب فالله تعالى يقبل توبة التائبين. إذا يجب الترضي عنهما وعن بنتيهما زوجتي رسول الله صلى الله عليه وسلم -فرضي الله عنهما وأرضاهما- وجزاهما الله عن الإسلام والمسلمين خيرا نعم.

[المتن]

«أَبَوَاهُمَا أَسْنَى صَحَابَةِ أَحْمَدَ .. يَا حَبْدَا الْأَبْوَانِ وَالْإِيتَانِ»

[الشرح]

«أَبَوَاهُمَا أَسْنَى صَحَابَةِ أَحْمَدَ .. يَا حَبْدَا الْأَبْوَانِ وَالْإِيتَانِ» أيضا يعني أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- والضمير في أبواهما يعود على أمي المؤمنين عائشة وحفصة -رضي الله عنهما وأرضاهما-، فأبواهما أفضل الصحابة وهما أفضل أمهات المؤمنين بعد خديجة -رضي الله عنها-، وهما من خيرة نساء المؤمنين وهن أمهات المؤمنين.

يا حبذا أي فنعم، وهو من أفعال المدح أي نعم البنتان ونعم الأبوان، ولو وجد فوق هذه الكلمة لقالها المصنف - رحمه الله - ويكفي أن الله قد أشاد بهما بعائشة في كتابه وكذلك بأزواجه الطاهرات المطهرات جميعا نعم.

[المتن]

«وَهُمَا وَزِيرَاهُ اللَّذَانِ هُمَا هُما .. لِفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ مُسْتَبَقَانِ»

[الشرح]

أيضا ذكرنا كونهما وزيريه، وهما هما تكرار الضمير للتأكيد وللتعظيم ولبيان فضلتهما الذي لا يعدله فضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك فهما لهما سابقة الإسلام، ولهما سابقة الذود عن حياض الإسلام، ولهما سابقة الصحبة، ولهما سابقة الوزارة، ولهما سابقة الاستشارة، ولهما سابقة المصاهرة، ولهما سابقة الخلافة، ولهما سابقة الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وكل ما يخطر ببالك من فضل لهما دون تجاوز للحد فقله في هذين العمريين -رضي الله عنهما وأرضاها- نعم.

[المتن]

«وَهُمَا لِأَحْمَدَ نَازِرَاهُ وَسَمِعَهُ .. وَيَقْرَبُهُ فِي الْقَبْرِ مُضْطَجِعَانِ»

[الشرح]

أيضا وصفهما بأنهما عندما كانا حيين نازراه وسامعاه أي اللذان يتابعان النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله، ويؤازرانه في جميع أموره، إلى أن انتقل إلى ربه إلى الرفيق الأعلى، وكذلك كافحا بعده في الذب عن كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم حتى لقيا الله في سبيل ذلك. ثم ذكر بأن مضجعهما بعد الموت إلى جوار رسول الله صلى الله

عليه وسلم، وهذا أيضا لعائشة -رضي الله عنها- فيه سابقة فضل -رضي الله عنها-، أما الأنبياء فلقد ثبت في الحديث أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، ولذلك دفن النبي صلى الله عليه وسلم حيث مات في غرفة عائشة - رضي الله عنها -، ثم باعتبار أن الغرفة لعائشة فقد أمرت أو سمحت بدفن أبيها إلى جوار صاحبه أي إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم ولما استشهد عمر -رضي الله عنه- بعد أن طعن وقبل أن ينتقل إلى جوار ربه استأذن عائشة -رضي الله عنها-، ولحبها لعمر ولسابقته قالت والله إنني كنت أريده نفسي، كانت تريد أن تدخره لنفسها لتدفن بجوار أشرف رجلين أبيها وزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها آثرت الفارق بهذا المكان الطاهر وبهذا الجوار الطاهر، ولم يكتفي عمر بأن استأذنها إبان حياته بل أمر أولاده أن يستأذنها حتى بعد وفاته خشية أن تكون تنازلت حرجا منه ومهابة، فاستأذنها فاستمرت على رأيها وموافقتها على أن يدفن إلى جوار صاحبه النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر -رضي الله عنهما وأرضاهما- نعم.

[المتن]

«كَانَا عَلَى الْإِسْلَامِ أَشْفَقَ أَهْلُهُ .. وَهُمَا لِدَيْنِ مُحَمَّدٍ جَبَلَانِ»

[الشرح]

كانا أشفق الأمة والصحابة على الإسلام، ولذلك يسر الله من الفتوح في عهدهما الشيء العظيم، فلم تكد تنقضي خلافة أبي بكر وعمر حتى انتشر الإسلام إلى تخوم الهند وإلى تخوم بلاد المغرب حتى أتمت تلك في عهد عثمان وفي عهد بقية الخلفاء -رضي الله عنهم وأرضاهم جميعا-. فهما يحملان هم الإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ومؤتمنان عليه وقد أبليا فيه وفي الذب عنه بلاء حسنا -رضي الله عنهما-، ثم بعد ذلك جعلهما الله خليفين بعد نبينا صلى الله عليه وسلم، فوفقهم الله للفتوح ولنشر

الإسلام في كافة أصقاع المعمورة في أقل من ربع قرن فهذا فضل من الله - تبارك وتعالى - ولذلك سماهما جبلين، نعم إنهما جبلان رداءن للإسلام ولذلك انفتحت بوفاتهما ثغرة عظيمة لم تسد إلى يومنا هذا وقد رفع السيف في الأمة الذي أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إذا رفع لا يغمد إلى يوم القيامة)) وهذا ما حصل والله في خلقه شؤون نعم.

[المتن]

«أَصْفَاهُمَا أَقْوَاهُمَا أَخْشَاهُمَا .. أَتَقَاهُمَا فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ
أَسْنَاهُمَا أَزْكَاهُمَا أَعْلَاهُمَا .. أَوْفَاهُمَا فِي الْوَزْنِ وَالرُّجْحَانِ
صَدِيقُ أَحْمَدَ صَاحِبُ الْغَارِ الَّذِي .. هُوَ فِي الْمَغَارَةِ وَالنَّبِيِّ اثْنَانِ»

[الشرح]

بين الشيخ - رحمه الله - بعد أن ذكر وصفهما إجمالاً أي أبا بكر وعمر بدأ يذكر ميزة كل واحد منهما، فبين أن أتقاهما وأصفاهما وأنقاهما وأفضلهما أبو بكر -رضي الله عنه- وهذا بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما طلعت الشمس على أفضل من أبي بكر)) هذا فضل عظيم وبشارة له وقال ((هل انتم تاركوا لي صاحبي)) وقال ((يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)) وقال ((لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً))، فبناء عليه هو أفضلهما أفضل الاثنين، وليس في تفضيله حط من شأن عمر ولكنه أفضل من عمر ومن غيره -رضي الله عنهما جميعاً-. ثم بين من ميزاته أنه كان في الغار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله -جل وعلا-: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾⁴⁹

49 [التوبة : 40]

سبحان الله لما وصل المشركون قال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهما تحت قدمه لأبصرنا. قال: ((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)). فهو صاحبه في الغار، فهذا معه وهاجر معه وغامر معه على الرغم مما تكتنف تلك الهجرة من أخطار عبر الأقطار، ولكن الله حفظ نبيه وحفظ صديق نبيه أبا بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، ولذلك ذكر أنه ثاني اثنين معه في الغار هو أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- نعم.

[المتن]

«أَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الَّذِي لَمْ يَخْتَلَفْ .. مِنْ شَرَعْنَا فِي فَضْلِهِ رَجُلَانِ»

[الشرح]

«أَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الَّذِي لَمْ يَخْتَلَفْ .. مِنْ شَرَعْنَا فِي فَضْلِهِ رَجُلَانِ» أبا بكر الصديق أول من أسلم من الرجال، صاحب الهجرة، وصاحب الوزارة، وصاحب الذب عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يذب عن النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يضربونه عند الكعبة يوم أن كان الإسلام ضعيفا حتى يغمى عليه في بعض الأوقات وهو يقول أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله -فرضي الله عنه وأرضاه-. وقال إنه لم يختلف في فضله رجلان يعني من أهل السنة والجماعة، أما من شذ من شذاذ الآفاق فلا يعاب رأيهم يكفي أن رأيهم رأي فاسد مخالف لمنهج أهل السنة والجماعة.

[الشريط الثامن والثلاثون]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«أَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الَّذِي لَمْ يَخْتَلَفْ .. مِنْ شَرَعْنَا فِي فَضْلِهِ رَجُلَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد

ما زال المصنف - رحمه الله تعالى - يتحدث عن فضل الخلفاء الراشدين، وكان قد ذكر أبيات عديدة في فضل الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، والآن بدأ يفردهما كل واحد بذكر بعض الفضائل وذكر أن أبا بكر -رضي الله عنه- لم يختلف في فضله اثنان من أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، فهو أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم، ولم ينازع في هذا سوى بعض الأرذال والأنذال الذين لا يعبأ بقولهم. والمهم أن نعلم أن أهل الحق أهل السنة والجماعة أتباع السلف مجمعون على فضل أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه- وأنه أفضل هذه الأمة مصداقا لما ورد في فضله من آيات وأحاديث، وقد ذكرت لكم بعض تلك الآيات منها قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ * وَلَسَوْفَ

يرضى ﴿⁵⁰﴾ وقول الله - عز وجل -: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾⁵¹ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَا ضَنَّكَ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثَهُمَا)) فكان أبو بكر رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الرحلة المباركة الهجرة إلى مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم لما اختارها لنشر دعوته وانطلاق مهمته. والأحاديث كثيرة منها ((ما طلعت الشمس على أفضل من أبي بكر)) ومنها ما جاء في فضله هو وعمر معا، ((اقتدوا بالذين بعدي أبي بكر وعمر)) ونحو ذلك مما جاء في فضله و((لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً))، ((يا أباي الله والمسلمون إلا أبا بكر)) فأين يذهب الأردال والأنذال الذين يكفرونه أو ينالون منه أو يسبونونه عن هذه النصوص يوم القيامة نعم.

[المتن]

«هُوَ شَيْخُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَخَيْرُهُمْ .. وَإِمَامُهُمْ حَقًّا بَلَا بَطْلَانٍ»

[الشرح]

«هُوَ شَيْخُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَخَيْرُهُمْ .. وَإِمَامُهُمْ حَقًّا بَلَا بَطْلَانٍ» نعم هو شيخ الصحابة جميعاً، أقدمهم إسلاماً، وأفضلهم درجة، وأكثرهم صحبة، وأكثرهم ملازمة للمصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو إمامهم بعد رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بلا منازع نعم.

[المتن]

«وَأَبُو الْمَطَهَّرَةِ الَّتِي تَنْزِيهُهَا .. قَدْ جَاءَنَا فِي الثُّورِ وَالْفُرْقَانِ»

⁵⁰ [الليل : 19، 20، 21]⁵¹ [النوبة : 40]

[الشرح]

الله أكبر «وَأَبُو الْمُطَهَّرَةِ الَّتِي تَنْزِيهَهَا .. قَدْ جَاءَنَا فِي النَّورِ وَالْفُرْقَانِ» أي أبو عائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين التي برأها الله من الإفك من فوق سبع سماوات، عندما اتهمها المنافقون وتناقل ذلك ضعاف الإيمان أو سرعان الناس فثبتها الله وبرأها، ويكفي أن الله شرفها بهذه البراءة -رضي الله عنها وأرضاها- في سورة تتلى إلى يوم القيامة وهي سورة النور التي برأت فيها ساحة عائشة -رضي الله عنها-، الحصان الرزان كما يقول حسان -رضي الله عنه- (حصان رزان ما تزن بريئة)، ويبدو والله أعلم أن ما نسب إلى حسان أو إلى مصدح أو إلى حمزة أنه لا يثبت، اللهم إلا إن كان شيئاً من تناقل الكلام أما أنهم قذفوها كما قذفها الأشرار فيبدو أن هذا بعيد، والذي يبدو أن المحققين من أهل العلم ينفون أن يكونوا قد قذفوا مباشرة أو جلدوا بسبب ذلك وإن كانت بعض الروايات قد وردت في هذا، لكن يبدو أنها لا تصح، فحسان -رضي الله عنه- هو القائل (حصان رزان ما تزن بريئة)، أي ما تظن بريئة لأنها أم المؤمنين -رضي الله عنها وأرضاها-، التي روت ما يربو على ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -رضي الله عنها وأرضاها- والتي هي من أحب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إليه نعم.

[المتن]

«أَكْرَمَ بِعَائِشَةَ الرِّضَا مِنْ حُرَّةٍ .. بِكَرِّ مُطَهَّرَةِ الْإِزَارِ حَصَانَ»

[الشرح]

«أَكْرَمَ بِعَائِشَةَ الرِّضَا مِنْ حُرَّةٍ .. بِكَرِّ مُطَهَّرَةِ الْإِزَارِ حَصَانَ»

أكرم بها أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلفه وحببته والتي توفي عليه الصلاة والسلام وانتقل إلى الرفيق الأعلى وهو بين حاقنتها وذاقنتها، بين سحرها ونحرها، على صدرها الطاهر الطيب المبارك، الحصان الرزان -رضي الله عنها وأرضاها-، أم المؤمنين عائشة الحصان الرزان، الطاهرة المطهرة، المبرأة من فوق سبع سماوات-رضي الله عنها وأرضاها- نعم.

[المتن]

«هي زوج خير الأنبياء وبكره .. وعروسه من جملة النسوان»

[الشرح]

«هي زوج خير الأنبياء وبكره .. وعروسه من جملة النسوان»

هي الوحيدة التي تزوجها بكر عليه الصلاة والسلام-رضي الله عنها وأرضاها-، حيث تزوجها بنت ست وبنى بها وهي بنت تسع، وكانت من أكثر الناس حديثا عنه من أكثر أزواجه حديثا عنه -رضي الله عنها وأرضاها -، وهي عروسه من جملة النسوان أي من ضمن أزواجه التسع -رضي الله عنهن-، وكلهن طاهرات مطهرات غير أن عائشة أفضلهن بعد خديجة -رضي الله عنها-، فيجب الترضي عنها واعتقاد أنها أم المؤمنين، واعتقاد طهارتها. ومن اتهمها بالإفك فهو كافر ليس بمسلم لأنه يكذب القرآن ومن كذب القرآن فقد كفر، من اتهم عائشة في عرضها ترتبت عليه أربع محاذير:

• المحذور الأول: أنه كفر

• المحذور الثاني: أنه كذب القرآن

● المحذور الثالث: أنه اتهم النبي صلى الله عليه وسلم بالديانة وحاشاه ذلك

بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام

● المحذور الرابع: أنه خالف ما أجمعت عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن نال منها أو قذفها فقد وقع في هذه المحاذير الأربعة: الكفر، تكذيب القرآن، اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بالديانة، والرابع خرق إجماع أهل السنة والجماعة. فيجب أن نعتقد أنها طاهرة مطهرة، عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه وزوجته وراوية حديثه، ويكفي أنه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتها وأن يموت بين سحرها ونحرها عليه الصلاة والسلام، بل أكثر من ذلك إنها قضمت له السواك في آخر لحظة من لحظات حياته وألانت له بفمه الطاهر ثم إستاك به، ثم رفع إصبعه إلى السماء وقال في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى، صلوات الله وسلامه عليه وأخزى الله وأخزى الله وأخزى الله من نال منها أو من منزلتها نعم.

[المتن]

«هي عرسه هي أنسه هي ألفه .. هي حبه صدقا بلا إدهان»

[الشرح]

هذه أوصاف عظيمة، عرسه، ألفه، أنسه، حبه، صدقا بلا بهتان، كل هذه الأوصاف تليق بعائشة الرضا -رضي الله عنها وأرضاها- وأخزى من أبغضها وقلاها، تلك الصفات تنطبق على الصديقة بنت الصديق وعلى سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لكن لا شك أن لها ميزة خاصة عليهن فرضوان الله عليها وأرضاها نعم.

[المتن]

«أُولَئِكَ وَالِدُهَا يُصَافِي بَعْلَهَا .. وَهَمَا بِرُوحِ اللَّهِ مُؤْتَلِفَانِ»

[الشرح]

«أُولَئِكَ وَالِدُهَا يُصَافِي بَعْلَهَا» والدها أبو بكر وبعلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما بروح الله، برحمة الله، بفضل الله، بتوفيق الله، بأمر الله -عز وجل- متآلفان متحابان في الله تبارك وتعالى ((يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)) فرضي الله عن أبي بكر الصديق ورضي الله عن عائشة الصديقة وأرضاها وجمعنا وإياكم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبهم في يوم القيامة في جنات النعيم نعم.

[المتن]

«لَمَّا قَضَى صَدِّيقُ أَحْمَدَ نَحْبَهُ .. دَفَعَ الْخُلَافَةَ لِلْإِمَامِ الثَّانِي»

[الشرح]

الله أكبر «لَمَّا قَضَى صَدِّيقُ أَحْمَدَ نَحْبَهُ .. دَفَعَ الْخُلَافَةَ لِلْإِمَامِ الثَّانِي»، الإمام الثاني عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وقد أوصى له أبو بكر بدون منازع، ووافق عليه الجميع، جميع المسلمين أهل الحل والعقد فكما أجمعوا على خلافة أبي بكر أجمعوا على خلافة عمر -رضي الله عنهم وأرضاها-، والرسول صلى الله عليه وسلم لما ذكر الحديث فيما رأى في المنام أنه رأى أبا بكر فنزع دلوا أو دلوين والله يغفر له كناية عن قصر الخلافة وإلا فهذا لا يحط من قدره -رضي الله عنه-، ثم جاء ابن الخطاب وأخذ ينزع الدلاء ينزع الذنوب تلو الذنوب -الذنوب التي هي الدلو- فلم أرى أحدا يفري فريه، وقد فسر ذلك بالإجماع بأن المقصود كثرة الفتوح التي فتحها الله على يدي الشيخين -

رضي الله عنهما وأرضاهما- . وهو الإمام الثاني أو الثالث بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم، فالإمام الأول والقائد الأعظم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإمام الثاني هو أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه-، والإمام الثالث هو عمر بن الخطاب، والإمام الرابع هو عثمان بن عفان، والإمام الخامس هو علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وهكذا يأتي بقية أئمة الهدى والدين كل بحسب فضله وقدره نعم.

[المتن]

«أَعْنِي بِهِ الْفَارُوقَ فَرَّقَ عَنَوَةً .. بِالسَّيْفِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ»

[الشرح]

«أَعْنِي بِهِ الْفَارُوقَ فَرَّقَ عَنَوَةً .. بِالسَّيْفِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ» لما أسلم عمر - رضي الله عنه - شهر سيفه وهاجر أمام الملء وقال من أراد أن تتكلمه أمه فليلقني خلف هذا الوادي. أكثر الناس هاجروا خفية وعمر -رضي الله عنه- هاجر علنا معلنا، وقد سمي الفاروق لأن الله فرق به بين الحق والباطل، وكثيرا ما كان الوحي ينزل موافقا لرأيه -رضي الله عنه-، كما في قصة أسارى بدر، وكما في حجاب أمهات المؤمنين، وكما في الخمر وغيرها من المسائل العظيمة، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام ((إن كان في أمتي محدثون فهو عمر)) ما معنى محدثون ملهمون نعم.

[المتن]

«هُوَ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ خَفَائِهِ .. وَمَحَا الظَّلَامَ وَبَاحَ بِالْكَتْمَانِ»

[الشرح]

«هُوَ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ خَفَائِهِ .. وَمَحَا الظَّلَامَ وَبَاحَ بِالْكَتْمَانِ»، قبل إسلام عمر كان الناس يتخفون، وقد نصر الله الإسلام بعمر وقوية شوكة المسلمين ومحا الله به الظلام وانتشر الإسلام وأعز الله المسلمين بإسلام عمر -رضي الله عنه وأرضاه- نعم.

[المتن]

«وَمَضَى وَخَلَّى الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَهُمْ .. فِي الْأَمْرِ فَاجْتَمَعُوا عَلَى عُثْمَانَ»

[الشرح]

نقف على خلافة عثمان -رضي الله عنه- إلى درس الغد إن شاء الله.

[الشريط التاسع والثلاثون]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«وَمَضَى وَخَلَّى الْأَمْرَ شُورَى بَيْنَهُمْ .. فِي الْأَمْرِ فَاجْتَمَعُوا عَلَى عُثْمَانَ»

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

بعد أن ذكر سيرتي الخليفتين العظيمين الراشدين القائدين الإمامين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-، ذكر أن عمر -رضي الله عنه- الفاروق لما مضى وانتهت خلافته وشعر بدنو أجله حيث استشهد في سبيل الله بعد أن طعنه الخبيث المجوسي، فحقق الله له الشهادة وكان قد دعا بدعوتين مباركتين قد استجيبتا، حيث كان يقول: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك وموتا في مدينة رسولك صلى الله عليه وسلم. وقد تحقق له الأمران، ونحن مأمورون بسكنى المدينة والاجتهاد في أن يكون موتنا فيها، وحث النبي صلى الله عليه وسلم المسلم أن يموت بها ولو أن يأكل من عَظَاهَا من شجرها، ويكفي أن الإيمان يَأْرُزُ إِلَيْهَا كما تَأْرُزُ الْحَيَّةُ إِلَى جَحْرهَا، مع أنه يجب أن نعلم أمراً فهي لا تقدر أحداً، من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه وكذلك لم يسرع به سكونه. فعبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين كانوا في المدينة ولم ينفعهم ذلك، لكنها تنفع المسلم. سكنها ينفع المسلمين، وأما ما زاد على ذلك من المبالغات

التي يوردها بعض الجهلة من أن الناس يرحّلون من البقيع المنافقون ويؤتى بأناس قد ماتوا خارج المدينة ويجعلون مكانهم هذا غير صحيح، هذا كله دجل وسفه، وكذلك ما يدعيه المدعون من أن أهل البقيع هم أول من يبعث، هذا كله ليس عليه دليل وإنما هو من خرافات المخرفين وبدع المبتدعين الذي لا يعولون على السنة فيما يقولون وما يفعلون.

ترك عمر -رضي الله عنه- الأمر شورى لاختيار خليفة في ستة، وهم الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وهو راض عنهم وقد بشرهم بالجنة، ستة من البقية العشرة، هم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير، المهم أن هؤلاء الستة تشاوروا ثم اجتمعوا كما ذكر المصنف على عثمان -رضي الله عنه- وسنذكر بعض فضائله -رضي الله عنه وأرضاه- نعم.

[المتن]

«مَنْ كَانَ يَسْهَرُ لَيْلُهُ فِي رَكْعَةٍ .. وَتَرَا فَيُكْمِلُ خَتَمَةَ الْقُرْآنِ»

[الشرح]

وصف المصنف عثمان -رضي الله عنه- بأنه كان يتم القرآن في ليلة، وأنه كان يقرأه في ركعة، وعلى أية حال فإن له فضائل أخرى سنذكرها فيما بعد، مع أنه قد يقول قائل إن قراءة القرآن في ليلة واحدة قد يكون أمرا لا نقول مستحيل لكن لا يمكن أن يكون على الوجه الصحيح ويحتاج إلى نظر، لكن هو كان حريصا وكان من قراء القرآن ومن حفظة القرآن ومن المهتمين بأمر القرآن وممن شارك في جمع المصحف ثم فرقت المصاحف في عهده في كافة الأمصار الإسلامية نعم.

[المتن]

«وَلِيَ الْخِلَافَةَ صَهْرُ أَحْمَدَ بَعْدَهُ .. أُعْنِي عَلَيَّ الْعَالَمَ الرَّبَّانِي»

[الشرح]

من فضائل عثمان -رضي الله عنه- أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا أستحي مما تستحي منه الملائكة))، ومن فضائله -رضي الله عنه- أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة على بلوى تصيبه وقد حصل ذلك، ومن فضائله -رضي الله عنه- أنه مجهز جيش العسرة، وكان ينفق بسخاء، وكان بكاء من خشية الله، وله فضائل كثيرة لا تعد ولا تحصى. وقد توفي شهيدا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، قتله البغاة المعتدون الذين لا هم لهم إلا الكلام في الخلافة وولي الأمر في ذلك الوقت، وكانوا زعموا أنهم يأخذون عليه أمورا لا يصح شيئا منها، وحتى لو صح مع أنه لا يصح فإنه أمر سهل لا يرقى إلى درجة الخروج عليه أو ذمه أو النيل منه، وقد وقع فيه خوارج هذا العصر كما وقعت فيه الخوارج القديمة، ووقع فيه كُتَّاب هذا العصر من الخوارج من بعض زعماء الجماعات الحزبية التي تنتسب إلى الدعوة وهي لا تعرف أساس الدعوة ما هو، ولا تقم دعوتها على توحيد الله، بل أقامته على النيل من علي وعثمان ومعاوية -رضي الله عنهم وأرضاهم-، فوقع هؤلاء الكتاب الجهلة في النيل من عثمان ووصفه بالظلم، ووصفه بأن عهده عهد فجوة، ووصفه بالانحياز، ووصفه بالتمالك، ووصفه بأوصاف لا تليق به -رضي الله عنه- وكلها قد اعتذر عنها ما وجد منها له فيها العذر المقبول، وما لم يوجد وهو الأكثر فهو محض افتراء افتروه على عثمان -رضي الله عنه- ذي النورين الذي زوجه النبي صلى الله عليه وسلم ابنتيه -رضي الله عنهما-. فلا يقع في عثمان إلا منافق أو شبه منافق، وهؤلاء المساكين الذين وقعوا وهم ليسوا بالجملة ممن يتكلمون في الصحابة أو يعادون الصحابة كبعض أهل البدع المارقين بالكلية لكن مع ذلك أصابتهم هذه اللوثة وهي لوثة التعلق بالحكم والكرسي ولوثة منافسة الحكام ولوثة الكلام في السلاطين الذي جعله

كُتِّبَ هذا العصر الجهلة دينا لهم، ولا هم لهم إلا أن يتكلموا في الولاة و الحكام ولا يهتمون حتى بتطهير البلاد من الشرك الأكبر الذي يوجد في بلاد أولئك القوم أو أولئك الكُتَّاب الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها على الحكام، ونسوا وتركوا توحيد الله الخالص ألا وهو توحيد الألوهية الذي ارتكس فيه الناس إلى عبادة القبور ودعاء أصحاب القبور من دون الله - سبحانه وتعالى - والتعلق بهم من دون الله - جل وعلا- وسؤالهم كشف الكربات وإزالة الملمات وإقالة العثرات فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الخلاصة أن عثمان -رضي الله عنه- لما استشهد على أيدي البغاة الفجرة الذين استهدفوه وأراد الله أن ينال هذه الشهادة وقد وقع السيف في الأمة من ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يظهر تارة ويقل تارة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنني لا أخشى عليكم عدوا من سوى أنفسكم وإنما أخشى عليكم أنه إذا وقع فيكم السيف لا يرفع إلى يوم القيامة))، فسلم عثمان وانتقل إلى ربه شهيدا وانتقلت الخلافة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وسنذكر بعض فضائله نعم.

[المتن]

«زَوْجَ الْبَتُولِ أَخَا الرَّسُولِ وَرَكَنَهُ .. لَيْتَ الْحُرُوبِ مُنَازِلَ الْأَقْرَانِ»

[الشرح]

زوج البتول، البتول فاطمة -رضي الله عنها- وأرضها سيدة نساء الجنة - رضوان الله عليها - فقد نال شرف الصحبة وشرف الزوج من بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفلذة كبده، وهو الشجاع الذي لا يضار ولا يجار وكذلك الأئمة قبله شجعان لا يضارون ولا يجارون وهو الذي بات في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((لأعطين الراية غدا - يوم فتح خيبر - رجلا

يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)) فكان ذلك علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- الذي هو أول من أسلم من الغلمان ومن الصبيان الصغار -رضي الله عنه وأرضاه- وأخزى الله من أبغضه وقلاه من الخوارج الذين تقربوا بدمه، وهكذا والعياذ بالله يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن، فهو من خيرة الناس وأشجعهم وأقواهم عزيمة وفضلا وقوة وإيمانا نعم.

[المتن]

«سَبَّحَانَ مَنْ جَعَلَ الْخِلَافَةَ رُتْبَةً .. وَبَنَى الْإِمَامَةَ أَيْمًا بُنْيَانًا»

[الشرح]

«سَبَّحَانَ مَنْ جَعَلَ الْخِلَافَةَ رُتْبَةً .. وَبَنَى الْإِمَامَةَ أَيْمًا بُنْيَانًا»، جعلها رتبة للمسلمين ليختاروا من يسوسهم في أمر دينهم ودنياهم، سواء كانت تلك الخلافة اختيارا كما حصل لأبي بكر وإجماعا من أهل الحل والعقد، أو وصية وعهد كما حصل من أبي بكر لعمر، أو شورى بين أهل الحل والعقد كما حصل من اختيار عثمان -رضي الله عنه-، أو إجماع المسلمين كما هو اختيار علي بعد استشهاد عثمان -رضي الله عنه-. فهي رتبة عظيمة في الدين (لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم *** ولا سراة إذا جهَّالهم سادوا) فلا بد من أمر يقيم حياة المسلمين. وقد كانت الخلافة ثلاثين عاما ثم انتقلت بعد ذلك إلى ملك عضوض كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ويجب السمع والطاعة حتى بعد انتهاء الخلافة الراشدة. وكون الملك بعد ذلك وراثيا أو غير وراثي وسواء كان ذلك الأمير أو الخليفة ممن اختير أو ممن تغلب على الأمة وحكمهم بشرع الله أو ممن اختاره المسلمون أو نحو ذلك فتجب له السمع والطاعة على الوجه الذي سيفصل فيما بعد إن شاء الله تبارك وتعالى. وليست الخلافة ركنا من أركان الإسلام كما تزعم بعض الطوائف

المنحرفة كالخوارج والمعتزلة والروافض ونحوهم، وإنما هي أمر من أمور الإيمان لا بد منها بحسب ما يقتضيه الحال، فإن وجد خليفة للمسلمين جميعا فذلك المطلوب وذلك المرغوب والمحبوب وإن لم يوجد وصارت المسلمون أقطارا كما هو الحال بعد انتهاء الخلافة الراشدة فإنه تجب كذلك السمع والطاعة لمن ولاه الله علينا من أولياء المسلمين ممن يقيم القرآن والسنة ما أقاموا الصلاة فينا نعم.

[المتن]

«وَأَسْتَخْلَفَ الْأَصْحَابَ كَيْ لَا يَدَّعِي .. مِنْ بَعْدِ أَحْمَدَ فِي النَّبُوءَةِ ثَانِي»

[الشرح]

«وَأَسْتَخْلَفَ الْأَصْحَابَ كَيْ لَا يَدَّعِي .. مِنْ بَعْدِ أَحْمَدَ فِي النَّبُوءَةِ ثَانِي»

يعني اختاروا الخليفة الراشد أبا بكر -رضي الله عنه- حتى لا يدَّعي مدعي النبوة، ولا شك أن هذا بإشارة بل نص من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا في درس الأمس وذكرنا عددا من الأحاديث الواردة والتي منها ((يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)) ومنها ((لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً))، ولذلك لما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ثم شرح الله صدور المسلمين لما شرح الله صدر عمر وبايعوا أبا بكر فقال عبد الله بن مسعود: ((ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن))، والمقصود يعني أن هذا الإجماع من أعظم ما رآه المسلمون حسناً وليس بدعا في الدين، وإنما هو مما أجمع عليه أهل الحل والعقد، وإنما رأوا خلافة أبي بكر الصديق كي لا يدعي مدعٍ الوراثية في مثل هذا الأمر وأن النبوة ميراث ولا ميراث للنبوة إلا العلم إذ أن العلم هو ميراث النبوة فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

[الشريط الأربعون]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في نونيته:

[المتن]

«أَكْرَمُ بِفَاطِمَةَ الْبُتُولِ وَبَعْلَهَا ۝ وَبِمَنْ هُمَا لِمُحَمَّدٍ سِبْطَانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«أَكْرَمُ بِفَاطِمَةَ الْبُتُولِ وَبَعْلَهَا ۝ وَبِمَنْ هُمَا لِمُحَمَّدٍ سِبْطَانِ»

فاطمة البتول هي فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، سيدة نساء الجنة - رضي الله عنها وأرضاها-، أم الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد توفيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وكانت من خيرة النساء المؤمنات زهدا وكرما وورعا -رضي الله عنها وأرضاها - . والمقصود ببعلها معروف علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- وقد تقدم الكلام على فضائله وعلى بعض شمائله -رضي الله عنه وأرضاه- . والسبطان هما الحسن والحسين -رضي الله عنهما - ابنا علي وفاطمة -رضي الله عنهما -، وجدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهما اللذان ثبتا يوم حصار الخوارج والبعثات لعثمان -رضي الله عنه-، فثبتا مدافعين عنه حتى قضى الله أمرا كان مفعولا، فأما الحسن فقد أصلح الله به الأمة وجمع الله به كلمة المسلمين وهذا مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم ((إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين طائفتين من المؤمنين)) والطائفتان هما

طائفة أهل الشام وبقية المسلمين الذين كانوا مع علي -رضي الله عنه-، ولا شك أن الحق مع علي وأنه هو صاحب الخلافة، ولكن الفتنة قد حصلت ثم إن الحسن -رضي الله عنه- تنازل عام واحد وأربعين للهجرة فجمع الله المسلمين على كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه وأرضاه- وعن أبيه وعن أمه وعن جميع الصحابة ولو كره الحاقدون ولو كره المبتدعون. فهذا هو معاوية ولذلك يقول أيوب السخيتاني - رحمه الله تعالى - من طعن معاوية فاتهمه على الإسلام فهو متهم، لماذا؟ لأنه خال المؤمنين يعني أخو من؟ أم حبيبة -رضي الله عنها-، ولأنه كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه قد أجمع عليه المسلمون بتنازل الحسن -رضي الله عنه وأرضاه-، فلذلك سمي ذلك العام عام الجماعة، حيث اجتمع المسلمون على أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه وأرضاه- . وأما الحسين فقد بقي ما شاء الله أن يبقى، ثم إنه خرج لوعده ممن تخلى عنه بعد ذلك لما حصل ما حصل ولوحظ ما لوحظ على يزيد بن معاوية، فخرج اجتهدا منه وقد أخطأ في هذا الاجتهاد لأن ابن عباس -رضي الله عنهما- نصحه بعدم الخروج لعدة أمور؛ أولا تحريم الخروج في حد ذاته مادام تقام الصلاة، فيحرم الخروج ما لم يرى كفر بواح عندنا من الله فيه برهان وأيضا يغلب على الظن أن الخروج بعد الكفر البواح يعود بأمر محمود على المسلمين، ليس خروج من إجماع أهل الحل والعقد على أمر ما يعود على الإسلام والمسلمين بخير، لذلك فإن الحسين -رضي الله عنه وأرضاه- قد نصحه ابن عمه عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- ولكن أراد الله ما أراد أن يظلم ويستشهد على يد بعض الأوباش هم الذين غرروا به ثم بالتالي هم الذين تخلوا عنه وغدروا به -رضي الله عنه وأرضاه-، ولا شك أن قتله كان خطأ كبيرا في الإسلام إذ هو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته، مع أنه لا يوافق على مسألة الخروج -رضي الله عنه وأرضاه- لكن بعض الناس استغل الفرصة ليقع

في صفوف الأمة وحصل ما خيف منه وما حذر منه فرضي الله عن الحسن والحسين وأرضاها نعم تفضل.

[المتن]

«غُصْنَانِ أَصْلُهُمَا بَرَوْضَةُ أَحْمَدٍ .. لِلَّهِ دَرُّ الْأَصْلِ وَالْغُصْنَانِ»

[الشرح]

يقصد الحسن والحسين فهما غصنا شجرة أصلها نبي الهدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فنعم الأصل ونعم الفرع نعم.

[المتن]

«أَكْرَمُ بَطْلَحَةٍ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدُهُمْ .. وَسَعِيدُهُمْ وَبِعَابِدِ الرَّحْمَنِ»

[الشرح]

هنا بدأ يعدد بقية العشرة المبشرين بالجنة، أكرم بسعد؛ سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قائد فتح القادسية -رضي الله عنه-، أكرم بطلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة، وله فضائل عظيمة لا تعد ولا تحصى. ثم ثنى بالزبير بن العوام الذي هو زوج أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنه- وأحد العشرة المبشرين بالجنة أيضا، والذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم إنه حواريه، حوارى النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام. ثم ثلث بسعد بن أبي وقاص من أخوال النبي صلى الله عليه وسلم -فرضي الله عنه وأرضاها- قائد القادسية المشهورة. ثم ربع بسعيد بن زيد بن نفيل أحد العشرة أيضا وأحد كبار الصحابة. ثم خمّس بعبد الرحمان بن عوف وعبر بكلمة عابد الرحمان من أجل الوزن وعابد الرحمان وعبد الرحمان بمعنى واحد -فرضي الله عنهم وأرضاها-، هؤلاء نشهد

لهم بالجنة لأنه قد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نشهد لأحد من أهل القبلة يعني من المسلمين ولو كانوا من أتقى الأبرار ولو كانوا من أفجر الفجار لا نشهد لهم بجنة ولا بنار، وإنما نرجو للمحسنين الثواب ونخشى على المسيئين العقاب ونكل الخواتيم إلى رب الأرباب - سبحانه وتعالى - . فنشهد للعشرة ونشهد لثابت بن قيس بن شماس، ونشهد لعبد الله بن مسعود، ونشهد لبلال بن رباح، ونشهد لجعفر بن أبي طالب، وعكاشة بن محصن وغيره ممن شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما من عدا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم حتى ولو كان صحابيا لا نشهد له إلا بالفضل والخير والتقى والصلاح بل ونشهد أن الله قد رضي عنهم أجمعين نعم.

[المتن]

«وَأَبِي عُبَيْدَةَ ذِي الدِّينَةِ وَالتَّقَى .. وَامْدَحْ جَمَاعَةَ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ»

[الشرح]

أبو عبيدة عامر بن الجراح أحد العشرة أيضا وبهذا قد كمل العشرة أبو عبيدة عامر بن الجراح - رضي الله عنه - أحد العشرة المبشرين بالجنة وهو من هو؟ هو قائد الجيوش المشهورة الذي أكمل المسيرة بعد خالد بن الوليد - رضي الله عنه وأرضاه - رضي الله عنهم جميعا. وكذلك ذكر بعد أبي عبيدة وبعد أن فرغ من العشرة المبشرين بالجنة، ذكر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم للأخذ بدم عثمان لما تأخر يوم الحديبية، ويشير بهذا الترضي عنهم إلى الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾⁵² وغيرها من الآيات التي فيها الترضي عن الصحابة أجمعين نعم.

[المتن]

⁵² [الفتح: 18]

«قُلْ خَيْرَ قَوْلٍ فِي صَحَابَةِ أَحْمَدٍ .. وَامْدَحْ جَمِيعَ آلِ وَالنَّسْوَانِ»

[الشرح]

«قُلْ خَيْرَ قَوْلٍ فِي صَحَابَةِ أَحْمَدٍ .. وَامْدَحْ جَمِيعَ آلِ وَالنَّسْوَانِ»

أصحاب محمد هم كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً ومات على الإسلام حتى ولو قدّر أن تخللته ردة، فالصحبة تعود إليه بعودته إلى الإسلام. ويجب أن نقول فيهم خيراً وأن لا نطلق ألسنتنا في أعراضهم، فقد سمعنا في دروس سابقة إلى بعض الأدلة على فضل الصحابة، وقد شملت الصحابة جميعاً الثلاث آيات في سورة الحشر قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾⁵³ من هؤلاء؟ المهاجرون السابقون الأولون إلى الإسلام. ثم وصف الآخرين بقوله ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁵⁴ هذه الآية نص في الأنصار - رضي الله عنهم - الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((الأنصار شعار والناس دثار)) ما الفرق بين الشعار والذثار؟ الشعار ما يلي الجسم من اللباس، والذثار الغطاء الذي لا يلي الجسم، فخص الأنصار بهذه المنقبة العظيمة، ((الأنصار شعار والناس دثار وطمانهم))، ((المحيا محياكم والممات مماتكم)) وقال أيضاً: ((أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم))، ثم مدح بقية الصحابة بما في ذلك مسلمة الفتح ومن أسلم بعد الفتح بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾⁵⁵ وذكر في سورة الحديد من أسلم قبل الفتح ومن أسلم بعده، وأن أكل

⁵³ [الحشر : 8]

⁵⁴ [الحشر : 9]

⁵⁵ [الحشر : 10]

قد وعدهم الله -تبارك وتعالى- الحسنى. كل هذا يدل على فضل الصحابة أجمعين بدون استثناء. ويحرم سبهم أو شتمهم ومن كفرهم فهو كافر، وكذلك من فسقهم، لأنهم إذا كفروا أو فسقوا فالدين كله قل عليه السلام، لأنهم هم حملة هذا الدين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهابا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)).

وقد أجمع المسلمون على عدالتهم وأنهم صفوة هذه الأمة وخير القرون بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الله قد خصهم بخصائص عظيمة. ولذلك أئف السلف كتبوا في فضائل الصحابة، من ذلك "فضائل الصحابة" للإمام أحمد وأيضا للنسائي، وكذلك لا تجد كتابا من كتب العقيدة إلا ويتضمن مقطعا كبيرا في بيان أهمية فضائل الصحابة. فهذا الكتاب الذي بين أيدينا، شرح العقيدة الطحاوية، عقيدة أهل الحديث للصابوني -رحمه الله-، السنة للخلال، السنة للإمام أحمد، السنة للإمام عبد الله بن الإمام أحمد، السنة للبرهاري شرح السنة للبرهاري، شرح السنة للبغوي، أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، كتب الإيمان (...) في باب الإيمان كلها تبين فضائل الصحابة وفي كتب السنن أبواب في فضائل الصحابة، فماذا بعد الحق إلا الضلال. ومذهب السلف هو الكف عما شجر بينهم يعني ما وجد بينهم من خلاف، مثل ما حصل في الجمل وصفين. ولذلك يقول بعض المفسرين إن قول الله -عز وجل-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾⁵⁶ أن ذلك يقصد به الصحابة الذين حصل بينهم ما حصل من سوء الفهم ومن سوء التفاهم بسبب بعض المندسين والمغرضين وأن الله يجلسهم وينزع الغل من قلوبهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ومن أراد أن يقرأ منزلتهم أيضا أو أن يتزود فليقرأ كتاب "العواصم من القواصم" لابن العربي -رحمه الله- فإنه قد وفق في ذلك أيما توفيق. ومن آخر ما كتب في هذا الباب كتاب الرد على المالكي المفتون المسمى فرحان لشيخنا الشيخ عبد المحسن العباد البدر -حفظه الله- وربما ندرس إن شاء الله كتابه قبيل الحج إن شاء الله تعالى. وأيضا ممن عني بالذب عن الصحابة كتاب عظيم أيضا جمعه ورد به

⁵⁶ [الحجر : 47]

أخونا الأستاذ الدكتور إبراهيم الرحيلي بعنوان "الانتصار للصحب والآل في الرد على السماوي الضال" فينبغي لطلاب العلم أن يقتنوا هذين الكتابين كتاب شيخنا الشيخ عبد المحسن وكتاب أخي الشيخ إبراهيم فإنهما كتابان عظيمان في هذا الباب ولهما فوائد جمة لا يستغني عنها طالب العلم.

ثم بعد ذكره للصحابة إجمالاً عاد وذكر الآل والنسوان يعني أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. وآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم يشمل آل جعفر وآل علي وآل عقيل وآل العباس وأزواجه صلى الله عليه وسلم. بل إن أزواجه من أهل البيت بنص القرآن في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾⁵⁷ الخطاب كان لمن؟ لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فالذي عليه المحققون أنهم من آل بيت النبوة، والرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((أوصيكم الله في آل بيتي)) سواء كانوا بذلك آل بيته أزواجه أم آل بيته أقاربه آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل نعم.

[المتن]

«دَعَّ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي الْوَعَى .. بِسُيُوفِهِمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ»

[الشرح]

يشير بهذا إلى ما نهت عليه أكثر من مرة، لا تخض فيما جرى بينهم فأن له أسباباً يعني هم معذورون فيها وقد اجتهدوا في ذلك ومنهم مخطئ ومنهم المصيب ولا شك أن علي -رضي الله عنه- هو المصيب ومع ذلك لا نشن ولا نتقص معاوية -رضي الله عنه- فقد اجتهد عندما ادعى المدعون من أمثال ابن سبأ أن علي -رضي الله عنه- تستر على قتلة عثمان، كيف يكون وأبناء علي هم الذين كانوا يدافعون عن عثمان -رضي الله عنه-

⁵⁷ [الأحزاب : 33]

وأرضاه-. فيجب الكف عما شجر بينهم وكف اللسان، يقول عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- عندما جاءت سيرتهم قال: " أولئك قوم طهر الله سيوفنا من دمائهم فلنطهر ألسنتنا من أعراضهم " رحمك الله يا عمر بن عبد العزيز وسائر أئمة الهدى والدين نعم.

[المتن]

«فَقَتِيلُهُمْ مِنْهُمْ وَقَاتِلُهُمْ لَهُمْ .. وَكَلَاهُمَا فِي الْحَشْرِ مَرْحُومَانِ»

[الشرح]

كلاهما مرحومان، وكلاهما مرضي عنهم، فالقاتل والمقتول منهم يترضى عنه ويترحم عليه ويرجى له الخير ويحب في الله - سبحانه وتعالى - يعني من الصحابة نعم.

[المتن]

«وَاللَّهُ يَوْمَ الْحَشْرِ يَنْزِعُ كُلَّ مَا .. تَحْوِي صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ»

[الشرح]

يشير بهذا إلى الآية الكريمة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غُلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾⁵⁸ الله - سبحانه وتعالى - ينزع كل ما جرى ويظهر قلوبهم ويؤلف بينهم في الجنة نعم.

[المتن]

«وَالْوَيْلُ لِلرَّكْبِ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَى .. عِثْمَانَ فَاجْتَمَعُوا عَلَى الْعِصْيَانِ»

[الشرح]

⁵⁸ [الحجر : 47]

طيب هذا تكلمنا عنه بالأمس ونستكمل ما يتعلق به غدا إن شاء الله تعالى وإلى درس الغد إن شاء الله وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

طالب العلم: أحسن الله إليكم يا شيخ في أسئلة تتعلق بدرس الأمس

الشيخ: طيب.

طالب العلم: بارك الله فيكم يقول السائل ما هي أحسن الكتب التي ألفت في هذه
الفرقة أي الخوارج؟

الشيخ: من أحسن الكتب التي ألفت جميع كتب العقيدة تكلمت عن مذهب
الخوارج ومنها الكتب التي ذكرتها قبل قليل؛ السنة للإمام أحمد، السنة لعبد الله بن الإمام
أحمد، أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لللالكائي، شرح السنة للبرهاري، شرح السنة
للغوي، السنة للخلال، كذلك كتب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام، شرح العقيدة
الطحاوية، هذا ما من كتاب في العقيدة إلا ونص على مذهب الخوارج وحذر منه، وأما ما
أُنف في الفرق فقد بينت مذاهبهم في كتب الفرق كلها وتشعبهم ونشأتهم. وأما في هذا
العصر فهناك بعض المؤلفات في الرد على التكفير والمكفرين، ومن ذلك كلام مشايخنا
مبثوثة في فتاوى الأئمة في حكم الخوارج والتحذير من مذاهبهم، ومن ذلك رد شيخنا
الشيخ علي بن ناصر فقيهي في الرد على الفرقة الإباضية من الخوارج، ومن ذلك كتب
شيخنا الشيخ ربيع بن هادي -حفظه الله- سواء ما جاء عرضاً أو ما رد فيه على المكفرين
مثل كتبه في مطاعن السيد قطب في الصحابة وما إلى ذلك وتكفيره أقصد أنه يكفر لا
أقصد أننا نحكم عليه بالكفر، ولذلك الأخ المسكين الذي أمس فهم منا خطأ وزعم أننا
كفرنا صاحب كتاب الضلال سيد قطب أبداً، هل سمع مني كلمة التكفير له أو لغيره؟ هل
أنا كفرته؟ إذا بأي حق يفترى عليّ هذا المسكين؟ أنا أقول على الرغم من موافقه حتى من

الصحابة فحن نكل أمره إلى ربه لأنه أفضى إلى ما أفضى إليه ولأنه أيضا جاهل، ولا ندري عنه هل يعذر بجهله أم لا، أمره إلى ربه - سبحانه وتعالى -، وإلا فهو قد وقع في طوام كبيرة لا تعد ولا تحصى، دونه كتاب صدر هذه الأيام لشيخنا الشيخ عبد المحسن البدر - حفظه الله - في الرد على الخوارج.

طالب العلم: يقول بأي عقل ودين يكون التفجير والتدمير جهادا ويحكم أفيقوا يا شباب.

الشيخ: هذا عنوان لشيخنا - حفظه الله - وسندرسه إن شاء الله ربما من غد إن رأيتم ذلك، تريدونه من الغد أم بعد رمضان؟ من الغد بعض الإخوة مسافرون يريدونه من الغد، إذا من الغد، نؤجل النونية نستكملها بعد العيد إن شاء الله، وفي كتاب آخر في التحذير من مذهب الخوارج وبيان تاريخهم لشيخنا الشيخ عبد (...) - حفظه الله - أيضا أجاز وأفاد.